في هذا العدد

محمد أمين العمري
حياته وأدبه

الدكتور
عمر الطالب

هو امين العمري الخطيب بن خير الله العمري الخطيب بن محمود ابن موسى بن علي بن الحاج قاسم العمري، ولد في منتصف شعبان عام ١١٥١هـ «١» الموافق ١٧٣٨م، ويقال: انه ولد عام ١١٥٠ «٢». والتاريخ الثاني هو الاصح. وصادف مولده انتشار الطاعون في مدينة الموصل ومات بسببه خلق كثير، اذ كان يموت في اليوم الواحد ما يزيد عن الف نسمة ثم اخذ يتناقص فبلغت الوفيات خمسيناً واقل من ذلك «٣» حتى قضي على المرض بعد ان استمر اربعة اشهر كما بدأ العصيان في نواحي البصرة امير بني قشعم، الامير صقر القشعمي، فخرج الى والي بغداد احمد باشا بن حسن باشا بجنوده وجمع العساكر وتوجهوا نحو البصرة. واغار على حي بني قشعم فهرب صقر وتبعه احمد باشا فاستسلم صقر وهرب. وغنمت عساكر العراق واستولى احمد باشا على بيت صقر وحمى اهله وحملهم الى بغداد وارسل يستدعي صقراً وامنه على نفسه وماله وقدم عليه وخضع بين يديه فأكرمه وخلع عليه واعاده الى امارته ورجع احمد باشا الى بغداد منصوراً ومدحه عبد الله فخري زادة الموصلي بقصيدة طويلة يقول فيها :

عقاب الوغى، لما بدا طار صقرهم   لدى حيث القت رحلها ام قشعم

وجاء هذا البيت من حسن الاتفاق لان صقراً هو امير قشعم وام قشعم هي

«١» عباس العزاوي، تاريخ الادب العربي في العراق ص ٤٠.

«٢» غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام، ص ٣٥٠.

«٣» ياسين العمري، الآثار الجلية في الحوادث الارضية، ص ١٨.

هي الحمارة. «٤» وقد بيع الورد الجوري بمصريتين واقل والحقة باربع مصريات وتوفي احد الاجواد الحاج بكر التاجر بن عبد الجواد الشافعي الموصلي، وكان من اهل الصلاح. وفي اليوم الثامن والعشرين من آذار وقع في الموصل ثلج عظيم سمكه شبران واقام على وجه الارض سبعة ايام وتوفي العالم الفاضل يوسف افندي النائب الموصلي الحنفي وأصله من الاكراد واستخلصه المفتي ياسين افندي وزوجه ابنته وولاه نيابة القضاء بالموصل. وكان يدرس في جامع النبي جرجيس «٥».

اما في عام ١١٥١ فقد ولي الموصل الحاج حسين باشا الجليلي وقتل الحاج احمد بن الشيخ عثمان الخطيب «٦» وغضب الحاج حسين باشا الجليلي على محمد اغا بن شويخ ونفاه الى كركوك ثم قتله وقدم من بغداد كنج محمد اغا بالعساكر بامر من احمد باشا واغار على شاطىء دجلة ونهب الثياب التي يغسلها نساء اهل الموصل وعاد الى بغداد واشتد مرض الطاعون وتوفي الامير محمود اغا بن ابراهيم اغا الجليلي الموصلي «٧».

وكان محمد امين العمرى عالما، خطب في جامع العمرية سنة ١١٨٠ هـ واخذ العلوم عن والده ثم عن محمد سليم الاردلاني الملا علي السوسني الكردى والملا عبدو بن عيده والملا درويش العقراوى والملا موسى مدرس المدرسة الامينية وعليه كمل واجازه بقراءة العلوم وملا جرجيس الاربلي والعلامة عاصم في مدينة ماوران، اذ سافر الى ماوران عام ١١٧٤ واخذ العلم عن العلماء الحيدرية ثم عاد الى الموصل، وسافر الى بغداد وقرأ على صبغة الله الحيدرى وعلى ولده عيسى عام ١١٧٨ هـ ودرس في الموصل في مدرسة ياسين المفتي « ٨ ». كما درس في مدرسة محمد باشا والمدرسة العمرية . وله مؤلفات كثيرة : رسالة في حل بعض مشكلات القرآن ويغلب على مؤلفاته الادب

« ٤ » المصدر السابق.

« ٥ » الدر المكنون ج ٦.

« ٦ » المصدر السابق

« ٧ » عمدة البيان، ص ٣٣.

« ٨ » عباس العزاوي، المصدر السابق، ص ٤.

والتاريخ، منهج السالك في شرح الفية ابن مالك. منظومة الاستعارة كتاب في علم العروض. البديعية العمرية، شرح هذه البديعية. تخميس الهمزية، ومنها نسخة خزانة سليمان العمري وفيها مدائح نبوية على حروف المعجم . زهرة الفنون وزهرة العيون فيها أربعة وعشرون علما. ومواقع النجوم وقلائد النحور. والدر المنثور وحدائق الزهور والريحان ومراتع الاحداق ونوادر المنح والكشف والبيان عن مشايخ الزمان. والفريدة العمرية في الحكم العربية. وسراج الملوك ، ومنهل الصفاء، ورسالة في القراءة في النوافل ، وفتاوى ومنهل الاولياء ، ورسالة في الحساب، ورسالة في احكام المرتد . وتخميس البردة وديوان مدائح نبوية وديوان في المدائح والغزل . وتراجم الشعراء وديوان في الحكم والامثال . وديوان في حروف المعجم وديوان نبوى على حروف المعجم«٩»وقصة عنترة وكتاب في تاريخ الموصل «١٠».

وتوفي عام ١٢٠٣ وقال في مرض موته :

يا رب طال سقامي وانقضى زمني — واليسر مفترق والعسر مجتمع
أبيت أرقب نجم الليل أحسبها — والدمع في صفحات الخد ينهمع
أقول آها وآه غير نافعــــة — فليت شعري بأي القول أنتفع
اذا وثقت بصبري خانني جزعي — والصبر يضعفه الاحزان والجزع
فاخرج بلطفك عما أنت باعثه — فقد ضعفت وطال السقم والوجع

وتوفي في هذه السنة الفقيه الزاهد الورع محمد سليم الاردلاني، نزيل الموصل الذي استوطن المدرسة العمرية مدة طويلة. وكان يزوره باشوات بني عبد الجليل وملك نحو الف مجلد واوقفها على أهل العلم وعندما عمر زكريا التاجر مدرسته رحل اليها ونقل كتبه فيها فلم تطل مدته غير ايام وتمرض ومات ودفن في مقبرة مجاورة لجامع النبي شيت كما توفي عبدالله العمري بن أحمد العمري. وكان اماماً في جامع العمرية وقد أخذ طريقته من الشيخ الحاج محمد عونة.

«٩» الدر المكنون، ص ٦٣٩ ، غاية المرام، ص ٣٥١.

«١٠» تاريخ الموصل، ص٢٠٢ ، ٢٠٨.

وله شعر منه مشطر قوله :

ولرب نازلة يضيق لها الفتى صدراً، وييأس من مناه ويزعج
ويصير ولهان ان يقلب كفه ذرعاً، وعند الله منها المخرج
كملت، فلما استحكمت حلقاتها ضاقت به رحب الفضا والمنهج
وغدا لسان الحال منه آنسا مزجت،وكان الظن الا تمزج ١١»

عصره :

كان القرن الثاني عشر للهجرة من ازهى العصور التي مرت بها الموصل. فقد بدأت نهضتها في القرن العاشر وازدهرت في هذا العصر وكثرت فيها المعاهد العلمية والمدارس وخزائن الكتب ودور القرآن واصبحت من المدن التي يقصدها طلاب العلم يقيمون في مدارسها ويأخذون عن شيوخها.ونشطت فيها الحركة الادبية لاقبال حكامها على الشعر ورعايتهم للادباء.وكان اهل المدينة يعتزون بلغتهم ونبغ فيها عدد كبير من السفراء والمؤلفين تركوا اثاراً عدة بين دواوين شعرية ومصنفات ادبية وتاريخية.وكثرت المجالس الادبية التي يدور فيها النقاش ويروى فيها الشعر والنثر وكان للتكايا فضل كبير في جمع شباب المدينة وتوجيههم الى الذكر والوعظ وندوات الشعر والادب. وكانت حلقات الذكر تقام في الليالي حيث يقرأ القرآن وينشد المرتلون التنزيلات النبوية.ونبغ في مدينة الموصل عدد من العلماء وصار منهم شيخ يرجعون اليه يسمى «شيخ القراء»مثل الشيخ سعد الدين بن احمد بن مصطفى البصري.وتولت اسرته المشيخة من بعده مدة قرن كامل.وكثرت المقامات والتنزيلات وكانت ترتل باصوات جميلة.واقبل الشعراء على نظمها لانشادها في حفلات المولد كما ظهرت جماعة من المؤلفين في التاريخ والتراجم والادب«١٢»

« ١١ » الدر المكنون، ص ٦٣٩.

« ١٢ » محمد امين العمري، منهل الاولياء، ص ١٤-١٦.

شعره :

لمحمد امين العمري شعر كثير. وقد شجعه على قول الشعر استاذه ملاعيسى اذ اقترح ان يهنيء اباه ببناء بيت جديد سنة ثمان وسبعين ومائة والف فقال :

هنيئاً لك الدار التي بان وضعها بترتيبه يزرى بكل مقام
رفيعة سمك زاحمت بعلوها مناكب شمس الافق اي زحام
انيطت بهام الفرقدين فاصبحت تفيد بفرط الحسن كل همام
يفتح روض العلم في جنباتها ازاهر فضل عن بطون كمام
فلا عجب ان اخصبت لعفاتها ففيها من المولى اجل غمام
ولو لم تكن في طولها فلك العلا لما اطلعت للناس بدر تمام
ديار على غير المطالع اسست ففاقت بابهى هيبة ونظام
يحل بها من صبغة الله ضيغم يناضل عن طلابها ويحامي
عجبت لها من منزل في فنائه من العلم بحر بالمسائل طام
فلا برحت للطالبين ظلالها مناهل تطفي حر كل اوام
حللتم جنان الخلد منها فارخوا مقاما معلى ، فادخلوا بسلام

واقترح عليه ايضاً ابيات على نمط سقط الزند فقال :

خليلي ما للحادثات وما لي لقد طال منها يا زمان جدالي

الى ان قال :

رعى الله من رام الربيعين ساحة محاسنها مركوزة بخيال
اذا صور الله الاقاليم وجنة غدت بلد الحدباء نقطة خال
وما وطني بغداد لكن قضية من الدهر كادت أن تمر ببالي
ولا غرة الزوراء عندي بغرة وان كنت في الخضراء نصب نبال
فيا بارقا من غرب دجلة عن لي فبدد من جفني عقود لآلي
هل الربع من ارض الحبيبة عامر كما كان عهدي فيه منذ ليال؟
وهل ذلك السفح الشذى بحاله ام اعترضته النائبات كحالي ؟
وهل شجرات الجوسق الفرد مثلما عهدت بنوار الزهور حوال؟

وهل سفح ذاك الدير اخضر يانع ام اغتاله صرف الردى بنكال؟

الى ان قال :

فدى لك يا قصر المليحة مهجتي فقد كنت فياح الجوانب حال«١٣»

متى سلت الغراء فيك شمالي فما انا عن تلك المسيئة سال

الى ان قال :

ومن لم يخاطر بالحشاشة لم ينل من العيش داني المطالب المتعالي«١٤»

وله اشعار وضعت كنقوش مزخرفة في جوامع الموصل، فقد عني كما عني شعراء عصره بتاريخ الحوادث والمناسبات، ومن اجمل التواريخ التي نظمها تاريخ عمارة منارة وشعارها «الله اكبر يا عمر» كما اتخذ شعره كنقوش وضعت في جامع باب البيض، فقد كتب في اعلى الباب الاول من جامع باب البيض«وهو جامع الشيخ الزيواني»الذي بني عام ١١٩٣ هـ :

لقد انشأ السادات بيت عبادة رجاء ثواب في غد وختام

وحمراء ذات المكرمات وامهم حليمة ذات «الفضل بنت كرام»

سليمان «فيض» للندى ومحمد اخوه مزيد المجد بدر تمام

فهل هو دار «الامن» «قلت» مؤرخاً: بلى دار امن ، فادخلوا بسلام

وكتب في اعلى الباب الثاني :

تطوع ابناء الامير وآله بانشاء بيت للمهيمن جددا

سليمان ميمون السجية ذو الندى ولا تنس رب المكرمات محمدا

وحمراء ذات المجد حقا وامهم حليمة من طابت نجارا ومحتدا

فانعم به بيتا بديعا مؤرخا مكان به ذكر الاله ممجدا

وكتب في رواقات المصلى وطرف الفناء وفي صدر الرواق الرابع :

ان آل الامين اهل المعالي سلكوا في الهدى طريقاً قويما

انشأوا جامعا بديع المعانـــي فاستفادوا به ثواباً عظيما

« ١٣ » هكذا ورد البيتان في كتاب «غاية المرام» .

« ١٤ » غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام، ص ٣٥٢،٣٥٣

بذلوا الفضل فيه ، اذ ارخوه مسجداً جامعاً وفضلا أريما

وكتب في اعلى الباب الثالث من المصلى :

حليمة ام الخير واهبة الندى مطهرة الاخلاق اصلا وعنصرا
بانشاء بيت للاله تطوعت ونالت ثوابا في الحياة منورا
وساعدها في ذلك الخير نجلها محمد أوفى الناس عزا ومفخرا
وحمرة ذات الخدر كلا تشاركوا فاحيوا شعار الدين لما تغيرا
بناء لوجه الله جاء مؤرخا مقاما به الشرع الحنيفي ازهرا «١٥»

وله شعر كثير طرق فيه معظم الاغراض الشعرية التي كانت معروفة في عصره واضاف عليها فتمد مدح الرسول الاعظم بعدة قصائد. وله ديوان خاص مرتب على حروف المعجم في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم. ومن أشهر ما جاء فيه :

له القدح المعلى في المعالـــي اذا ما أغور القوم القداح
ثنت أقلامـــه البيض المواضي فلانت عندها السمر الرماح
وطارت في البلاد له خواف علوم الخافقين لها جناح
سحاب طبق الاقطار فضلا ومن جدواه اعفيت البطاح
فالقح في لواقحه عقيما من الاداب انتجها اللقاح
وكم احيت قريحته رميما كما احيا الورى الماء القراح
وردت كل شاردة جموح عن البلغاء شط بها الجماح
سهام ذكاة لم تخطىء مراما كأن مضاءها قدر متاح
بميدان المقال له لسان تفل بحده البيض الصفاح
قد اتخذ الفصاحة في عكاظ وتاجرها تجاريه رياح
تروح بذكره الركبان تحدو وتثنيها لذكراه الرماح
فناديه الحرام له حلال وروض علومه علم مباح
فلا زالت مآثره لدينـــا رياضا للصدود بها انشراح «١٦»

كما مدح الاولياء والصالحين والمشايخ ونظم سور القرآن الكريم بقصيدة بديعية

« ١٥ » مجموع الكتابات المحررة في ابنية مدينة الموصل، جمعها نيقولا سيوفي .

« ١٦ » محمود شكري الالوسي ، المسك الاذفر ، ص ٩٨، ٩٩.

وسار على منواله محمد أمين آل ياسين المفتي وعبد الله آل ياسين المفتي كما مدح أرباب الحكم في عصره وهنأهم في المناسبات واشاد باعمالهم العمرانية«١٧»

وتغلب على شعره الصنعة والتكلف في اللفظ والمعنى والاهتمام بالبديع والمحسنات اللفظية.

ونظم في الشعر التعليمي. وله عدة منظومات في مختلف العلوم.

وفي شعره حكم وأمثال يدعو فيها الى الزهد في الدنيا والترفع عن مجاراة الحكام فلا يبقى من الانسان غير العمل الصالح :

كل ما في الكون ظل زائل وجميع الخلق وهم وخيال
واذا امعنت فيها نظرا لا ترى غير ضلال في ضلال
وانقضى فيها خيالي اقتفي كل حين مخرج منها مثال
حركات في سكون وفنا في بقاء وافتراق في اتصال

وكثيرا ما يدعو بتسليم الامور الى خالقها ويتكل عليه في اموره الصعبة :

لا اشتكي زمني هذا فاظلمه وانما اشتكي من أهل ذا الزمن
هم الذئاب التي تحت الثياب فلا تكثر الى أحد منهم بمؤتمن
قد كان لي كنز صبر فافتقرت الى انفاقه في مداراتي لهم ففني

وقوله :

عجبت للمرء يسعى في مطالبه والرزق يأتي بلا كد ولا طلب
وينصب النفس احيانا ويتعبها وفي الحقيقة نيل الرزق في التعب
فسلم الامر واصبر غير مبتئس فربما جعل التوفيق في النوب

وهو يزهد في العيش ويقنع باليسير ولا يندم على ما فات ويحث على العمل للاخرة ويضرب الامثال بمن ملك وشيد ثم طوته الارض فلم يحصل من الدنيا الا على اعماله الصالحة :

لا تتبع النفس آمالا تعن لها فانما هي تخييل واوهام
وسلم الامر تسلم من عواقبه فما يكون لغير الله أحكام
ولا تقل فاتني امر الى احد فما يفوت امرءا حظ واقسام

«١٧» محمد امين العمري، منهل الاولياء، ص ٣٤.

ولا يسرك مطلوب ظفرت به   فما له عنك تأخير واحجام
مضت بذاك مقادير واقضية   من الاله وجفت عنه اقلام
ما كان رزقك لا يعدوك واصله   وما لغيرك لا يادنيه اقدام
الدهر قوس ومن تحت السما غرض   والله راميه والاقدار اسهام
والعمر ،مهما صفا وردا، فآخره   كدورة ولذيذ العيش احلام
والحل في صفة التحويل مأخذة   فما تدوم مسرات وآلام
اي امرىء ناله بؤس فلازمه ؟   وهل رأيت نعيما أهله داموا ؟
والدهر يومان : اعسار وميسرة   وشر يوميه ما يتلوه اعدام
لا تيأس اذا نابتك ضائقة   من الزمان فعقبى المنع انعام
واعمل لاخراك فالايام فائتة   وهل يدوم مع الافلاك ايام ؟
اين الاحبة ؟ قد كانت منازلهم   عظيمة ولهم في الناس اعظام
كانوا عظاما فامسوا اعظما رمما   وانبتت بعدهم في الحي اظلام
اعلامهم طمست واندك طورهم الر   امي ومرت على الاطلال اعوام
لم يبرح الدهر يرعاهم فمذ رحلوا   لا الدار دار ولا الاعلام اعلام
لابد ان تنهل الكأس الذي نهلوا   لكل مبتدأ في الكون اتمام
اي امرىء ما اهاظ البين جانبه   ولا اتيح به للموت المام ؟
والكائنات عبارات لهن على   ام الكتاب امارات واعلام

وكان كثير التذمر من حياته التي جعلته بعيداً عن أمثاله من أهل الفضل شديد الشكوى من الزمان كثير الحذر من ابنائه،لانه وجد في الناس التقلب والشر ،فقد كان كثير الحساد يحسدونه على عمله وفضله وادبه رغم ان ابواب الرزق كانت مغلقة امامه :

انى اتجهت رأيت اليأس يصحبني   فمن الوم اذا ما فاتني اربي ؟
خاب الرجاء فلو اني مددت يدي   في در قارون لم اعثر على نشب
مالي ارى كل من القاه يغضبني   فهل يرون رضاء الله في غضبي ؟
اذا ذهبت عن الاوطان منترحا   في مقصد كان بالخسران منقلبي

لم اتخذ سببا في نيل مأربة الا وقصر عن ادراكها سببي
ان كان ذنبي الى الامام من ادب تعبت فيه فاني تبت من ادبي
اليأس راحة من يسعى بلا ظفر وقد يئست ، فهل ارتحت من تعبي ؟
متى نهضت بلا حظ الى امل رجعت ذا وصب عنه وذا نصب
مواعد الدهر لا يرجى له مطر فلا يغرك منه زخرف الكذب
ان فاتك الامر فاعلم انه قدر وليس ذلك للتقصير في الطلب
كم طالب خاب مما كان يأمله وغافل جازه عنوا فلم يخب
صبر الاديب وما يعروه من جزع كلاهما غير منجيه من الكرب
لكن مع الصبر حلم دونه سفه يشينه لا يقاس النبع بالضرب

وقد دفعه اليأس الى التهكم والسخرية من اولئك الذين نالوا من الجاه وسعة الرزق ما لا يستحقونه وهو كثيرا ما يشبههم بالبهائم سخرية ونكالا :

ارى غنما ترعى وتأكل ما تهوى بغير احتياج لاحتيال ولا دعوى
وتسقى زلال الماء من غير كلفة واسد ضوار تطلب الماء ما تروى
واشراف قوم لا ينالون قوتهم كفافا وان راموا باجهد ما يقوى
وما حصلوا الا من الاكل ما ردى واندال قوم تأكل المن والسلوى
وكل الذي حازوه ليس بحيلة ولكن عطايا عالم السر والنجوى

ويكثر الشاعر من الحكم والامثال في معرض وصف ابناء زمانه وما هم عليه من خداع وزيف :

مصانعة الرئيس لئيم قوم امازه انه بعض اللئام
ولولا ان يكون المجد صعبا لما امتاز اللئام عن الكرام
وحب المرء منقصة ولؤما معاشرة الاراذل والطغام

ويقول في هذا المعرض :

نحن والله في زمان غشوم لو رايناه في المنام فزعنا
اصبح الناس منه في سوء فعل حتى من مات منهم ان يهنا

وقد اقنعه شظف العيش بشيء يسير فهو لا يطلب غير كسرة خبز وجرعة

ماء وخرقة يستر بها جسده :

الخبز كسرته السوداء تشبعني والماء جرعته الزرقاء ترويني
والصوف ادناه يكفيني ويحفظني من حر تموز او من برد كانون
وخرقة الخام بعد الموت تسترني عن العيون وتكفيني لتكفيني
والارض ان عشت تضنيني مساجدها والقبر بعد نزول الموت يؤويني
فكيف ارفع آمالي الى ملأ صم عن الحق او عمي عن الدين «١٨»

وله في الغزل شعر جميل يشوبه احياناً بعض التكلف. ومن قصيدة له عندما كان في دار عبد اللطيف اغا مع بعض الادباء وكان قد استدعي ليزيد المجلس سروراً. قال في شعر يناسب مجالس الطرب :

عظ ايها الواعظ منك النفسا أذهب ذو النعماء عنك البؤسا
واصبح الكل كما قد امسى بثوب صحة المزاج يكسا
فشرف الاحباب واطلب مرسا من هذه الغمرة طبت نفسا
فقد غدونا اذ فقدنا الفلسا عجائزا مثل السعالى خمسا
ولم يجد ابن الجميل ضرسا كذا ابن علوشه الاكول همسا

فصاحوا به : ادركنا ياواعظ افندي«١٩»

ومن شعره الغزلي الجميل قوله :

اطل الوقوف على ربى الجرعاء واندب طلول ربائب وظباء
واعجم سطور رسومها بمدامع هملت عسى تهديك للامراء
وانشق شذا القيصوم من ارجائها فتقت نسائمه بنشر كباء
والصق بتربتها حشاشتك التي قد سعرت بتنفس الصعداء
دار بها دارت كؤوس منية طورا واونة كؤوس مناء
لله ماذ مت ترائب نهدها من معهد يحوي عهود وفاء
سوح به الغزلان ترتع والمها ترعى بساحته هشيم كلاء
وبه ظباء كالغصون اذا انثنت سنها سقامي في الهوى وشفائي

« ١٨ » محمد امين العمري، منهل الاولياء، ص ٣٨

« ١٩ » محمود شكري الالوسي، المسلك الاذفر، ص١٠٥، ١٠٦.

رحلوا الى حزوى وفيها طنبوا كللا حكت بالشكل افق السماء
ونأوا فلم ار لي نديما بعدهم غير الانين بحرقة وبكاء
وسروا الى الجرعاء فوق شملة قطعت اكام البيد بالاسراء
يا ليت قلبي كان موطيء خفها وحشاشتي ارضالها برضائي
حرف تجوب الارض في المسرى اذا حاد حدا بترنم وغناء
وبكت طلول الغانيات بأعين تهمى بعبرتها عقيق دماء
ورمت عصا التيار في وادي طوى أنعم بذاك الرمي والالقاء !
مع كل غانية سناء جبينها يحكي بدور دجى وشمس ضحاء
من منجدي من حب خودان بدت ليلا تزول غياهب الظلماء
واذا انثنت مرحا تخال قوامها غصنا يميس بحلة خضراء
وسرت مياه الحسن في وجناتها فبدا بخديها عقيق حياء
عانقتها ورشفت خمرة ريقها فبرئت من ظمأ وزال ظمائي
ورايت دمعي في سجنجل وجهها فحسبتها تبكي لطول بكائي
شوقي الى تقبيل وجنتها حكى شوق العطاش الى زلال الماء
جمعت محاسن وجهها كل البها فتمنطقت بدوائر الجوزاء
كالشامة الخضراء فوق الوجنة الا حمراء تحت المقلة السوداء
ومغندر بملابس من سندس ومعلم بمحاسن وبهاء
فتسلطنت وجناته في شوقه لله در الوردة الشوكاء !
ابدت عوارضه عوارض وصله كالشوك يحمي الورد عن اجناء
وكسا صباح جماله غسق الدجى فغدا الصباح ممنطقاً بمساء
وبدا على خديه خال خلتـه مسكا يفوح بوجنة حمراء
ونسى بديع بهائه في خده فقرأت فيه نسمة الانشاء
قلم الملاحة خط لام عذاره بالمسك فوق الفضة البيضاء

غنى فؤادي فوق بانة خده فتهافت الاغصان للاصغاء
عاتبته فتحدرت من وجهه درر البها خجلا لفرط حيائي

ولا يكتفي في غزله بوصف المظاهر المادية كما كان شائعا في عصره بل كثيرا ما يستخدم المحسنات البديعية فيفقد غزله انطلاقة العاطفة وصدق الاحساس فيقول :

يا من نعيش بسهر الورد نرجسه دليل دعواك بالتحقيق منتقض
الورد يشبه خدا رق حاشية وذاك يشبه طرفا شفه المرض
ولا قياس على الورد الجني له او ان يقاس بمثل الجوهر العرض

وتقرب الى الولاة يمدحهم في مناسبات مختلفة فهنأ والى بغداد الذي سار افتتح الاحساء ووصف خصومه بالبغي وطلب اليه الايكتفي بنجد بل الوصول الى اليمن بقوله :

ايا والي الزورا الذي لجلاله جميع ولاة الارض تدنو وتخضع
لك المنشآت الغر في البحر انها تروح بنصر الله طورا وترجع
اضفت الى الزوراء نجدا باسرها ولا شك ان الفرع للاصل يتبع
ومن ظلم اهل البغي انقذت اهلها فاضحت بجنات العدالة ترتع
عليها جعلت الجند سورا مشيدا وحصنا حصينا للمفاسد يمنع
فانعم ظل الله سيفا مجوهرا عليك به انف الشقاوة تجدع
واني لارجو ان تكون ضميمة عليها بلاد حازها قبل تبع «٢٠»

واهتم شاعرنا بالبديع والبلاغة، ومن افضل ما ترك لنا مجموعة البديعيات عام ١١٨٢.

« ٢٠ » ابراهيم الوائلي، الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر، ص ١٤٠

مجموعة البديعيات

مفردة البديعيات لمحمد امين العمري بن خير الله الخطيب في سنة ١٨٢

براعة الاستهلال وحسن الابتداء

حسن ابتدا كلمى ملى بذى سلم   براعة المدح في استهلاله بف

الجناس اللاحق

ولاحق الدمع لما شام لمع سنا   ثغورهم ضارع الهامى من الد

الجناس المضارع

راق النسيب كما رق النسيم بهم   مضارعا نشرطى من شعور

الجناس الملفق

سعى الوشاة بتلفيق الكلام لهم   ظلما فهان دمى فيهم، فها ندمي

الجناس المركب

ضع في ذيولك منهم يا نسيم شذى   مركبا فشفى ضعفى بنشر

الجناس التام

مر الصبا فصبا قلبي وتم له   رقص، فهل حملوه طيب عطره

الجناس المشوش

غابوا فشوش افكاري تباعدهم   فالدمع ما بين مسنح ومنسح

الجناس المصحف

عفت رسوم اصطباري وانمحت صفحا   وما غفت مقلتي من يوم بين

الاشتقاق المطلق

ومطلق العين بالتقييد شق على   خدى وخدده اطلاقه ب

الجناس المحرف

املى الهوى املى منهم فما رحموا   حالى ومالوا الى تحريف ود

الجناس اللفظي

ورب لفظي عدل مر ناضره   بناظري فحلا ذوقا لذكر

الجناس المعنوي

دمعي ابن يحيى عزائي المعنوي ابو يحيى لهم وفؤادي ابن معتصم

جناس الرفو

وكلما طال رفض الصبر راق‌دمي لهم وقصر عن نيل المنى قدمي

الجناس المجنح

للسلم لو جنح اللوحى جنحت له فان قلبي بين الضال والسلم

المطرف والقلب

رفا ملامي بوشى من نصيحته مطرفا فملا قلبي من الالم

نفي الشي بايجابه

ما فيه من حمة تنفي بموجبها عذلى وتردعه عن زخرف الكلم

ومنها الترشيح

ينظم الوشى غشا اذ يرشحه بالنصح ويحك ما استمعت ذاصمم

السلب والايجاب

ظلما اطل بايجاب الملام وما اطال فضلا لمسلوب بظلمهم

الهجو في معرض المدح

في معرض المدح لا اهجو اللحاة بهم لانهم اظهروا اسرار حسنهم

المواربة منها

واربت اذ وعظوني قائلا لهم غدرتم وعدلتم يا ذوى الشيم

الابهام منها

منعتم الجار فضلا فاكففوا عذلا عني وعضوا على الابهام من ندم

ومنها التسليم

لم ينصحوني وهبهم في الهوى نصحوا فما انتفاعي لتسليم لنصحهم

ومنها النزاهة

نزاهتي منعتني ان ازاحمهم نطقا فحسبي سكوتي عن جوابهم

لزوم مالا يلزم

قد الزموا الصب امرا غير ملتزم تعسفا فرموه في ذرى الازم

ومنها الافتنان

اذا تفنن فكرى في محاسنهم   انشا البلاغة في تشبيه لؤمه

ومنها المغايرة

اصغى اليهم وذا مني مغايرة   اقول لوموا وحيوني بذكره

ومنها التهكم

تهكموا فقالوا اذ رأوا شغفي :   لك البشارة بالهجران والته

رد العجز على الصدر

الم اصدر بهم افواف منتظمى   من غير عجز؟ الم اشك لهم الم

ومنها الاكتفاء

هم الكفاية فيهم منتهى املى   فالطرف في حبهم مثل الفؤاد ء

الهزل الذى يراد منه الجد

هازلت من لامني جدا فقلت له: اتعبت نفسك فاكفف عن حديثه

ومنها التفويت

فوت اطل اقصر اغذر صف تأن   افد اعذل اعد اعدل ارحم جر لم أستق

ومنها المقابلة

قابلتهم برجا الاحزان عن بعد   فاعرضوا بسنا الافراح من ام

ومنها المطابقة

وطابقوا بين اجفاني وحبسهم   فالدر ما بين منثور ومنتظ

و منها التذييل

هم الذين بتذيل الهيام كسوا   عقلى ومن ذاق من خمر الهوى به

ومنها المناقضة

ناقضت من قال دعهم قلت ذاك اذا   صدوا وهز نسيم شاهق العل

ومنها الاستثناء

عفت الحليف فلم استثن اذ رحلوا   الا عنان غرامى في قدودهم

التورية المهيات

قد هيأوا لفؤادي من لواحظهم   سهما من السمر قل يا خيبة القس

الطي والنشر

طووا رموا نشروا خانوا أبوا حضروا — انسى الحشا كمدى عهدى اللقاذمي

ومنها الاستدراك

واستدركوا ما تبقوا من عهودهم — لكن بنقض اباح الحل من حرم

ومنها الاستطراد

واستطرد الشوق من عيني سوابقها — تسابق السيل من يم ومن عرم

الاسلوب الحكيم

قالوا ينجيك من اسلوب حكمتنا — فقلت طيب اللقا يا عرب ذي سلم

القول بالموجب

وموجب القول ان قالوا مغالطة — عليك بالصبر قلت الصبر ملء فمي

ومنها الرجوع

وما تصبرت كي ابغي رجوعهم — بلى، تصبرت ميتا عند حيهم

المراجعة في الخطاب

قالوا احتمل قلت لو منكم مراجعة — قالوا ارتقب قلت طيب الوصل في حلم

ومنها التوشيح

هم وشحوا بالضنا جسمي وهم سكبوا — عيني فويلاه من دمعي ومن سقم

ومنها التسهيم

وما سئمت لتسهيم الملام بهم — وصادق الحب لا يلوى على سأم

ومنها التشريع

طال الضنا طاب تشريع الغرام لنا — بالمنحنى فنسخنا شرع عذلهم

ومنها الالتفات

أفدي تلفت آرامي فتنت بهم — بالله رقوا لنا يا خيرة العلم

عتاب المرء نفسه

اعاتب الروح فيهم بعد ما تلفت — يا نفس مالك من حسن التفاتهم

الكلام الجامع

من اركبته متون الحب مقلته — فما له ارب في جامع الكلم

تجاهل العارف

تجاهلوا وفؤادي عارف بهم   قالوا ادمعك ذا ام صوب منسجم

ومنها التخيير

تخيروا الصد عني اذ بليت بهم   وامرضوني باجفان فيا ندمي

ومنها الاستعارة

وباستعارة نيران الخدود ذوى   صبري وجف معين الدمع من ضرم

ومنها التدبيج

بيض السوالف حمر البيض يوم وغى   خضر الحمى دبجتها بيض عندهم

ارسال المثل

تمثلوا و دموع العين مرسلة   يا رائد الماء هذا صيب الديم

تشابه الاطراف

خدودهم اشبهت لما ابيح دمي   دما اطل على اطراف بيضهم

التفصيل بالمهملة

من كل احور في اجفانه غنج   يفصل السقم من رأسي الى قدمي

ومنها التمثيل

مثلث وجنته بالفل قال لقد   سويت ويحك بين الورد والسلم

مراعاة النظير

نظمي يراعي ثناياه يناظرها   بجوهر كحباب الراح منتظم

حسن التخلص

فرد تثنى ولما مال ملت الى   حسن التخلص بالمحمود في القدم

ومنها الاطراد

محمد المصطفى نجل الذبيح ابي الز   هراء خير البرايا في اطرادهم

ومنها العنوان

من صدره شق من حن القضيب له   ختم النبيين بل عنوان مجدهم

ومنها التكرير

صفا بتكرير نظمي مدحه فحلا   بالطيب الكلم ابن الطيب الكلم

ومنها ائتلاف المعنيين

وان بعيد العلا بالمعنيين له تألف في الندى والعز مع عظم

التهذيب والتأديب

تهذيبه قبل وحي الله معجزة نظير تأديبه في حاله اليتم

الترديد منها

وهو الامين على وحي الامين وفي ترديد انزاله البيت الامين حمى

المذهب الكلامي

ومذهبي في كلامي ان رتبته لو لم تفق ما نأت عن كل مستنم

الجمع فقط

والجن والانس والاملاك اجمعهم والكون لولاه لم يخرج من العدم

التفريق وحده

قاسوه بالبحر والتفريق قال لهم: البحر ملح وذا عذب لكل ظمي

العكس والتبديل

فخر الوجود وجود الفخر بعثته جاءت لتبديل دين النار والصنم

الحاق الجزئي بالكلي

كلي مدحي جزئي بسؤدده لانه الدهر والاكوان في الهمم

ومنها التشبيه

قالوا محياه شبه البدر قلت لقد شبهتم كاملا منه بمنقسم

ومنها الكناية

له الفخار رداء والعلا سكن صرح بكنيته يا طالب القسم

ومنها التمكين

قد زاده الله تمكينا فلان له من لم يكن لان من عزم ومن شمم

التقسيم وحده

وقسم العمر ما ضيه وقابله وحاله بين محروم ومحترم

الجمع مع التقسيم

فرد بتقسيم جمع الملحدين وغى فالروح للنار والاشلاء للرخم

الجمع مع التفريق

جبينه السيف في حسن وفرط سنا   وبأسه السيف في تفريق جمعهم

الاشتقاق

اني يشق عليه فعل محمدة   وذاته كاسمه في الحمد والكرم

التوليد

صفه بما شئت لا تعدل به احدا   واعدل عن القول بالتوليد واحتكم

منها الارداف

اذا ترادفت الاعداء اردفهم   بقاطع الرحم وسط الاشهر الحرم

الطاعة والعصيان

غزالة الارض لم تعص اوامره   وفي السما طاوعته طاعة الخدم

ائتلاف اللفظ مع المعنى

الفاظه ومعانيه قد ائتلفا   كاللؤلؤ الرطب من سجع ومن حكم

ومنها الاتساع

له اتساع المعالي وهو منبسط   لو افديه وطلق غير محتشم

ومنها الايضاح

كل المنى والمنايا فيه متضح   ذا للموالي وذا للقاطع الرحم

ومنها التوجيه

بيانه ارق توجيها وحكمته   بديعة النحو انشت كل منسجم

ومنها التسميط

من وجهه قمر من طرفه حور   من ثغره درر تسميط منتظم

تشبيه شيئين بشيئين

شيئان منه على شيئين قد فضلا   حلاه والجود زهر الروض والديم

الايغال

لمنطقي فيه ايغال بمدحته   كالعقد في النحر او كالنجم في الظلم

التضمين والايداع

مدح تضمن سحرا مودعا كلما … عفت مآثر من كعب ومن هرم

ومنها التشطير

رباه ان فتكت كم مهجة سفكت … تشطير مخترم للعمر محتذم

الايجاز والاطناب

ايجاز معناه اعلى المطنبين فقف … بساحة العجز اوفا مدح وصف وهم

التوشيع

وجوده وشع الايام فأنبهجت … بالافخرين ربيع العلم والنعم

الطرد والعكس

ما السعد والقرب خط المهتدين به … والطرد والعكس فيمن عن سناه عمى

ومنها التكميل

معناه تم بتكميل تظاهره … ما شأنه النقص طفلا غير منفطم

ومنها التتميم

كانت لتتميم حسن الخلق بعثته … فكم عفا قادرا عن ظلم مجترم

ومنها التلميح

في رفعة الرأس تلميح لكل سنا … عند الولادة عام الفيل في الحرم

المناسبة اللفظية

كلامه كامل واللفظ ناسبه … وحلمه شامل والعلم كالعلم

التفريع والتفضيل

ما الروض يرقص تفريع الغصون به … صبحا بافضل من مغناه في سلم

ومنها الانسجام

طال انسجام مديحي في شمائله … يا طيب منسجم منه بمنسجم

ومنها النوادر

نوادر وشعت طرس ازاهرها … فضل يسجع في افنانها قلمي

الاشارة كالايجاز

زهر البلاغة يجنى من اشارته … فما يجازيه الا كل منفحم

التبليغ ايضا

جلا بتبليغ وحى الله كل دجى فالارض تضحك عن انياب مبتسم

ومنها الاغراق

لو رام اغراق اهل الشرك اغرقهم بموج بحر بنار الحرب ملتطم

ومنها الغلو

ولا غلو اذا قلنا : مناقبه تكاد بالنشر تحيي بالي الرمم

التفريع على قول بعضهم

تفريع روض حلاه قد جلا كمدى كما محياه يجلو ظلمة الدهم

ما لا يستحيل بالانعكاس

أنس نما ادبا ابدى امن سنا لم يستحل بانعكاس عن ذرى الكرم

المشاكلة

ولا يسيىء الى شخص أساء له مشاكلا فتراه غير منتقم

المهمل الحروف

علم وحول وطول كله وعلا وسؤدد اهمل الاعداء مع همم

المقطوع الحروف

روض وذو ادب زاه وذو ارج ذاك يعطر قطعا كل منتسم

الموصول والمفصل للكلمات

ينمو بمتصل ما قط يقطعه في كف ملتمس عن نيل مستلم

الاشتراك

له خلايق للقرآن مشبهة قد شاركته بفرط الغر لا القدم

الاتفاق

ارى اسمه باتفاق نعت تربته كلاهما طيب يا فوز ملتثم

الاعتراض

من امه ، وعيون الخطب رامقة للاعتراض نجا من مخلب النقم

التصريع

تصريع نظمى جلت آياته بفمي من مجده وغلت في سوقه كلمى

التورية المرشحة

بالفتح والنصر ترشيح لزمرته ونور فرقانه من نون والقلم

التطريز

تطريز مدحى بخلق منه مبتسم في وصف مبتسم عن وجه مبتسم

الاستخدام

يستخدم السيف حيث العين باكية ووجهها كاسف في ظل مرتكم

ومنها التنكيت

ابان بالسمر تنكيت الصدور وكم اباد بالبيض من قلب لهم وكم

ومنها الالغاز

وحل لغز رموز من ضغائنهم بركع طالما صلت على اللحم

ومنها الابداع

بداعة الطعن عينا لم يدع لهم والسن البيض اجرتها فلم تنم

ومنها الاحتباك

والطير بات على الاسلاك محتبكاً في الارض يطلب رفداً من جسومهم

ومنها التوهيم

سقاهم النقع توهيما وحرظما كالصبر سلاهم عن بارد شبم

سلامة الاختراع

بليغهم باختراع الرمح منعجم اعمى وكم مقلة في جسمه وفم

ومنها التورية

اجاد شرح صدور القوم تورية بمتن اعجم يهوى صحبة القمم

ومنها الفرائد

حدث عن البحر منه صف فوائده اكرم بها اذ تجلى عاطل الشيم

ومنها المماثلة

بيض خلائقه خضر مرابعه من ذا يماثله في العرب والعجم

ومنها التفسير

طويل باع لدى تفسير مشكلة بذلا وعلما وفي سلم ومصطدم

البسط وهو الاطناب

خير البرية اعلن الانبياء يدا ... في البسط والقبض للاحسان واللحم

التشبيه البليغ

وآله الغر من آل الفخار لهم ... والبحر آل لدى تشبيه بذلهم

حسن التعديد

تعديد اخلاقهم كالدر منتسقا ... في اللطف والحسن والمقدار والقيم

حسن الاتباع

على التقى والقنا شادوا مآثرهم ... واستعذبوا الحرب من حسن اتباعهم

ومنها الموارده

ظفاير النار من هام الربا نشروا ... للواردين وشبوها بنادهم

حسن التعليل

حلا لقلبي تعليل بنشرهم ... لانه مر من اثناء بردهم

آخر فيه

طالوا سماحا وطابوا منشأ وثنا ... من اجل ذا طاب تعليلى بوصفهم

ومنها الاستتباع

ما استتبعوا البذل مناقط بل رغبوا ... في الجود رغبتهم في البيض والدهم

المجاز المرسل

وصحبة الزهر من ارجو المجاز بهم ... الى النعيم المعلى بل الى النعم

ومنها الترصيع

حلا نظامى لدى الترصيع شكرهم ... غلا كلامي على ترجيع ذكرهم

ومنها المزاوجة

اذا تزاوج همى فانطوى املى ... قصدتهم بثنائي فانجلى أملى

ومنها السجع

في مدحهم كلمى بالسجع والحكم ... تشفى من السقم تنجى من الغمم

صنعة التجريد

هم الجواهر تجريدا فسل بهم ... يا قلب بحرا وفز بالدر واغتنم

ومنها التعطف

تعطفوا بالندى والروض مبتهج فسلم الروض و استحيا لعطفهم

حسن النسق

انسق مآثرهم واذكر خلائقهم واعدد شمائلهم واسجع بحمدهم

المدح في معرض الذم

في معرض الذم قل ان رمت مدحهم لا عيب فيهم تفريق مالهم

المؤتلف والمختلف

فضم مؤتلفا فيهم بمختلف ونضد الدر في تفضيل سحنهم

صنعة التعريض

خليفة الله والاثار شاهدة يسبقه فاطرح تعريض متهم

ومنها الترقي

جمال فاروقهم باد وسيرته محمودة والترقي غير منكتم

عقد النثر

سراج جنة عدن عقد منطقه قد وافق النص في حكم وفي حكم

ومنها الحذف

عوامل الخط في ايامه جزمت بحذف ما اعتل من افعال مختصم

ومنها التوزيع

موزع المال سامى المجد ثالثهم من ام مغناه لم يحرم ولم يضم

ومنها الموازنة

فما يوازنه في الحلم ذو كرم ولا يماثله في العزم ذو شمم

ومنها الاقتباس

للمؤمنين جناح الذل قد خفضوا مع غيرة فاقتبسنا من عليهم

ومنها الترتيب

صلت الجبين بديع النطق في يده ترتيب مغتنم او سلب مغترم

ومنها الادماج

ادماج عقد نظامي در سؤددهم جلا همومي ونجاني من الوصـ

ائتلاف الوزن بالمعنى

تألف الوزن والمعنى بهم فجلا عن رائق شبم من عارض رذ

ائتلاف الوزن باللفظ

واللفظ مؤتلفا بالوزن تحبسه في مدحهم عقد در غير منفصـ

ومنها التجزية

امليت من حكمى جربت من كلمى الفيت من قسمى وفيت من لزمى

ومنها السهولة

ان لم انل منك يا اعلى الورى سببا سهولة الحزن شملي غير ملتئم

المساواة

علاك اعظم من مدح انضده اذ لا يساويك في العلياء من ادم

براعة الطلب

ان لم اصرح بمطلوبي فحسب فمى براعة فيك تدرى من يريد فمى

ائتلاف الالفاظ

عسى تألف الفاظي يقدمنى من حلبة السبق بل في كل مقتحـ

حسن البيان

مولاى حسن بياني في حلاك حلا فاقبله مني وهبني زلة القد

الاستعانة بكلام الغير

يا اكرم الخلق من لي استعين به سواك عند حلول الحادث الفخـ

ومنها الاحتراس

فان انل منك آمالي بجملتها لم احترس من خصيم غير مجترمى

حسن الختام

عليك مني صلاة حسن مبدئها مخلص من ذنوبي عند مختتمى

لامين افندي العمري مخمسا لابيات الزمخشرى صاحب الكشاف :

مدت الى النائبات رماحها وجلت على نصالها وصفاحه

ناديت اذ صعبت وخفت جماحها يا من يرى مد البعوض جناحها
في ظلمة الليل البهيم الاليل
الطف بنفس فيك حيرة علمها تشكو لمن يجلو غمائم غمها
يرعى الذباب على حقارة جسمها ويرى مناط عروقها من لحمها
والمخ من تلك العظام النحل
اجرى تصاريف القضاء بحكمها في الممكنات على غرابة نظمها
والذر يعلم ما اختفى من وسمها ويرى مسير دمائها في جسمها
متنقلا في مفصل من مفصل
يا للطف يوصل كل امر منقطع ويضيق عند عظيم فكر متسع
يقضى بحكمته ويرفع من وضع ويرى ويسمع ما يكون ولم يضع
في خلقه مثقال حبة خردل
اجعل بشكرك رغبتي وتولعي حتى يطول على الاعادى موضعي
واشغل لساني بالثناء ومسمعي يا من اليه تذللي وتخشعي
وتضرعي وتخضعي وتوسلي
اني دعوتك للفؤاد الواله فارحم كتابته وذل سؤاله
يا من تقدس في علو جلاله اني سألتك بالنبي وآله
خير الورى المدثر المزمل
اتضيع نفس انت غافر حوبها ورضاك يوم لقاك من مطلوبها
يا رب قبل رحيلها بذنوبها امنن على بتوبة تمحو بها
ماكان مني في الزمان الاول

وكما اوتي شاعرنا حظا من الشعر جاء اسلوبه بالنسبة لعصره، اسلوبا قويا ينبض بروح العصر فستقى بدمه سطور كلمه فجاءت ناطقة بما يحسه وافضل ماترك لنا قلائد النحور اذ فرغ من نظم هذا الكتاب عام ١١٧٦ ثم شرحه عام ١١٧٩ واسماه الدر المنثور في قلائد النحور اذ يقول فيه مدللا على قوة اسلوبه .

ونثره خال من التكلف يتحرر فيه من التقيد بالبديع وبعضها الاخر مقيد بالصنعة اللفظية والمصطلحات العلمية يتبع فيها اسلوب عصره من تكلف

البديع واختيار للالفاظ واسلوبه من حيث العموم واضح جلي يحافظ فيه
المعنى حتى انه يهبط الى العامية كما فعل عند كتابته عن حصار نادرشاه للموص
وقد دون الحادث دون ان يشهده بل استمع الى ما قصه عليه البعض فد
بعض التعابير العامية الموصلية وصور هول الحصار ودفاع اهلها المجيد عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي ارشد اولياءه الى معالم العلوم وكشف لهم عن غوامض السر المكنون والرمز المكتوم والهمهم معرفته فقاموا بحقوق خدمة الحي القيو وعرفهم بمراتب الطريق فاطلعوا على كل معقول ومنقول بالجدود والرس ودفعتهم للصبر على معالجة الهموم ومنازلة الغموم فتطامنوا لقضائه المبر وقدره المحتوم وسلموا اليه ازمة امورهم وامتثلوا كل مرسوم ورفع منازل فحسدتهم الكواكب والنجوم وافاض عليهم من سجال رحمته كل صيب متتال وسحاب مركوم فهم الانسان في الحقيقة وسلوك الطريق وسواهم هم رعاع . وحثالة بلا نزاع . وعلى محبتهم انعقد الاجماع والصلاة والسلام التامان الاكملان على سادتهم الانبياء وبدورهم الاصف وخاصتهم النجباء على الخصوص منهم سيدنا محمد المؤيد بساطع البره المنصور بقواطع ادلة الفرقان المبعوث الى الانس والجان المنعوت بشمائل الحس والاحسان الذي لولاه لما عبر ساحل الحقيقة انسان ولا وصل الى استنباط جوا العرفان «٢١» .

وجاء في كتاب الدر المنثور قوله :

ولم يكن عندي اذ ذاك باعث غرام، وليس لي هم في غلامة ولا غلا. لا سبيل علي لسلطان البطالة ولا طريق على قلبي لغزال ولو كان كالغزا اعجب ممن يهيم وجداً واستغرب متى شكا عاشق هجرا وصدا. وافوق توبة وجميل السهام، وأسفه رأي قيس وعروة بن حزام. اعد ما نقل عن اخبار زوراً وميناً، واستبعد من عاقل ان يجلب لنفسه حينا. فبينا انا اروح سر خاطر

«٢١» محمد امين العمري، منهل الاولياء، ص٤٠ .

بين الرياض، وسارحا بطرفي في تلك الربا والغياض، اذعن لي سرب نساء كالظباء سوانح، وفي تلك الحدائق سوارح. تبدو عليهن روعة الجمال، وترى فيهن ابهة الجلال. فاتبعتهن نظرة المرتاد، وانسيت ما تجلب العين على الفؤاد. «القاضي الارجاني» :

تمتعتما يا مقلتي بنظرة   واوردتما قلبي اثر الموارد
اعيني كفا عن فؤادي فانه   من البغي سعي اثنين في قتل واحد

فبدا لي بينهن فتاة، كأنها مهاة تسفر عن وجه بديع الجمال، وتتثنى فتخجل الاغصان في الميل والاعتدال، بعيدة مهوى القرط، حوراء المدامع، شهية ما فوق اللثات مضيئة ما تحت البراقع. ترنو بالحاظ ريم، وتبسم عن در نظيم. «ابن الرومي» :

نظرت فاقصدت الفؤاد بسهمها   ثم انثنت عنه فكاد يهيم
ويلاه ان نظرت وان هي اعرضت   وقع السهام ونزعهن اليم

كأن محياها بدر داجية، او شمس سماء مصحية، ولا يقال صاحية. وقد حار فيه ماء الجمال، ومزجته حركات الدلال. «عمر بن ابي ربيعة» :

ابرزوها مثل المهاة تهادى   بين خمس كواعب اتراب
ثم قالوا : تحبها ؟ قلت : بهرا   عدد الرمل والحصا والتراب

يخيرك ما عليه من النضارة والصقال، ويفتنك اشراق بياضه على سواد ذلك الخال . «اخر» :

يا سالبا قمر السماء جماله   البستني في الحزن ثوب سمائه
اشعلت قلبي فارتمى بشرارة   علقت بخدك فانطفت في مائه

وللشعراء في وصف الخال معان انيقة، ومقاصد دقيقة، سلكوا منها واضح الجدد والطريقة، واتوا بالسحر الحلال على الحقيقة. «قال ابن الساعاتي» :

ذو وجنة ما لاح ماثل خالها   بل لاح اسود مقلتي في مائها

«وقال» :

ما الخال نقطة نون صدغك انما   قلبي محبته حبتك تلهفا

«وقال الحاجري الاربلي» :

لك خال على علا عرش خد قد استو
بعث الصدغ مرسلا يامر الناس بالهو

«وقال» :

عجبت لخال يعبد الناس دائماً بخدك لم يحرق بها وهو كا
واعجب منه ان صدغلك مرسل يصدق في اياته وهو سا

فثنيت في اثرهن جوادي، وانما تبعت فؤادي، وقد شغلني الحب عن التقية وقادني الوجد قود المطية واصبحت بعد ذلك الشماس، وملت عن التوحش ا الاستيناس، وهونت ما كنت استصعبه من لوم الناس. وجريت في طلق الص وذهبت في نيل البغية مذهبا مذهبا. وانشدني عاذلي، وقد هاجت بلابابي، «شعر»

الا ليقل من شاء ماشاء انما يلام الفتى فيما استطاع من الام
قضى الله حب المالكية فاصطبر عليه فقد تجرى الامور على قد

وقال الشاعر :

ولقد جريت مع الصبا طلق الصبا ثم ارعويت فلم اجد لي مركض

فدنوت من ذلك السرب، وانا ذاهل اللب، معنى بشواغل الحب. وقلت وقد عقل الهوى لساني، وقيد الغرام جناني. حيا الله هذه الوجوه النضرة والمحاس التي هي شرك النفوس وقيد النواظر: اما ترثون لقتيل غرام، واسير هيام، وحليف سقام، وصاحب دموع سجام، ومعنى قد عدم الجلد، وقارن الكمد، وملك العيون فؤاده، ونفت عن جفنه رقاده، ترك الوقار وكان من اهله، وسلب القرار لذهاب عقله. يساهر النجوم، ويشاور الهموم، ويعاني حرق الغليل ويعرض نفسه للهم العريض الطويل. «لمنشئها» :

يبيت كما بات السليم مسهدا وفي قلبه نار يشب لها وق
وقد هجر الخلان من غير ما قلى وافرده الهم المبرح والوجا

وانبرت من بينهن تلك الظبية الارماء، والغادة الحوراء، واسطة العقا ومزيدته، ودمية القصر وخريدته، وقالت: وانت حيا الله دارك، ولا ابعد مزارك. واكرم ايرادك واصدارك، ورفع قدرك واعلى منارك، ما الذي جشمك هذ

الخطا، وعلام وقفت موقفاً كنت تعد الوقوف فيه من الخطا؟ومثلك لا يعوز اذا اتى غلطاً، او رام شططا ؟

وكيف غررت بنفس كنت تصونها، واهنتها وعهدي بك لا تهينها ؟ وعلام ارخيت رسنها فجرت في ميدانها، واعطيتها في طلق الخلاعة فاضل عنانها؟وكيف انسيت الحكم التي كنت توردها وهل قدمت لفؤادي الهوى التي كنت تستبعدها ؟ اين مواعظك في كف النظر، وزواجرك في غض البصر؟ فسقت لي نفسك تعباً، وحملتها بالنظر الينا على زعمك نصبا. اما علمت ان دم قتيل الهوى مباح وانه لا حرج على قاتله ولا جناح، وان ثاره لا يطلب، وهامته لا تشرب؟الم يقل الشاعر «وهو ابن التعاويذي» :

يا مغمدا في القلب سيف لحظه ... الله من دم بغير ثائر
ومن غرام ما له من اول ... فيك ووجد ماله من اخر

«وقال الشافعي رحمه الله » :

خذوا بدم هذا الغزال فانـه ... رماني بسهمي مقلتيه على عمد
ولا تقتلوه انني انا عبـده ... وفي مذهبي لا يقتل الحر بالعبد

هل اجدى ذلك الحذر، حين اوقعك القدر؟اما تعلم ان من عير انساناً ابتلى بدائه، ومن حكم على الاقضية فقد ازرى برأيه؟فرابني معرفتها بالقديم والحديث واخذت اجاذبها اطراف الحديث، وقد علمت انها المقصودة من الكلام، المهدية الى حر الشوق والغرام. ومن القلوب على القلوب شواهد صادقة، والعين تعرف من عين محدثها صحة الموافقة. فقلت: من تعنين بهذه الاقوال، والى من الاشارة بهذه الاحوال، ومن الحذر الذي أتى من مأمنه، والمغرر الذي البسه الغرام ثوب حزنه ؟ فقالت : اللهم غفرا، الست الذي سارت في الافاق اخباره، وظهرت على صفحات الايام اثاره، وتنقلت تنقل الشمس رسائله واشعاره ؟ الست ذا البان الذي ينفث سحره في العقد، وصاحب اللالىء المنظومة والدر البدد ؟ «٢٢»

« ٢٢ » الدر المنثور .

وقد رثاه جماعة من الشعراء والادباء منهم الشاعر الكبير عبد الغفار الاخرس اذ قال مؤرخاً وفاته :

في رحمة الله حل شيخ وجنة دارها الخلو
تفيض من صدره علوم وقد طمى بحرها المديد
ولم يزل ميتاً وحياً من علمه الناس تستفيد
فوائد كله وفضل وذلك العالم المفيد
ففيه علم وفيه حلم وفيه بأس وفيه جود
سار الى ربه غير فان بالعز وهو العزيز الحميد
ومذ توفاه قلت ارخ مضى الى ربه السعيد «٢٣»

«٢٣» محمود شكري الالوسي، المسك الاذفر، ص ٩٩-١٠٠

ملاحظات في خطط الحلة حتى الحكم الجلائري

الدكتور عماد الدين خليل

تعرضت بغداد في الثامن عشر من شهر محرم لعام ٦٥٦هـ لهجوم القوات التترية بقيادة هولاكو، واضطر قائد الخليفة العباسي الى التراجع بجيشه الضئيل الى قلب بغداد، وتسلل عدد من الاهالي هاربين الى الحلة والكوفة«١». وخلال الحصار ارسل اهالي الحلة وفداً علوياً الى هولاكو ليلتمسوا اليه ان يعين لهم شحنة«٢»فاجابهم الى طلبهم وارسل كلا من «خان بوكله» والامير «بجلي النخجواني»ثم الحق بهما الامير التتري «بوقا تيمور» لجس نبض اهالي الحلة والكوفة وواسط والوقوف على مدى اخلاصهم للتتر. وما ان وصل الوفد التتري الى مشارف الحلة حتى خرج اهلوها للاستقبال فاقاموا جسراً على الفرات، واعلنوا الافراح ابتهاجاً بقدوم التتر. ولما شاهد بوقا تيمور ترحيبهم واخلاصهم غادر الحلة في العاشر من صفر متوجهاً نحو واسط «٣».

ما لبث التتر ان اخضعوا – في فترة قصيرة من الزمن – معظم انحاء العراق، بعد ان قتلوا وفتكوا بعدد كبير من سكانه وخربوا مساحات واسعة من المواقع التي تصدت لهم. كما قتل معظم افراد البيت العباسي باستثناء البعض ممن استطاع الفرار والنجاة. ويمكن القول ان المقاومة الجادية للغزو التتري بين سنتي ٦٥٦ و ٦٦٠هـ لم تقم الا في الجانب الشرقي من بغداد، وفي اربل وواسط والموصل«٤».

«١» رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ، ص ٢٨٦.

«٢» هو الشخص المسؤول عن قضايا الامن والادارة، وهي وظيفة استحدثها السلاجقة. انظر: حسين امين: نظام الحكم في العصر السلجوقي «مجلة سومر / مجلد ٢٠/ سنة ١٩٦٤».

«٣» رشيد الدين فضل الله، المصدر السابق، ص ٢٩٥-٢٩٦.

«٤» جعفر خصباك «الادارة الايلخانية في العراق» مجلة كلية الاداب، حزيران ١٩٥٩، ص ٣٠»

وهكذا نجد ان مدينة الحلة لم تبد اية مقاومة للتتر، ولم يلحقها بناء على ذلك الحرق والتخريب والتهديم في قليل او كثير، كما لحق المدن والمواقع الاخرى ومن ثم يمكن اعتبار هذه المدينة ــ من حيث خططها العامة ــ استمراراً للعصر الذي سبق السيطرة التترية، وان المصادر التي تصف خطط الحلة في الفترة السابقة هذه، لابد وان تعطي ايضاحاً ــ في الخطط على الاقل ــ لتلك المدينة في الفترة التالية كذلك .

ومدينة الحلة حديثة العهد بالنسبة لمدن العراق الاخرى، فبينما اسست البصرة والكوفة في مطلع القرن الاول للهجرة، وانشئت واسط في النصف الثاني منه، وبغداد في النصف الاول من القرن الثاني، نجد الحلة قد اسست في اواخر القرن الخامس للهجرة. وهذه المدن جميعاً من نتاج الحضارة الاسلامية الا ان ما يميز الحلة عن المدن الاخرى في العراق، ان تلك المدن انشئت بامر من خلفاء الدولة الاسلامية وتحت اشرافهم المباشر، كما هو الحال في بغداد او اشراف نواب عنهم كما هو الحال بالنسبة للبصرة والكوفة وواسط. اما الحلة فقد انشأها أحد الامراء المحليين، وهو سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس ابن علي بن مزيد الاسدي، وكان يسكن هو وقبيلته من بني اسد في منطقة النيل المتفرع عن الفرات الاوسط. فلما قوي امره واشتد ازره وكثرت امواله لانهماك السلاجقة بالحروب والصراع فيما بينهم، انتقل باهله وعساكره الى منطقة تدعى «الجامعين»، غربي الفرات، ليبعد عن ملاحقة السلاجقة، وذلك في مطلع عام ٤٩٥هـ، وكانت هذه المنطقة «اجمة تأوى اليها السباع» فاستقر بقبيلته هناك حيث بنى واصحابه المساكن الواسعة والدور الفاخرة، وسرعان ما غدت مدينة واسعة من أفخر بلاد العراق وأحسنها. واخذ التجار يقصدونها من كل مكان، وغدت قصبة تلك المنطقة. «٥» ومن هنا غدا اسمها: الحلة بعد ان كان يطلق على المنطقة اسم «الجامعين». فكلمة حلة لغة: «القوم النزول وفيهم كثرة» . «٦»

« ٥ » ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٩٤-٢٩٥.

« ٦ » المصدر السابق، ٢/٢٩٤.

لم يمض وقت قصير على انشاء الحلة حتى تفوقت في أهميتها وعمرانها على مدينة اخرى كانت قد انشئت في العصر الاموي في منطقة الفرات الاوسط، وسميت باسم بانيها «قصر ابن هبيرة» . وغدت في القرن الرابع الهجري اكبر مدينة بين بغداد والكوفة،واشتهرت بكثرة اسواقها،الا انه ما ان بدأ القرن السادس الهجري حتى كانت قد انحطت وضعف شأنها بارتفاع شأن الحلة،حتى ان موضعها اليوم اصبح غير معروف،وان اشارت اليها الخرائط كمجموعة من الخرائب شمالي بابل القديمة.«٧»

كانت الحلة تقع على الجانب الايمن من فرع الفرات الذي كان يسمى آنذاك نهر سورا،وسرعان ما علا شأنها بسبب وجود جسر عظيم معقود على مراكب متصلة،وصار طريق الحج من بغداد الى الكوفة يمر بهذا الجسر بعد ان بطل الطريق المار بقصر ابن هبيرة والذي كان قد آل حينذاك الى الخراب.«٨» واغلب الظن ان هذا العامل الديني،وهو الحج،كان له اثره الكبير في السرعة التي تميز بها نمو هذه المدينة.اذ ان موقعها على طريق الحج بالقرب من العاصمة بغداد جعل منها المحطة الكبيرة الاولى لقوافل الحجاج السنوية التي تجتمع في بغداد من مختلف انحاء العالم الاسلامي،ثم تتجه الى مكة–تحت اشراف نواب عن الحكومة–مارة بالحلة.ويسهب الرحالة ابن جبير في وصف تلك القوافل المارة بالمنطقة ذهاباً واياباً،فيشير الى ان الخليفة العباسي هو الذي امر بعقد الجسر على الفرات اهتماماً بامر الحاج واعتناء بسبيله،وكانوا قبل ذلك يعبرون بالمراكب...«ومن مدينة الحلة يتسلل الحاج ارسالا،وافواجاً افواجاً، فمنهم المتقدم والمتأخر والمتوسط،لا يعرج المستعجل على المتعذر ولا المتقدم على المتأخر،فحيثما شاؤوا من طريقهم نزلوا وأراحوا واستراحوا...» ويذكر كيف ان كثرة القناطر المعترضة طريق الحجاج بين بغداد والحلة هي التي كانت تضطرهم الى التفرق وعدم السير سوية،ومن ثم يجدون في الحلة

« ٧ » كي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٩٧–٩٨.

« ٨ » المصدر السابق، ص ٩٧–٩٨.

مجالا واسعاً لاعادة تجمعهم وتنظيم سيرهم من جديد تحت اشراف امير الحجاج الذي يعينه الخليفة لهذا الغرض، والذي يقيم في الحلة ـ في كل موسم ـ ثلاثة ايام لتنظيم مسير الحجاج. «٩»

ان الذاهب الى الحلة، الان، يجد على الضفة الغربية للنهر بقايا اسواق وخانات وبيوت قديمة تشير طريقة بنائها وتنظيمها وقدم آجرها الى انها بنيت منذ عهد قديم يعود الى عدة قرون. ولقد مر بنا شيء عن ظروف بنائها وتطورها ومن ثم أخذت تنمو وتتسع بشكل تدريجي، وقد ساعدها موقعها على ذلك، فهي في منطقة خصبة كثيرة المياه كثيفة الزراعة، بالاضافة الى كونها تقع على خطوط المواصلات التجارية البرية والنهرية، كما انها كانت ـ كما مر بنا ـ محطة مهمة لقوافل الحجاج القادمين من بغداد. وفوق ذلك كله لم تتعرض الحلة لهزات سياسية وعسكرية عنيفة كما حدث بالنسبة للمدن الاخرى كالبصرة على يد الزنج وبغداد والموصل على يد جحافل التتر.

وباستطاعتنا ان نلقي نظرة على خطط هذه المدينة، في اواخر القرن السادس الهجري، بحيث نستطيع تكوين صورة تقريبية لها، هذه الصورة التي استمرت محتفظة بسماتها الرئيسية طيلة القرن السابع الذي هو مدار البحث. وعلى هذا، فان الصورة التي قدمها ابن جبير اثر زيارته للحلة في اواخر القرن السادس، تساعدنا على تصور معالم المدينة خلال القرون التالية ايضاً، خاصة وان ابن بطوطة، الذي زار المدينة خلال النصف الثاني من القرن الثامن الهجري، قد قارب في وصفه للمدينة سلفه ابن جبير الى حد كبير.

فالحلة «مدينة كبيرة، عتيقة الوضع، مستطيلة، لم يبق من سورها الا حلق من جدار ترابي مستدير بها، وهي على شط الفرات، يتصل بها من جانبها الشرقي ويمتد بطولها» «١٠» ولم يقتصر عمران الحلة على الجانب الغربي من الفرات بل امتد فشمل بعض مساحات الجانب الشرقي كذلك. «١١»

« ٩ » رحلة ابن جبير، ص ١٨٩-١٩٣.

« ١٠ » رحلة ابن جبير، ص ١٨٩.

« ١١ » المستوفي القزويني: عن لسترنج، المصدر السابق، ص ٩٧-٩٨.

هذا هو أهم ما تقدمه لنا المصادر عن خطط الحلة. وعلى كل، فان الذي يميز المدينة كونها ممتدة بشكل مستطيل على ضفاف النهر، وانها كانت في البداية تقتصر على الضفة الغربية، ثم اتسعت وامتدت الى الضفة الاخرى-حيث اقيمت دور السكن والاماكن العامة والاسواق، وهكذا غدا نهر الفرات يخترق المدينة من وسطها. الا ان سكنى الجانب الشرقي جاءت في وقت متأخر نسبياً، اذ ان ابن جبير لم يتطرق لذكر شيء من ذلك. وعلى ما يظهر لم تكن الحلة، اثناء زيارته لها في اواخر القرن السادس الهجري، قد شملت الضفة الاخرى. اما القزويني الذي ذكر ذلك فانه من معاصري ابن بطوطة «منتصف القرن الثامن الهجري». وهكذا راح هذا الجانب الجديد من الحلة يتسع، حتى غدا —خلال عقود معدودة— ينافس الى حد ما الجانب الغربي. ثم اننا نجد ان الحلة كانت تشابه بقية المدن الاسلامية في العصر الوسيط من حيث احاطتها بسور، لم يبق منه في القرن السادس الهجري، سوى بقايا جدار ترابي مستدير. وكان الامير سيف الدولة صدقة —مؤسس الحلة— قد بنى هذا السور من الطين«١٢» ليخلصها —الى حد ما— من هجمات واخطار القبائل العربية المحيطة بالمنطقة.

كانت المدينة قوية العمارة، وهذا ما يفسر وجود بقايا من آثارها حتى اليوم على الضفة الغربية للنهر. ويشير ابن بطوطة الى كثرة هذه العمارة«١٣»، وهذه الظاهرة، بالاضافة الى ازدحام السكان، تشير الى سعة الحلة وامتدادها —في فترة قصيرة— شمالا وجنوباً على نطاق واسع، كما تشير الى السبب في اتخاذ الضفة المقابلة منطقة للسكنى. واذا ما اضفنا الى ذلك كثرة حدائق النخيل في المدينة، داخلا وخارجاً، وانتشار دور السكنى بين هذه الحدائق«١٤»، عرفنا مدى سعة المدينة .

ان اشهر ما كان يميز الحلة — كمدينة كبيرة — انتشار بساتين النخيل

« ١٢ » ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والامم، ج٩، ص ٢٣٦.

« ١٣ » تحفة النظار، ص ٢٢٠.

« ١٤ » رحلة ابن جبير، ص ١٨٩، ابن بطوطة، المصدر السابق ٢٢١.

في مناطقها المختلفة، تلك البساتين التي شجع صدقة بن مزيد على زراعتها «١٥»، بحيث غدت الدور محاطة بهذه الحدائق، فكان ذلك سبباً لرطوبة هوائها، واعتدال مناخها. وربما كان كل بيت – في الحلة – يحتوي على مجموعة خاصة به من اشجار النخيل، كما كان سائداً في بعض مناطق بغداد حتى العصر الحاضر، وقد تفصل كل بيت عن الاخر مجموعة من الاشجار، وبهذا لا يكون هناك اتصال مباشر بين البيوت مما يؤدي الى كثرة الممرات والدروب وعدم تداخل مناطق السكنى مع بعضها على العكس مما حدث بالنسبة للكوفة والبصرة على سبيل المثال. وربما كانت البيوت تشكل مجموعات متصلة مع بعضها، تفصل بين كل مجموعة واخرى حدائق النخيل، والدروب التي تتخللها.

اغلب الظن ان جسر الحلة كان يعد من اهم معالمها العمرانية، على الاقل بالنسبة للسواح الذين زاروها في تلك الفترة، حيث نجد كلا من ابن جبير، وابن بطوطة من بعده، يسرع في استعراض المدينة وبيوتها ومعالمها بكلمات معدودة لينتهي بالجسر، حيث يسهب في وصفه فهو «جسر عظيم معقود على مراكب كبار متصلة من الشط الى الشط، تحف بها من جانبها سلاسل من حديد كالاذرع المفتولة عظماً وضخامة، ترتبط الى خشب مثبتة في كلا الشطين تدل على عظم الاستطاعة والقدرة.» «١٦» وقد مر بنا كيف ان الخليفة العباسي امر بعقد هذا الجسر على الفرات اهتماماً بالحجاج واعتناء بسبيلهم، وكان هؤلاء، قبل ذلك، يعبرون بالمراكب. ويشبه ابن بطوطة الجسرين المعقودين ببغداد بجسر الحلة، «١٧» مما يشير الى مدى ضخامة هذا الجسر واهميته .

وتخلو المصادر من تحديد مكان السوق الرئيسي والمسجد الجامع، واغلب الظن انهما كانا اقرب الى الضفة منه الى الجهات الداخلية من المدينة ليكونا على مقربة من النهر الذي يشكل الطريق الحيوي للذهاب والاياب والنقل التجاري. كما انهما كانا متجاورين شأنهما في هذا شأن معظم المدن الاسلامية. ومن

« ١٥ » ابن الجوزي، المنتظم، ج٩ص٢٣٦.

« ١٦ » رحلة ابن جبير، ص ١٨٩، ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٢٢٠.

« ١٧ » تحفة النظار، ص ٢٢٣.

المقطوع به انهما كانا يقعان في الضفة الغربية التي انشئت الحلة في ربوعها، وهي التي تمثل الجانب الاكثر اهمية وقدماً واتساعاً من الضفة الشرقية. هذا وليس بين ايدينا ما يشير الى اماكن المؤسسات الاخرى في الحلة وبخاصة دار الامارة. ولمدينة الحلة «اسواق حفيلة جامعة للمرافق المدنية والصناعات الضرورية»«١٨»، ولا ريب ان غنى المنطقة الزراعي وموقعها التجاري على شبكة من طرق المواصلات البرية، وصلاحية نهرها لسير السفن صعوداً وهبوطاً«١٩» وكونها محطة لقوافل الحجاج العظيمة، قد ادى جميعاً الى نمو اسواقها بحيث غدت حافلة جامعة للمرافق والبضائع المختلفة، وكانت الحركة التجارية في اسواقها مستمرة«٢٠» وتهافت اليها التجار من كل مكان ومن ثم اصبحت من «افخر البلاد» «٢١» وتجب الاشارة – كذلك – الى ان وجود عدد كبير من القبائل البدوية المحيطة بالمنطقة ادى الى ان تغدو الحلة مركزاً تجارياً لتبادل المنتجات بين المراكز البدوية والحضرية.

اما الصناعة فلابد وان تكون الحلة قد بلغت مرحلة بعيدة من الرقي في نشاطها الاقتصادي بحيث احتوت اسواقها عدداً كبيراً من الصناعات الضرورية كما يشير كل من ابن جبير وابن بطوطة، واغلب الظن ان الحلة كانت في هذه الفترة قد ورثت صناعات النسيج المختلفة وفنونها العريقة التي عرفتها منطقة الفرات الاوسط منذ قيام الحيرة في العهد الساساني، وخاصة بعد ما لحق قصر ابن هبيرة من خراب، اذ كان هذا الموقع هو المركز التجاري والصناعي في المنطقة قبل ظهور الحلة.

فاذا ما انتقلنا الى النشاط الزراعي، وهو الاساس الحيوي لاقتصاديات معظم البلاد آنذاك فاننا سنجد الحلة والمناطق المحيطة بها بستاناً واسعاً لانتاج شتى الغلال والثمار بسبب خصوبة التربة ووفرة المياه وملاءمة المناخ، فضلا

«١٨» رحلة ابن جبير، ص ١٨٩، ابن بطوطة، تحفة النظار ص ٢٢٠.

«١٩» رحلة ابن جبير، ص ١٩٠.

«٢٠» ابن حوقل، صورة الارض، ص ٢٤٥ «حاشية».

«٢١» ياقوت، معجم البلدان، ٢/٣٢٢ (طبعة ليبزج)، ابن بطوطة، المصدر السابق ص ٢٢٠.

عن اهمية موقعها الذي يشجع على تصريف هذه المنتجات.

ويصف ابن جبير الطريق الصاعد من الحلة الى بغداد بانه«احسن ط
وأجملها في بسائط من الارض وعمائر، تتصل بها القرى—اي المراكز الزراع
يميناً وشمالا. ويشق هذه البسائط اغصان من ماء الفرات تتسرب وتسق
ويشير الى ان هذه الارض كانت منبسطة على امتداد النظر وان الامن
منتشر «٢٢». وهذا ولا ريب من اهم العوامل المساعدة على ازدهار النش
الزراعي في المنطقة. ولنستأنف رحلتنا مع ابن جبير على الطريق بين الحلة وبغ
الى ان نصل«قرية تعرف بالقنطرة، كثيرة الخصب، كبيرة المساحة متد
جداول الماء، وارفة الظلال«بأشجار» الفواكه، من أحسن القرى وأجملها.
والفينا حصاد الشعير بهذه الجهات.... وقرى هذه الطريق—من الحلة الى بغدا
على هذه الصفة من الحسن والاتساع...» «٢٣» والمنطقة بصورة عامة—فضلا
هذا الطريق— كثيرة القرى والمزارع والضياع والمراكز الزراعية «٢٤»

واهم ما كانت تنتجه هذه المنطقة هو الحنطة والشعير والارز «٥
وقد بلغ انتاج الغلال هذا حداً كبيراً جعل المنطقة اشبه بمخزن لتزويد العاص
بغداد بالغلال في اوقات الحاجة «٢٦»

كما كانت تكثر في المنطقة زراعة الكروم التي تصنع منها الخم
الجيدة «٢٧» وازدهر—كذلك—انتاج الفواكه المختلفة«٢٨»بسبب وفرة ا
وملاءمة المناخ. هذا فضلا عن انتشار اشجار النخيل التي كانت تغل انو

«٢٢» رحلة ابن جبير، ص ١٨٩–١٩٠.

«٢٣» المصدر السابق، ص ١٨٩–١٩٠.

«٢٤» انظر: ابن الوردي، خريدة العجائب ص ٣٩، ورحلة ابن جبير ص ١٩٠ والاصطخ
مسالك الممالك، ص ٨٧.

«٢٥» ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص ٨، ١٠، رحلة ابن جبير، ص ١٨٩–٩٠

«٢٦» ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٣١/٤٤٧.

«٢٧» البكري، معجم ما استعجم، ج١ص ٢٨٠، ياقوت (طبعة ليبزج ١/٤٤٧، ٣/٨٥،

«٢٨» رحلة ابن جبير، ص ١٩١.

مختلفة من أجود التمور «٢٩» . كما انتشر في المنطقة نوع من القصب استخدم في بعض الصناعات المحلية«٣٠»وقد ساعدت كثرة الانهار والسطوح المائية على انتشاره. واعتماداً على هذا الازدهار الزراعي وبخاصة انتاج الغلال، فضلا عن كثرة المراعي بسبب وفرة المياه، انتشرت مهنة تربية المواشي والاغنام للاستفادة من منتجاتها في تنمية الدخل الفردي لعدد من سكان المنطقة، تلك التي شهدت اعداداً كبيرة من قطعان الماشية والاغنام «٣١» .

ادى هذا النشاط الاقتصادي التجاري والصناعي والزراعي الى زيادة سكان مدينة الحلة «وازدحامها بالخلق» «٣٢» وهنالك نص طريف يورده ابن جبير، يشير الى مدى ازدحام المنطقة المحيطة بالحلة بالسكان حيث يقول «رحلنا واجزنا جسراً على نهر يسمى النيل — يقصد جسر الحلة — وكان عليه ازدحام، فغرق كثير من الناس والدواب في الماء، فتنحينا مريحين الى ان انفرج ذلك المزدحم وعبرنا على سلامة وعافية والحمد لله » ! !«٣٣» .

ويشكل العرب الغالبية العظمى لسكان الحلة التي تقع في منطقة يقطنها عدد من القبائل العربية كبني اسد وبني عقيل وبني عبادة وبني خفاجة فضلا عن ان نشأة الحلة واتساعها تم على يد امراء المزيديين من بني اسد الذين حكموا المنطقة فترة طويلة واعتمدوا على العرب الى حد كبير. والى جانب العرب كان هنالك عدد لا بأس به من الاكراد «٣٤»واليهود حيث يشير الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي الذي توفي في العقد السابع من القرن السادس الهجري، الى ان

« ٢٩ » ابن الجوزي، المنتظم، ١٤/٩، رحلة ابن جبير، ص ١٨٩، ابن الفوطي، الحوادث الجامعة ص ٢٧٧. ابن بطوطة، تحفة النظار ص ٢٢٠.

« ٣٠ » ابن الجوزي، المنتظم ٢٧/١٠.

« ٣١ » المصدر السابق، ٢٩/٨.

« ٣٢ » ابن حوقل، صورة الارض، ص ٢٤٥ (الحاشية).

« ٣٣ » رحلة ابن جبير، ص ١٩٠.

« ٣٤ » ابن بطوطة، ص ٢٢٠، وانظر ابن الجوزي، المنتظم ٦٠/٨، ٨٨، ٢٠٥.

عدداً من اليهود يبلغ زهاء عشرين الفاً كان يسكن بابل القريبة من الحلة«٣٥» هذا الى ان هناك عدداً من الاماكن اليهودية المقدسة كانت منتشرة في المنطقة، كما كانت مدينة «قصر ابن هبيرة» كثيرة اليهود ولما اندثرت هذه المدينة، واتسعت على حسابها نزح كثير من سكانها—بما فيهم اليهود—واستقروا هناك، منذ ذلك الوقت، وهذا يفسر السرعة التي ازدهرت بها اسواق الحلة وفعالياتها الاقتصادية .

ومعظم سكان الحلة كانوا يدينون بالمذهب الامامي «الاثني عشري» وهم ينقسمون الى طائفتين احداهما تعرف بالاكراد والاخرى تعرف باهل الجامعين، «والفتنة بينهم متصلة والقتال قائم ابداً» «٣٦» وتورد المصادر عدداً من الروايات عن قداسة منطقة الحلة في نظر سكان تلك الجهات وانتشار الاضرحة والمقامات فيها. فهنالك على مقربة من شواطيء الفرات بين الحلة والكوفة قرية تذكر الروايات ان النبي الاسرائيلي حزقيال مدفون بها، وقد ابدى اليهود دائماً تقديسهم الشديد لهذا الضريح، فكانوا يحجون اليه ويقدمون له الصدقات الوافرة. «٣٧» وفي مدينة الحلة نفسها انتشرت مشاهد «الجمجمة»، والشمس، والجامعان، وعلي بن ابي طالب رضي الله عنه. والى اسفل من الحلة قرية تدعى «شوشة» يقبع بها قبر ابي القاسم بن موسى بن جعفر «رض» «٣٨».

تأثر سكان الحلة بالاعتقادات السائدة حول الاضرحة والمزارات ، واصبحت لهم بالتدريج مجموعة من العادات والتقاليد المذهبية ، منها خروج مائة رجل من اهل المدينة كل مساء بكامل اسلحتهم ، حيث يتجهون الى امير

« ٣٥ » رحلة التطيلي، ص ١٤٠-١٤١ وانظر ابن الجوزي، المنتظم ٣٨/٩ ورشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ ، ص ٣٢. ويتطرق ابن الساعي في كتابه «الجامع المختصر» ص ٦٥ الى وجود بيت يهودي في الحلة هو بيت كمونة اليهودي وانه من البيوت المشهورة في القرن السابع الهجري.

« ٣٦ » ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٢٢٠ .

« ٣٧ » رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ، ص ٣٢.

« ٣٨ » الهروي، الاشارات الى معرفة الزيارات ، ص ٧٦.

المدينة بعد صلاة العصر فيأخذون منه فرسا مسرجا ملجما او بغلة «فيضربون الطبول والبوقات امام تلك الدابة ، ويتقدمها خمسون منهم، ويتبعها مثلهم ، ويمشي آخرون عن يمينها وشمالها ، ويأتون مشهد صاحب الزمان فيقفون بالباب ويقولون : باسم الله أخرج . قد ظهر الفساد وكثر الظلم ، وهذا اوان خروجك ، فيفرق الله بك بين الحق والباطل . ولا يزالون كذلك ، وهم يضربون الابواق والطبول الى صلاة المغرب. وهم يقولون ان محمدا بن الحسن العسكري دخل ذلك المسجد وغاب فيه ، وانه سيخرج ، وهو الامام المنتظر عندهم «٣٩» ويشير ابن بطوطة الى ان اهل الحلة كانوا متطرفين في اعتقادهم المذهبي وانهم «رافضة غالية» . وكذلك الحال بالنسبة لعدد من القرى القريبة من الحلة . «٤٠»

غدت الحلة في وقت قصير — بعد بنائها — عاصمة للمنطقة الوسطى من العراق ، وقضت على شهرة واهمية المدن الاخرى في المنطقة كالكوفة وقصر ابن هبيرة وغيرهما . وقد حكمت في هذه المدينة ،منذ تأسيسها عام ٤٩٥ هـ ، اسرة بني مزيد الاسدية حكما ذاتيا ، فترة تزيد على النصف قرن «٤١» ، ظهر خلالها عدد من الامراء المزيديين الذين كان لهم دور في الاحداث السياسية التي شهدها العراق طيلة هذه الفترة . وقد ساعد وجود هذه الامارة في الحلة على نمو هذا المركز في شتى المجالات العمرانية والدينية والبشرية والاقتصادية ،حيث مرت الحلة في عهد هذه الاسرة — رغم طابعها البدوى — في فترة من الهدوء والاستقرار مهدت لنمو مرافقها المختلفة .

وفي عام ٥٥٩ هـ، وجهت الضربة الاخيرة لبني مزيد الاسديين في الحلة، حيث توجه اليهم الخليفة العباسي المستنجد بالله على رأس قواته ،وتمكن من اجلاء بني اسد — وبضمنهم المزيديون — عن المنطقة ، بمساعدة بعض القبائل

«٣٩» ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ٢٢٠-٢٢١.

«٤٠» المصدر السابق، ص ٢٢٠-٢٢١.

«٤١» انظر زامباور، معجم الانساب والاسرات الحاكمة، مجلد ٢، ص ٢٠٧-٢٠٨.

المجاورة «٤٢» لذا نجد المدينة تغدو ، بعد هذا الهجوم ، مجالا لتحكم القبائل العربية المجاورة .

وفي اثناء زيارة ابن بطوطة للعراق ، في اواخر العقد الثالث من القرن الثامن الهجرى ، اشار الى مدينة الحلة بقوله: «كان قد غلب عليها ، بعد موت السلطان — الايلخاني — ابي سعيد، الامير محمد بن رميثة بن ابي نمي امير مكة وحكمها اعواما ، وكان حسن السيرة يحمده اهل العراق ، الى ان غلب عليه الشيخ حسن — الجلائرى — سلطان العراق . . . . .» «٤٣»

وهكذا تقلبت الحلة بعد سقوط بني مزيد في ايد عديدة الى ان غدت جزءاً من ممتلكات الدولة الجلائرية التي قامت في العراق على انقاض الايلخانيين قبيل منتصف القرن الثامن الهجرى . وكانت حتى ذلك الحين من الاهمية والسعة بحيث جذبت اليها انظار الرحالة والجغرافيين ، فخصصوا لها فقرات من تصانيفهم لوصفها وتوضيح معالمها .

«٤٢» ابن الاثير، الكامل، ١١/١١٩-١٢٠ .

«٤٣» تحفة النظار، ص ٢٢٢.

— اهم المصادر —

١ — الاصطخرى : ابو اسحق ابراهيم بن محمد «ت٣٤٦هـ» . مسالك الممالك ، نشر دى غوية ، بريل — ليدن ، ١٩٢٧ .

٢— ابن بطوطة : محمد بن عبد الله اللواتي «ت٧٧٩هـ» . تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، بيروت ، دار صادر — ١٩٦٠ .

٣— البكرى : ابو عبد الله بن عبد العزيز البكرى «ت٤٨٧هـ» . معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع ، تحقيق مصطفى السقا ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٥ — ١٩٥١ .

٤ — بنيامين : ابن يونه التطيلي الاندلسي « ٥٦١ — ٥٦٩هـ» . الرحلة ، ترجمة عزرا حداد ، المطبعة الشرقية ، بغداد — ١٩٤٥ .

٥ — ابن جبير : ابو الحسين محمد بن احمد الاندلسي «ت٦١٤هـ» . الرحلة ، دار صادر ، بيروت — ١٩٥٨/١٩٥٩ .

٦— ابن الجوزى : ابو الفرج عبد الرحمن «ت٥٩٧هـ » . المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، مطبعة دائرة المعارف ، حيدر آباد ، ١٣٥٨ .

٧— ابن حوقل : ابو القاسم محمد بن علي «ت٣٦٧ هـ» . صورة الارض ، نشر دي غوية ، ط٢ ، ليدن — بريل ١٩٣٨ .

٨ — رشيد الدين : فضل الله الهمذاني «ت٧١٨ هـ» . جامع التواريخ ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، القاهرة — ١٩٦٠ .

٩- ابن الفوطي : ابو الفضل عبد الرزاق «ت٧٢٣ هـ» .
الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، المكتبة العربية ، مطبعة الفرات ، بغداد — ١٣٥١ هـ .

١٠ -الهروى : ابو الحسن علي «ت٦١١ هـ» .
الاشارات الى معرفة الزيارات ، تحقيق سورديل ، دمشق — ١٩٥٣ .

١١ -ابن الوردى : عمر بن مظفر بن عمر «ت ٧٤٩ هـ» .
خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، المطبعة الشرقية ، مصر — ١٣١٤ هـ .

١٢ -ياقوت الحموى : شهاب الدين ابو عبد الله «ت ٦٢٦ هـ» .
معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر — ١٩٥٧ ، ليبزج ١٨٦٦ — ١٨٧٠ «تحقيق فستنفلد» .

نشأة وتطور مفهوم الدولة في الفكر الإسلامي

دراسة مقارنة

الدكتور هاشم يحيى الملاح

حينما يتم انقسام مجتمع من المجتمعات المستقرة على اقليم معين الى فئتين : فئة حاكمة واخرى محكومة ، تظهر الدولة الى الوجود ، ويتم هذا الانقسام عادة نتيجة لحيازة فرد من افراد المجتمع ام طبقة من طبقاته لعامل ام اكثر من عوامل القوة ، سواء اكانت تلك القوة ، قوة اقتصادية ام عسكرية ام عقائدية ، مما يساعد الفئة القوية على توطيد نفوذها واخضاع بقية افراد المجتمع لحكمها وسلطانها السياسي «١» .

ويحدثنا التاريخ ان الدولة قد وجدت منذ عصور ماقبل التاريخ . وكانت اقدم وابرز اشكالها «الدولة — المدينة » التي ازدهرت في بلاد وادى الرافدين ومصر وبلاد اليونان ، وكانت النواة التي نشأت عنها الدول القوميةوالامبراطورية بعد ذلك «٢» .

ولكن المفهوم القانوني للدولة ، باعتبارها جماعة من الافراد تقطن على وجه الدوام والاستقرار اقليما جغرافيا معينا وتخضع في تنظيم شئونها لسلطة سياسية مستقلة عن اشخاص الحكام الذين يمارسونها «٣» ، لم يعرف الا في العصور الحديثة . فقد كان مفهوم الدولة في بلاد اليونان منحصرا في اطار دولة المدينة Polis ولم يكن فلاسفة الاغريق كافلاطون وارسطو يميزون

« ١ » الدكتور محسن خليل ، النظم السياسية ، بيروت ١٩٦٧ ، ص١٩ .

« ٢ » ماكيفر ، روبرت ، تكوين الدولة «ترجمة الدكتور حسن صعب » بيروت ١٩٦٦ ، ص١٩٩ــ٢٠٠ .

« ٣ » المرجع السابق ، ص ٢٣ .

بين الدولة من جهة والمجتمع من جهة اخرى ، بل كانت الدولة والمجتمع شيئا واحدا لديهم «٤» .

وحينما ظهرت المسيحية ، واخذت تذيع مقولة السيد المسيح : «دع لقيصر لقيصر وما لله لله» بدأت بوادر الانفصال بين الدولة والدين بالظهور وذلك لان العمل بهذا التوجيه يقتضي ان تهتم الكنيسة بشؤون التوجيه الديني وتترك للدولة امر الاهتمام بشؤون الحكم وتطبيق القوانين . ولو تم هذا لقاد الى التمييز بين مفهوم الدولة والمجتمع .

ولكن الذى حصل هو ان النزاع على السلطة بين الدولة والكنيسة احتدم بقوة لاعتقاد رجال الكنيسة انهم مسؤولون امام الله عن توجيه المجتمع والدولة حسب تعاليم الدين . وكان من نتائج هذا الصراع خضوع الدولة تارة لسلطة الكنيسة وخضوع الكنيسة لسلطة الدولة تارة اخرى حتى استقرت نتيجة الصراع لصالح الدولة «٥» .

وفي خضم الصراع على السلطة بين الكنيسة وامراء الاقطاع والملوك وقف العديد من فلاسفة الفكر السياسي من امثال جان بودان ومكيافيلي يساندون الملوك ويعلنون ان الملك هو صاحب السيادة بكل ما تتضمنه كلمة السيادة من معاني كاعطاء حاملها الحق بان يقول الكلمة النهائية في اية مسألة واعتبار حقوق الملك في السيادة «مطلقة وشاملة وغير قابلة للتجزئة والانتقال» وكان الدافع الذي دفع هؤلاء المفكرين الى مساندة الملوك ، هو رغبتهم في توحيد دولهم وتركيز السلطة بايدى الملوك للتخلص من نفوذ رجال الاقطاع والكنيسة . ولكن يلاحظ ان هذه الفلسفات قد قادت الى توسع سلطان الدولة على حساب المجتمع وادت الى اختلاط شخصية الدولة بشخصية الملك ، لذا فان لويس الرابع عشر ، ملك فرنسا ، كان يقول : انا الدولة والدولة انا «٦» .

---

(٤) Barker, E. principles of social and political theory, Oxford, 1962, p . p . 5 - 7.

« ٥ » نفس المرجع ، ص ٧ - ١١

« ٦ » نفس المصدر ، ص ١٣-١٧ .

ولم يتميز مفهوم الدولة من حيث هي شخصية قانونية عن مفهوم المجتمع الابعد قيام الثورة الفرنسية وانتشار الانظمة الديمقراطية في الغرب ونجاح الشعب الانكليزي في تحميد سلطات الملوك وامراء الاقطاع وتأكيد حقوق الشعب والمجتمع تجاه الدولة «٧» .

هذا عن تطور مفهوم الدولة في الغرب ، اما في شبه الجزيرة العربية ، فقد كانت الوحدة السياسية الاساسية في المجتمع العربي قبيل ظهور الاسلام هي القبيلة وليست الدولة ، فكان الشعب العربي مكونا من عدد كبير من القبائل التي تعيش في نزاع دائم مع بعضها بعضا لعدم وجود سلطة مركزية توحدها وترعى مصالحها المشتركة «٨» ولكن هذا لا يمنع من وجود فترات يسود فيها السلام وخصوصا خلال الاشهر الحرم «٩» او من قيام علاقات ود وتعاون بين بعض القبائل لوجود صلات حلفية بينها «١٠» .

وكانت الرابطة التي تربط افراد القبيلة ببعضهم تقوم على اساس القرابة الحقيقية او المصطنعة « الولاء » وكان كل عضو في القبيلة يجد من واجبه ان يتضامن مع افراد قبيلته في السراء والضراء وان ينصر اخاه ظالما كان او مظلوما. وفي هذا الوضع القبلي لم يكن هنالك تمايز بين شخصية الفرد وشخصية القبيلة ، بل كانت شخصية الفرد تذوب في شخصية القبيلة ، فيحارب الفرد من تحارب قبيلته ويسالم من تسالم ، ويجد في القبيلة الحامي الوحيد الذي يثأر له ان وقع عليه عدوان من قبل ابناء القبائل الاخرى «١١» .

وحينما ظهر الاسلام عمل على اقامة العلاقات بين افراد المجتمع على اساس التقوى «والاستسلام المطلق لاوامر الله » بدل القرابة «١٢» .

« ٧ »نفس المرجع ، ص ٢٣-٢٩.

« ٨ » احمد امين ، فجر الاسلام ، القاهرة ١٩٦١ ، ص٢٢٥.

« ٩ » القرآن الكريم : سورة التوبة ، ٣٦

« ١٠ » فروخ ، الدكتور عمر ، تاريخ الجاهلية ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٥٨-٥٩.

(١١) Watt, W. M. Muhammad at Mecca, Cambridge, 1953, p. 18.

« ١٢ »القرآن الكريم : سورة الحجرات ، ١٣.

وجعل الامة الاسلامية بديلا عن القبيلة «١٣» واعتبر القانون الالهي المتمثل بالقرآن الكريم بديلا عن العرف القبلي الذى كان يحكم العلاقات بين افراد المجتمع «١٤» وبذلك استطاع الاسلام ان يحتوى الكيانات القبلية اطار الامة ، وان يوحد الزعامات القبلية تحت زعامة الرسول «ص» الموحد والتي استمدت اساسها من رسالة السماء ، حيث جعل القرآن طاعة الله مرهو بطاعة الرسول «ص» : «من يطع الرسول فقد اطاع الله» «١٥» . كما سلب القرآن سلطة التحكيم وحسم المنازعات من المحكمين والكهان وركزها بيد الرسول «ص» «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما» «١٦» وبذلك فقد تركزت كافة السلطات السياسية والقضائية والدينية بيد الرسول «ص» ونجح في توحيد معظم اجزاء شبه الجزيرة العربية تحت زعامته في دولة موحدة لاول مرة في التاريخ «١٧» .

هذا ويلاحظ انه لم يكن هنالك تمايز بين مفهوم الدولة وبين مفهوم الامة في هذه الفترة وانما كان مصطلح «امة» يشمل الدولة والمجتمع في آن واحد «١٨» وهذه الملاحظة هي التي تفسر لنا كثرة استعمال مصطلح الامة في القرآن الكريم «١٩» وفي الوثائق التاريخية التي ترجع الى العهد النبوى «٢٠» .

كما ان القرآن الكريم لم يستعمل مصطلح «الدولة» بالمعنى الذي نفهمه من كلمة « State »الانكليزية والتي تعبر عن الشخصية القانونية من شعب

« ١٣ » القرآن الكريم، سورة الانبياء: ٩٢

« ١٤ » القرآن الكريم، سورة المائدة: ٤٨-٤٩.

« ١٥ » القرآن الكريم، سورة النساء: ٨٠.

« ١٦ » القرآن الكريم، سورة النساء: ٦٥.

(١٧) Hitti, Ph. History of the Arabs, London, 1963, p. 119.

(١٨) Khadduri, M. War and Peace in the Law of Islam, Baltimore, 1962, p. 7.

« ١٩ » راجع مثلا سورة البقرة: ١٢٨ ، ١٣٤ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ٢١٣ ، سورة آل عمران ١٠٤ ، ١١٠ ، ١١٣.

« ٢٠ » راجع مثلا سيرة ابن هشام: مصر ١٩١٤، ج ٢ ، ص ١٦-١٨.

واقليم وحكومة ذات سيادة وانما استعملها تارة بمعنى تداول المال بايدي فئة من فئات المجتمع « كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم» «٢١» وتارة بمعنى تداول الغلبة في الحرب « وتلك الايام نداولها بين الناس » «٢٢» .

ولو القينا نظرة الى ما وصلنا من الشعر الجاهلي ، ومعاجم اللغة العربية ، لوجدنا ان مفهوم الدولة فيها لايتعدى ماأورده القرآن الكريم من معان . فالجوهري مثلا قد ذكر ان «الدولة في الحرب : ان تدال احدى الفئتين على الاخرى يقال : كانت لنا عليهم الدولة والجمع الدول . والدولة «بالضم» في المال ، يقال : صار الفيء دولة بينهم يتداولونه . يكون مرة لهذا ومرة لهذا » «٢٣» .

هذا ولم يخرج اصحاب معاجم اللغة كابن منظور «٢٤» والفيروز آباذى «٢٥» وغيرهما عن مفهوم الذى اعطاه الجوهري ،ولم يتقدموا نحو مفهوم اكثر وضوحا للدولة من الناحية القانونية والسياسية .

ويبدو ان مصطلح «الدولة» بمعنى تداول الغلبة في الحرب تطور في اواخر العهد الاموي وبداية العهد العباسي ليشمل تداول السلطة او الحكم عن طريق الثورة كما فعل بنو العباس حينما استولوا على الحكم وقضوا على دولة بني امية ، فكانت لبني العباس الدولة على بني امية . لذا فقد نقل الطبري في معرض حديثه عن الثورة العباسية انه : قال ابو جعفر لابي العباس : ياامير المؤمنين اطعني واقتل ابا مسلم فوالله ان في رأسه لغدرة . فقال : يااخي قد عرفت بلاءه وما كان منه . فقال ابو جعفر : ياامير المؤمنين انما كان بدولتنا ، والله لو بعثت سنورا لقام مقامه وبلغ ما بلغ في هذه الدولة «٢٦». يتضح من هذه

« ٢١ » سورة الحشر : ٧.

« ٢٢ » سورة آل عمران : ١٤٠.

« ٢٣ » الجوهري : الصحاح ، مصر ١٩٥٦ ، ج ٤ ، ص ١٦٩٩-١٧٠٠.

« ٢٤ » ابن منظور ، لسان العرب ، مصر ١٣٠٢هـ ، ج ١٣ص ٢٦٧-٢٦٨.

« ٢٥ » الفيروز آباذي ، القاموس المحيط ، مصر ، ج ٣ص ٣٧٧.

« ٢٦ » الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، طبعة لايدن ، مسلسلة ٣ ، ج ١ص ٨٥.

المحاورة بين ابي جعفر المنصور واخيه ابي العباس السفاح ان كلمة دولة اخذت تستخدم بمعنى الحركة الثورية التي تستهدف الوصول الى الحكم .

ثم ان مصطلح الدولة توسع ليعبر عن معنى «الجهاز الحاكم» «٢٧» نفسه . كما يتضح من كلام المؤرخين المتأخرين نسبيا من امثال الذهبي صاحب كتاب «دول الاسلام» حيث يستعمل تعبيرات الدولة بالطريقة الاتية : «وفيه زالت دولة بني امية». . . «٢٨» «واقبلت سعادة الدولة العباسية من كل وجه.. «٢٩» .

وقد ذهب المستشرق روزنثال الى ان مصطلح الدولة قد اتصل في الاسلام بنظرية تنقل السلطة السياسية في زمن مبكر منذ عهد الكندي . وكمزيج من الامال القومية الفارسية والامال الشيعية يمكن ان نرجع الفكرة الى فترة اقدم ، وحقيقة كون كلمة «دولة» التي تعبر عن هذه الامال اصبحت تستعمل بمعنى الاسرة الحاكمة ، دليل على وجود الاثر الفارسي في تأريخ الاسلام المقسم حسب الاسر «٣٠» .

كذلك فقد اصبح مصطلح الدولة في عهد البويهيين كنية يكنى بها رجال الدولة للتدليل على اخلاصهم لها والقيام على خدمتها كمعز الدولة وعماد الدولة وركن الدولة وعضد الدولة وفخر الدولة وما الى ذلك من الكنى التي تدل على انه كان للدولة شخصية معنوية متميزة ومفهوم واضح في اذهان الناس في تلك الفترة «٣١» .

---

(٢٧) Khadduri, War and Peace in the Law of Islam, p . 7 .

«٢٨» الذهبي ، تاريخ الاسلام ، القاهرة ١٣٦٧هـ ، ج٥ ص ٢٠٠.

«٢٩» نفس المرجع ، ج٥ ص ٣٧.

«٣٠» روزنثال ، علم التاريخ عند المسلمين (ترجمة الدكتور صالح احمد العلي) بغداد ١٩٦٣ ص١٦٧ .

«٣١» ابن كثير ، البداية والنهاية ، بيروت ١٩٦٦ ، ج١١ص ٢١٢.

ولو المنا بما قاله ابن خلدون فاننا نجد مفهوم الدولة واضحا اشد الوضوح في ذهنه لذا فقد عرض علينا في «مقدمته» فلسفته عن نشوء الدول وانهيارها . كما انه يستعمل مصطلح الدولة في كتاباته كما نستخدمه اليوم تقريبا كما هو مبين من المقتطفات التالية :

«وبقيت بلاد الاندلس مقتطعة من الدولة الاسلامية. . . .» «٣٢» .

«وقام بدعوته البرابرة هنالك، فاقتطع المغرب من بني العباس فاستحدثوا هنالك دولة لانفسهم» «٣٣» .

ثم ضعفت الدولة العباسية بعد الاستفحال وتغلب على الخليفة فيها الاولياء والقرابة والمصطنعون «٣٤» .

لذا فان ما ذكره المستشرق كيب «Gibb» من انه لايوجد في العربية مصطلح يعبر عن فكرة الدولة وان ابن خلدون نفسه غالبا مايستخدم مصطلح الدولة بصورة ضمنية للاشارة الى العضوية في الاسرة الحاكمة فقط، رأى لا يسنده البرهان التاريخي «٣٥» .

وقد اورد ابن النديم في كتابه «الفهرست» الذى الفه في سنة ٣٧٧ هـ مجموعة من الكتب التي تحمل عنوان الدولة نشير اليها بايجاز :

١ ــ كتاب الدولة : الذي الفه الحسن بن ميمون البصري وهو : اول من الف في الدولة واخبارها كتابا «٣٦» .

٢ ــ كتاب الدولة : الفه علي بن محمد المدائني «١٣٥ - ٣١٥» «٣٧».

٣ ــ كتاب الدولة : الفه الهيثم بن عدي «. . . . ت ٢٠٧ هـ» «٣٨».

«٣٢» ابن خلدون، تاريخ..، (طبيروت) مجلد ٣، ص ٥٩٤.

«٣٣» نفس المرجع .

«٣٤» نفس المرجع

(٣٥) Gibb, H. A. R. Studies on the Civilization of Islam, England 1962, p. 46.

«٣٦» ابن النديم، الفهرست، القاهرة ١٩٢٩، ص ١٥٦.

«٣٧» نفس المرجع ، ص ١٤٧-١٥٠ .

«٣٨» نفس المرجع ، ص ١٤٥-١٤٦.

٤ – مغازي البحر في دولة بني هاشم وذكر ابي حفص صاحب اقريطش :
الفه احمد بن الحارث الخزاز «. . . . . . ت ٢٥٨» «٣٩» .
٥ – كتاب الدولتين في تفضيل الخلافتين : الفه ابو العنبس الصميري «٤٠» .
٦ – كتاب الدولة : يقع في حوالي الفي ورقة الفه الراوندي :
«وكان يجلس للراوندية . . ويأخذون عنه اخبار الدولة . . . .» «٤١» .
٧ – التاجي في اخبار دولة بني بويه : الفه الصابي «٣٢٠ - ٣٨٠ هـ» «٤٢» .
٨ – كتاب الدولة: الفه سامويه بن صالح الليثي «٤٣» .
٩ – كتاب الدولة: الفه ابو اسحاق ابراهيم بن العباس «٤٤» .

هذا عند المؤرخين، اما الفقهاء المسلمون ، فلم يكن لمصطلح الدولة رواج عندهم ، كما لم يعرفوا امصطلحا محددا للتعبير عن فكرة الدولة ، وانما درسوا الدولة تحت اكثر من مصطلح ، وكانت ابرز مصطلحاتهم التي درسوا تحتها اركان الدولة مايلي :

١ – الخلافة أو الامامة :

وكلا المصطلحين يشيران الى رئيس الدولة واول من حمل لقب «خليفة» هو ابو بكر الصديق لانه خلف الرسول «ص» في امته فاصبح خليفة رسول الله . اما اول من لقب بلقب امام من خلفاء المسلمين فهو علي بن ابي طالب، لان شيعته يرون انه اولى بالامامة من ابي بكر «٤٥» ويذكر الفقهاء ان الخلافة او الامامة : «موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا» «٤٦» .

«٣٩» نفس المرجع ، ص ١٥٢-١٥٣.
«٤٠» نفس المرجع ، ص ٢٠٦-٢١٧.
«٤١» نفس المرجع ، مصر ١٣٤٨، ص ١٥٧.
«٤٢» نفس المرجع ، ص ١٩٤.
«٤٣» نفس المرجع السابق، ص ١٥٦.
«٤٤» نفس المرجع السابق، ص ١٧٦.
«٤٥» علي علي منصور، نظم الحكم والادارة في الشريعة الاسلامية والقوانين الوضعية: مصر ١٩٦٥ ص ٢١٤-٢١٦.
«٤٦» الماوردي، الاحكام السلطانية، مصر ١٩٦٠، ص ٥.

فالخليفة يجمع في يده اذاً مسؤولية ادارة شئون الدين والدنيا في آن واحد . لذا فان الحكم الاسلامي لم يعرف الفصل بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية ولا التمييز بين الدولة والمجتمع.

ويلاحظ ان الفقهاء كثيرا ما يدرسون تحت عنوان الخلافة واجبات السلطة التنفيذية باجمعها باعتبارها من واجبات الخليفة . فيدرسون الولايات الادارية والمالية والقضائية في نفس الوقت . وابرز من تعرض لمعالجة هذا الموضوع من الفقهاء الاقدمين هما الماوردى في كتاب الاحكام السلطانية وابو يعلي الحنبلي في كتاب الاحكام السلطانية ايضا . كما تعرض ابو سيف «صاحب ابي حنيفة» لمعالجة المسائل المالية في كتابه الخراج .

٢ ــ دار السلام :

يقسم الفقهاء المسلمون العالم الى قسمين :

دار الاسلام وهي : «اسم للموضع الذي يكون تحت يد المسلمين »«٤٧» ودار الحرب وهي الدار التي لاسلطان للمسلمين عليها «٤٨» . وقد كانت دار الاسلام بمثابة اقليم الدولة الاسلامية حينما كانت دولة واحدة يخضع جميع المسلمين لسيادتها . ولكن حينما اصابتها التجزئة لم يعد هناك تطابق بين دار الاسلام واقليم الدولة كما هو محدد في القانون الدولي ،لان دار الاسلام قد اصبحت خاضعة لعدة دول ، ومن ثم فقد تجزأت ارضها الى عدة اقاليم . وهذا مادفع بعض الباحثين المعاصرين لتقرير ان بلاد الاسلام تعتبر كلها «دارا واحدة ولو اختلف حكامها وصارت دولا شتى ، لنفوذ حكم الاسلام فيها ، لان هذه الفرقة لا تقضي على نفوذ حكم الاسلام فيها جميعا »«٤٩» . وبهذا فقد اصبح مفهوم دار الاسلام اوسع من مفهوم الاقليم حسبما هو محدد في القانون الدولي العام .

« ٤٧ » الدكتور عبد الكريم زيدان، احكام الذميين والمستأمنين في الاسلام، بغداد ١٩٦٨ص١٨

« ٤٨ » نفس المرجع ، ص ١٩.

« ٤٩ » نفس المرجع ، ص ١٩.

وقد استنتج احد الباحثين المعاصرين ان مصطلح «دار الاسلام» كما عرضه الفقهاء من انه «الموضع الذي يكون تحت يد المسلمين» يحمل ذات المعنى الذي تحمله كلمة «الدولة» في الاصطلاح القانوني الحديث، لان هذا الاصطلاح «يبرز عنصر السلطه وعنصر الاقليم. ويتضمن العناصر الباقية للدولة كعنصر السكان وعنصر النظام «بصورة ضمنية» لان المفروض في المسلمين اذا حكموا ان يطبقوا القانون الاسلامي» «٥٠». ولكن تمحيص هذا الرأي يحتم علينا ان نقرر ان وراء هذا الاستنتاج تحميلا للنص باكثر مما يحتمل، لانه لوصح اعتبار تعريف دار الاسلام تعريفا للدولة باعتبار انه يعني ضمنيا وجود بقية عناصر الدولة لصح ان نعتبر تعريف الخلافة مثلاتعريفاً للدولة ايضا من حيث انه يتضمن وجود بقية عناصر الدولة بصورة ضمنية، لان الخليفة لابد ان يحكم شعبا، والشعب لابد ان يكون مستقرا على اقليم، وهكذا . . . وبذلك تخرج النصوص عن مدلولها الحقيقي بتحميلها افكارا قد لاتكون دارت في خلد اصحابها انفسهم.

٣ — الامـــة :

وهي تمثل مجموع المسلمين المقيمين في دار الاسلام وتشمل بالاضافة لهم اهل الذمة والمستأمنين من مسيحيين ويهود واقليات دينية اخرى «٥١». وقد ورد في الصحيفة التي اعلنها الرسول «ص» بعد هجرته الى المدينة بأن «المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، انهم امة واحدة من دون الناس» «٥٢». كما ورد في موضع اخر من الصحيفة: «وان يهود بني عوف امة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم» «٥٣» كما ورد في القرآن الكريم اشارات كثيرة الى وحدة الامة الاسلامية، وانها خيرامة اخرجت للناس، كقوله تعالى: «ان هذه امتكم امة واحدة وانا

«٥٠» الدكتور عبد الكريم زيدان، الفرد والدولة في الشريعة الاسلامية، بغداد ١٩٦٥، ص ١١.

«٥١» ابو يوسف، كتاب الخراج، القاهرة ١٣٨٢ هـ، ص ١٢٢.

«٥٢» ابن هشام، السيرة، ج ٢ ص ١٦.

«٥٣» نفس المرجع، ج٣ص ١٧.

ربكم فاعبدون» «٥٤». «كنم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر» «٥٥». «وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا» «٥٦» .

ويلاحظ ان مدلوم الامة الاسلامية كان مطابقا لمدلول شعب كما يفهم من القانون الدستوري والدولي حينما كانت الدولة الاسلامية تحكم جميع الامة الاسلامية . ولكن حينما تجزأت الامة الاسلامية الى عدة شعوب نتيجة لتجزؤ دار الاسلام الى عدة اقاليم تخضع لعدة دول، فان ذلك التطابق لم يعد قائما، وبذلك اصبح مصطلح امة اوسع من مصطلح شعب .

يبدو من كل ماسبق ذكره ان مفهوم الدولة لم يصل الى مفهومه القانوني الحديث الا بعد تطور طويل وشاق في الغرب والشرق على السواء . ورغم ان العرب قد عرفوا الدولة في جاهليتهم في كل من اليمن والشام والعراق ، واسسوا امبراطورية واسعة في اسلامهم ، الا انهم لم يعرفوا مصطلحا محددا للتعبير عن فكرة الدولة . ثم ان مصطلح الدولة بمفهومه القانوني والسياسي بدأ بالظهور والتطور منذ القرن الثاني للهجرة وظل ينمو ويتطور على ايدى المؤرخين المسلمين حتى اخذ ابعاده التي تقربه من المفهوم الحديث على يد ابن خلدون .

اما الفقهاء المسلمون وان كانوا قد قدموا دراسات مستفيضة عن اركان الدولة في كتبهم العديدة فانهم لم يستخدموا مصطلحا محددا للتعبير عن فكرة الدولة وانما درسوا اركان الدولة تحت مصطلحات الخلافة وقد كانت تقابل لديهم الحكومة في المفهوم الحديث ، ودار الاسلام وقد كان يقابل الاقليم ، والامة وكانت تقابل الشعب حينما كانت موحدة في ظل دولة واحدة .

« ٥٤ » سورة الانبياء، ٩٢.
« ٥٥ » سورة آل عمران، ١١٠.
« ٥٦ » سورة البقرة، ١٤٣.

دولة المدينة بين اثينا ومكة

دراسة مقارنة

الدكتور هاشم يحيى الملاح

ان اظهر مايميز دولة المدينة City-state عن الدولة القومية او الامبراطورية هو ان اقليم دولة المدينة محصور بحدود مدينة واحدة . اما الدولة القولية فيشمل اقليمها عدة مدن وما يتبعها من قرى وضواح . بينما يمتد اقليم الدولة الامبراطورية فيشمل العديد من الدول والاقاليم الخاضعة لسلطة الامبراطورية .

وتبعا لتباين حجم الاقليم بين هذه الانماط الثلاثة من الدول ، يتباين التعداد السكاني بينها . فيلاحظ ان تعداد سكان دولة المدينة يقل كثيرا عن تعداد سكان الدولة القومية ، وهذه الاخيرة يقل مجموع سكانها عن مجموع سكان الدولة الامبراطورية .

ونتيجة لتلك الاختلافات في سعة الاقليم وتعداد السكان بين تلك الدول ، اختلفت الانظمة الاداريةوالسياسية التي سادت فيها . ففي الوقت الذي ساعد صغر حجم الاقليم والسكان دولة المدينة في اثينا على اقامة نظام الديمقراطية المباشرة فيها ، فانه كان من المستحيل ان يكتب النجاح لمثل هذا النظام في دولة قومية او امبراطورية ، لسعة الاقليم وكثرة السكان ، وما يتطلبه ذلك من تعقيد في تنظيم الحياة الادارية والسياسيةفي الدولة .

لذلك فقد اختفى نظام الديمقراطية المباشرة الذي كان سائدا في اثينا بمجرد اتحادها مع غيرها من دول المدينة اليونانية . «١»

« ١ » سباين، تطور الفكر السياسي (ترجمة حسن جلال العروسي) ط٣، القاهرة ١٩٦٣، ص ١٦٣-١٦٤.

هذا ويلاحظ ان دولة المدينة قد سبقت في الظهور الانواع الاخرى من الدول . وكانت النواة الاولى التي تشكلت منها الدول القومية ثم الدول الامبراطورية بعد ذلك . اذ من اتحاد مجموعة دويلات المدينة نشأت الدولة القومية . ومن توسع الدولة القومية على حساب جيرانها من دول المدن او الدول القومية تكونت الامبراطوريات الواسعة .

وقد ساعد ظهور دول المدينة في العالم القديم على ظهور الحضارات وتطورها كما هو ملاحظ بالنسبة لدول المدينة في كل من وادي الرافدين ، ووادي النيل ، وبلاد اليونان . كما ان الحياة الاجتماعية والسياسية التي ساعدت دول المدينة على توفيرها قد دفعت الفكر السياسي والفلسفي خطوات واسعة الى الامام مما وفر الجو لظهور فلاسفة عظماء كسقراط وارسطو وافلاطون الذين اعتبروا معلمي الانسانية على مدى الاجيال .

وربما كان مما يثير التساؤل ان يتجه البحث لعقد مقارنة بين دولة المدينة في اثينا ودولة المدينة في مكة رغم عظم الفارق الزماني والسكاني بينهما .

ولكن هذا التساؤل قد يتلاشى حين يلاحظ ان كلتا المدينتين كانتا تحتلان مركز الصدارة في البلاد التي تقعان فيها ، فكانت اثينا اعظم دول المدن اليونانية ، واكثرها خصبا ونفعا للانسانية .

كما كانت مكة قبل الاسلام وبعده المركز الديني والتجاري لشبه الجزيرة العربية ، بالاضافة الى انها اكثر دول المدينة العربية تقدما ورقيا . وربما يضاف وجه شبه اخر بين اثينا ومكة ، وهو ان الفكر السياسي والفلسفي الذي ابدعه فلاسفة دولة المدينة في اثينا كان حافز الهام وقوة للنهضة الاوربية الحديثة . كما كان الاسلام الذي انزل على احد ابناء مكة ، وساهم ابناؤها في حمله ونشره الاساس الذي بنيت عليه الحضارة الاسلامية .

تقع مدينة اثينا في بلاد اليونان على خليج ايجة Aegina ، وقد بنيت حول تلال صخرية يتراوح ارتفاعها عن سطح البحر ، مابين ٣٧٠ - ٤١٢

قدما . وهي تروي بواسطة جداول تنبع من الجبال القريبةمنها . «١»

ويحدثنا التاريخ ان هذه المدينة اخذت تظهر للوجود حينما بدأت او موجة من المستوطنين تستقر فيها حوالي سنة ٣٠٠٠ ق . م. ولكن شأنها يرتفع الاحينما اصبحت عاصمة اتيكا في حدود سنة ٧٠٠ ق . م . حيث نشأ وازدهرت فيها دولة المدينة لمدة تقرب من ثلاثمائةعام . ثم مالت للتلاش سنة ٤٠٥ ق . م . «٢» .

ويتكون شعب دولة المدينة في اثينا من عشر قبائل . يكتسب افراد حق المواطنة ، وما يتفرع منه من حقوق سياسية بالوراثة . اما الاجان المستوطنون في اثينا فلم يسمح لهم باكتساب صفة المواطن حتى لوامتدت بـ الاقامة في ربوع البلاد اجيالا متتابعة من الزمن . اما الرقيق فكانوا يعتبرو مجرد اشياء مملوكة للمواطنين ، يسخرونها لخدماتهم حسبمايشاءون . ومن فلم يعترف للرقيق باية حقوق تجاه افراد المجتمع «٣» .

لاتوجد بين ايدينا ارقام محدودة عن عدد السكان في دولة المدينة اثينا . وكل ماهو متيسر لدينا تخمينات متضاربة عن ذلك . فبينما يش جورج سباين ، استاذ الفلسفة في جامعة كورنل بامريكاالى ان عدد سك اثينا كان حوالي ثلاثمائة الف نسمة ، يشكل الرقيق ثلثهم «٤» ، نجد بارتلمي ، احد كبار اساتذة القانون الدستوري الفرنسي ، يقرر في كتا «القانون الدستوري ، طبعة ١٩٣٣» انعدد الرقيق في دولة اثينا كان يبا مائتي الف في حين ان عدد المواطنين الاحرار لم يزد على عشرين الفاً اي عدد الرقيق حسب تقديره كان يبلغ عشرة امثال عدد المواطنين «٥» .

---

(١) Iutchinson's New 20th Century Encyclopedia, London, 1964,p.75

« ٢ » نفس المرجع ، ص ٤٩٢.

« ٣ » سباين، تطور الفكر السياسي، ج١ص ٢-٦.

« ٤ » سباين، تطور الفكر السياسي، ج ١ص٢.

« ٥ » الدكتور الحميد متولي، القانون الدستوري والا نظمة السياسية، مصر ١٩٦٤ ص ٠٣ راجع ايضاً : زيمرن، الفرد : الحياة العامة اليونانية «ترجمة الدكتور عبد المحسن الخشاب»، القاه ١٩٥٨، ص ٣٩٥.

ومهما بلغ عدد سكان دولة مدينة اثينا من المواطنين ، فانه لم يكن ليسمح بالتمتع لا حد بالحقوق السياسية الا لمن بلغ العشرين منهم ، وبشرط ان يكونوا من الذكور فقط ، اذ لم يكن يسمح للنساء بالتمتع بحقوق المواطنين السياسية ، كما كان للاب اليوناني ان يختار قبل اليوم الخامس لولادة طفله « الموت او الحياة» له. و كان ذلك من نصيب الفتيات على الاغلب لان تدبير امر صداقهن حين الزواج كان يكلف الاباء اليونانيين كثيرا «١» .

وبذلك يتضح ان مجموع المواطنين المسموح لهم بالمساهمة في الحياة السياسية للدول كان محدودا جدا «٢» . وهذا كله يلقي ظلالا من الشك حول صحة و صف دولة المدينة في اثينا بانها دولة ديمقراطية . ذلك ان الديمقراطية هي حكم الشعب بينما في دولة اثينا لم يسمح الاللمواطنين «الرجال » الاحرار بالمساهمة في الحكم ، اما اغلبية الشعب المؤلفة من النساء والرقيق والمقيمين الاجانب فكانت محرومة من المشاركة في الحياة السياسية للمدينة .

لقد كان نظام الحكم السائد في اثينا مايعرف بنظام الديمقراطية اى ان المواطنين كانو ا يحكمون انفسهم بانفسهم حكما مباشرا . فكان يحق لكل مواطن توفرت فيه الشروط المطلوبة للمساهمة في الحياة السياسية ان يحضر اجتماعات «الجمعية العامة» للمواطنين التي تنعقد عشر مرات على الاقل في السنة ، ليمارس مع غيره من المواطنين صلاحيات الحكم عن طريق الموافقة على سن القوانين، وتعيين القضاة، ورجال السلطة التنفيذية، من اجل تسيير شؤون المدينة . كما كان لهم الحق في طرد، او الامر بمحاكمة كل موظف ثبت تقصيره في اداء واجبه . فكانت الجمعية الوطنية تمارس حقوق السيادة التي تتولى القيام بها البرلمانات في الانظمة الديمقراطية الحديثة «٣» .

« ١ » زيمرن، الحياة العامة اليونانية، ص ٣٩٩.

« ٢ » سباين، تطور الفكر السياسي ج١ص٥.

« ٣ » نفس المرجع ج ١ص٥ .

ولكن ماسبق ذكره عن حقوق المواطنين الذين يحكمون انفسهم حكم مباشرا لاينبغي ان يفهم انه قد تحقق فعلا في دنيا الواقع . فالحقيقة ا الديمقراطية المباشرة ، بمعنى الحكم بواسطة الشعب كله . لم تكن سوى خرافة سياسية، اكثرمنها نظاما من نظم الحكم كما يقرر ذلك بحق الاستا سباين «١» .

لذا فقد عهدت الجمعية العامة للمواطنين بصلاحيات ممارسة السلط التنفيذية الى مجلس عرف بـ «مجلس الخمسمائة» ، لانه كان يتألف من خمسمائة شخص ، كل خمسين شخصاً منهم كانوا يمثلون احدى القبائل العشر التي يتألف منها مواطنو مدينة اثينا .

ونظرا لضخامة هذا العدد ، الذي يتعذر معه ممارسة صلاحيات الحكم فقد تقرر ان يعهد لممثلي كل قبيلة «الخمسين» بتولي شؤون الحكم عشر أيا السنة ، على ان يشاركهم في عملهم هذا ممثل واحد عن كل قبيلة من القبائل الاخرى .

وكان يختار رئيسا لهذا المجلس شخص واحد من بينهم بالاقتراع لمدة يوم واحد ، وعلى ان لا يتكرر انتخابه لمثل هذا المنصب مرة اخرى في حياته «٢» .

وقد كانت لمجلس الخمسمائة صلاحيات واسعة جدا ، حيث كان من حقه الاشراف على شؤون الموظفين، وادارة الامور المالية للدولة، بالاضافة الى تولي مسؤولية الدفاع عن الدولة وتمثيلها في علاقاتها الخارجية ، كما كان من حقه حبس المواطنين، بل اعدامهم . وذلك بحكم يصدره هو كمحكمة او يستصدره من محكمة عادية .

اما القرارات الخطيرة كتشريع قوانين جديدة او اعلان حرب ، ا

«١» سباين، تطور الفكر السياسي، ج ١ص٦.

«٢» نفس المرجع ، ج١ص ٨-٩.

عقد صلح فكان لابد من استحصال موافقة الجمعية العامة للمواطنين عليه «١» .
اما السلطات القضائية في الدولة فقد انيطت بحكام ومحلفين يصل عددهم الى ستة الاف شخص ، ينتخبون كل عام من بين المواطنين الذين يلغوا سن الثلاثين . وكان اعضاء كل محكمة لا يقل عن ٢٠١ من المحلفين ، ويصل عادة الى ٥٠١ ، وقد كانوا يباشرون وظيفة القاضي والمحلف في آن واحد . اما المتقاضون امام المحاكم فكانوا يكلفون بالحضور امامها لعرض منازعاتهم حيث جرت العادة ان يؤخذ رأى المحلفين اولا على الادانة او البراءة فان كانت الاولى اخذ رأيهم كذلك على العقوبة ، فيقترح كل محلف العقوبة التي يراها عادة ، وقرار المحكمة نهائي على الدوام اذ لم يكن نظام الاستئناف موجودا وكان ذلك منطقيا من غير شك مادامت المحاكم الاثينية كانت تعمل وتقضي باسم الشعب كله «٢» .

ولم تقتصر اعمال المحاكم الاثينية على النظر في المنازعات المدنية والجنائية بين الافراد فحسب ، بل امتدت الى النظر في الطعون التي كان يتقدم بها المواطنون في صلاحية الموظفين لشغل الوظائف العامة ، كما شملت محاسبة الموظفين بعد انتهاء خدمتهم مدة . بالاضافة الى انه كان يدخل ضمن سلطاتها النظر في دستورية القوانين والقرارات الصادرة من المجلس التنفيذي، او الجمعية الوطنية بناء على طعن يقدم ضدها من قبل احد المواطنين . وبذلك كانت المحاكم الاثينية مظهرا لرقابة الشعب على حكامه ، وحجر الزاوية في النظام الديمقراطي لدولة المدينة في اثينا .

وقد ساعد على نشأة وتقدم نظام دولة المدينة في اثينا حب المواطنين الشديد لوطنهم واستعدادهم الدائم للتضحية في سبيله ، وعملهم على تقوية الجميع وتقديس الحرية وسيادة القانون «٣» .

« ١ » نفس المرجع ، ص ٩-١٠.

« ٢ » نفس المرجع ، ص ١٠.

« ٣ » نفس المرجع ، ج١ ص ١٣-٢١.

كما كان من عوامل ضعف هذا النظام شيوع روح التحزب التي سببت الفرقة والانقسام بين صفوف الشعب . بالاضافة الى ان شغل الوظائف العامة كان يتم الاقتراع دون مراعاة لشروط الخبرة والكفاءة مما ادى الى ضعف اجهزة الدولة وعجزها عن القيام بواجباتها بالمستوى المطلوب «(١)» .

هذا عن دولة المدينة في اثينا ، فماذا عن دولة المدينة في مكة ؟ ان مكة مدينة صغيرة تقع غربي الجزيرة العربية « الحجاز » على بعد ٤٥ ميلا من البحر الاحمر «٢» في «واد غير ذى زرع» عند بيت الله الحرام «٣» وقد احاطت بها الجبال المنيعة من كل جانب «٤» وهي تحتل موقعا تجاريا هاما على طريق القوافل الذي يربط اليمن والحبشة بكل من سوريا والعراق «٥» .

وقد ساعد هذا الموقع الجغرافي الممتاز مدينة مكة على التوسع والازدهار حيث ان وجودها في موقع محصن بالجبال قدجعل امر الدفاع عنها ضد هجمات المعتدين من الامور السهلة ، كما ان وجودها في منطقة تتمتع بقدسية دينية «حرم» قد ضمن لها حياة الامن والاستقرار . اما موقعها التجاري الممتاز فقد عوضها عن فقدان الزراعة بسبب الجفاف وجعلها مدينة تجارية من الطراز الاول .

ويشير القرآن الكريم الى ان اول من وضع نواة تكوين المدينة هو ابراهيم عليه السلام ، الذي عاش في حدود سنة ٢٣٠٠ ق . م . حينما اسكن ابنه اسماعيل وامه هاجر فيها . ثم بنى بعد ذلك الكعبة لتكون محلا للعبادة «٦» .

ولكن‌ما بين ايدينامن معلومات عن هذه المدينة لا تكاد تتجاوز الفترة التي استوطنت فيها قبيلة قريش في مكة بحدود مائتي سنة قبل بعثة الرسول

---

(١) متولي، القانون الدستوري والا نظمة السياسية، ص ١٠٤-١٠٥.

(٢) Hutcheinson's New 20th Century Encyclopedia, p. 719

(٣) القرآن الكريم، سورة ابراهيم : ٣١

(٤) Hamidullah, M. The City State of Mecca, Islamic Culture, 1938, vol. 12, p. 260

(٥) Watt, Muhammad at Mecca, Oxford, 1953, p. 3

(٦) القرآن الكريم، سورة ابراهيم: ٣٧، سورة البقرة: ١٢٥-١٢٧.

«ص» «١» . ومن أقدم القبائل التي يذكر انها سكنت مكة هي قبيلة جرهم ، ثم خلفتها قبيلة خزاعة وحليفتها قبيلة بكر ، ثم اخيرا استوطنت فيها قبيلة قريش ، التي اصبحت لها السيادة في هذه المدينة منذ عهد قصي بن كلاب «٢».

وقد تمكن قصي بحكم مالديه من مال وبنين وشرف ان يصبح سيد المدينة من غير منازع . وقد اعانه على ذلك انه كان قد تزوج ابنه حليل بن حبشية ، سيد قبيلة خزاعة ، وصاحب الكلمة العليا في مكة . فلما توفي حليل طالب قصي باحتلال مركزه ، نظرا لكفاءته وشرفه في قومه ، ولان حليلا نفسه قد اوصى له بالرئاسة كما تذكر احدى الروايات . وقد تمكن قصي من التغلب على معارضة قبيلة خزاعة وبكر بقوة سلاح قبيلته قريش ، وبذلك اصبح سيد المدينة من غير منازع ، حتى أن امره كان في حياته وبعد مماته «كالدين المتبع لا يعمل بغيره» «٣» . ويروى ابن قتيبة في كتاب المعارف ان امبراطور الروم قد ساعد قصيا في بسط نفوذه على مكة ضد قبيلة خزاعة ، وربما كان ذلك على امل مد نفوذ الروم الى الجزيرة العربية . ولكن يبدو ان قصيا لم يمكنه من ذلك لانه كان يود ان يحافظ على استقلال مدينته بعيدا عن نفوذ الروم والفرس . ومما لاشك فيه ان هذا الموضع المحايد كان انسب وضع لمدينة تجارية مثل مكة . «٤» .

وقد قام قصي بتقطيع مكة رباعا بين قومه ، فانزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي اصبحوا عليها ويزعم الناس ان قريشا هابوا قطع شجر الحرم في منازلهم فقطعها قصي بيده واعوانه فسمته قريش مجمعا لما جمع من امرها «٥» . وقد عرفت المناطق المحيطة بالكعبة بالبطحاء او البطاح كما سميت المعلاة نظرا لارتفاع موقعها نسبيا . وقد سمي سكان هذه المنطقة بقريش

---

(1) Lammens, H. Islam, beliefs and institutions, London, 1964, p. 13

« ٢ » ابن هشام، السيرة النبوية «مطبوعة على هامش الروض الانف» القاهرة، ١٩١٤ ج١ ص٨٠-٨٧

« ٣ » نفس المرجع ، ج ١، ص ٨٧-٨٨.

(4) Watt, Muhammad at Mecca, P. 13

« ٥ » ابن هشام، السيرة ، ج ١ص ٨٨.

البطاح وهم يشكلون الارستقراطية المكية . اما المناطق الواقعة في اطراف مكة والبعيدة نسبيا عن الكعبة فقد عرفت بالظواهر وسمي سكانها بقريش الظواهر «١» لذا قال الشاعر يفخر بانتسابه لقريش البطاح :

فلو شهدتني مـــن قريش عصابة قريش البطاح لا قريش الظواهر «٢»

وقد كانت العلاقة بين سكان مكة قائمة على الاساس القبلي حيث كانت القبيلة هي الوحدة السياسية والاجتماعية في الجزيرة العربية ولم يكن سكان مكة مؤلفين من عدة قبائل كما كان الامر بالنسبة لسكان مدينة اثينا المؤلفين من عشر قبائل ، بل كان اغلبية سكان مكة منذ عهد قصي ينتسبون الى قبيلة قريش . وقد ساعد هذا الانسجام السكاني في المحافظة على وحدة وتماسك المجتمع في هذه المدينة «٣» .

وكما كان الامر بالنسبة لمواطني دولة اثينا ، فقد كان جميع مواطني مكة القرشيين يعتبرون انفسهم اندادا لبعضهم ، يتساوون في الحقوق والواجبات ، وتقوم العلاقة بينهم على اساس التكافل الاجتماعي ، حيث ان من واجب كل فرد ان يدافع عن الاخرين ويتضامن معهم في حالات الحرب والسلم على السواء «٤» .

اما الاجانب فكان وضعهم في مكة احسن من وضعهم في اثينا بكثير ، ذلك ان بامكان الاجنبي ان يكتسب المواطنة او الانتساب لقبيلة قريش بمجرد عقد حلف مع القبيلة او مع اى فرد منها «٥» . اما في اثينا فكان الاجنبي محروما من اكتساب صفة المواطن حتي لوقام اجيالا متصلة في اثينا كمالاحظنا سابقا .

---

(1) Hamidullah, The City State of Mecca, p. 258 .

« ٢ » ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، بيروت ١٩٦٠،ج ١ص ٧١.

« ٣ » الشريف ، الدولة الاسلامية الاولى ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٦٠.

« ٤ » العلي ، الدكتور صالح احمد ، محاضرات في تاريخ العرب ، بغداد ١٩٥٥ص ١٣٣.

« ٥ » الشريف ، مكة والمدينة ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٢٥ ، ٣١.

اما الرقيق في مكة كان شأنهم شأن الرقيق في اثينا ، اذ كانوا يعتبرون اشياء مملوكة للاسياد ليس لها اية حقوق ومن ثم فهي غير مؤهلة للالتزام بالواجبات «١» .

وقد كان مركز المرأة الاجتماعي والسياسي في المجتمع الجاهلي سيئا ، وذلك لانها كانت ضعيفة غير قادرة على حمل السلاح للدفاع عن القبيلة ، لذا فقد كان الناس يتشاءمون من ولادتها ، وكان افراد بعض القبائل يئدون بناتهم «٢» . ومن ثم فلم يسمح للمرأة المكية بالمشاركة في الحياة السياسية للمدينة كما كان الامر بالنسبة للمرأة الاثينية ايضا كما ذكرنا .

ولكن كم كان عدد سكان مكة ؟ . . . لاتوجد بين ايدينا معلومات تعيننا على تقدير عدد سكان مكة في عهد قصي ، ولكن ما اورده بعض المؤرخين عن عدد المقاتلين من مكة الذين شاركوا في حروب المشركين ضد الرسول «ص» ، قد يعيننا على تقدير عدد سكان مكة في ذلك العهد بصورة تقريبية .

وقد حاول بعض المؤرخين المعاصرين ذلك ، فذكر أج . جي ، ويلز ان عدد سكان مكة في عهد الرسول«ص» كان يتراوح بين عشرين الفا وخمسة وعشرين الفا «٣» . بينما اشار مونتكمري وات ان عددهم ربما كان يزيد قليلا عن خمسة الاف نسمة «٤» . ويبدو ان تقدير مونتكمري وات اقرب للصواب ، لان عدد المقاتلين من مكة في معركة بدر كان تسعمائة وخمسين مقاتلا فقط «٥» .

وان مكة وحلفاءها لم تستطع ان تدفع الى معركة احد ، التي اعدت لها

« ١ » نفس المرجع ، ص ٣١.

« ٢ » القرآن الكريم سورة النحل : ٥٨-٥٩ ، سورة التكوير : ٨-٩.

(3) Wells, H.G. The outline of history, London, 1961, p. 595

(4) Watt, Islamic political thought, Edinburgh, 1968, p. 3

« ٥ » الطبري ، تاريخ الطبري ، مصر- ١٩٦١ ، ج ٢ص ٤٢٣.

اعدادا جيدا ، اكثر من ثلاثة الاف مقاتل «١» . فلابد ان عدد سكان مكة كان يتراوح بين خمسة الاف وعشرة الاف نسمة على اكثر تقدير . لذلك يمكننا ان نلاحظ ان مدينة اثينا تفوقت على مكة من حيث عدد السكان اضعافا مضاعفة . وان عدد سكان مكة في عهد الرسول لم يكونوا ليتجاوزون سكان قرية كبيرة في عصرنا الحاضر . وقد اعانت قلة عدد سكان مكة على بساطة الحياة والتنظيمات فيها ، وسهولة حل المشاكل التي قد تحصل بين سكانها .

هذا ولم تعرف مكة في مجال الحكم والادارة ، نظام «الجمعية العامة» للمواطنين الذي كان سائدا في اثينا ، وما يتفرع عنه من تصويت وانتخاب لرجال السلطة التنفيذية «مجلس الخمسمائة» . بل كان افراد كل اسرة وعشيرة يختارون رئيسا لهم من بين كبار رجالهم الذين يبزون الاخرين بصفات الكرم والشجاعة والحكمة .

وقد كان الانتخاب يتم عادة بطريقة تلقائية ولمدى الحياة «٢» . ومن ثم كان رئيس العشيرة يجمع بين صفة التمثيل لقومه والقيادة لهم في شؤون الحرب والسلم . كما كان يتولى حسم المنازعات التي تحصل بينهم .

وتبعا لذلك فقد كان مجلس القبيلة يتألف من رؤساء الاسر والعشائر الذين يعتبرون ممثلين لقومهم «الجمعية العامة للمواطنين» كما يملكون السلطة التنفيذية في القبيلة على اعتبار انهم الرؤساء الحقيقيون لاسرهم وعشائرهم «٣» ومن ثم فقد اجتمعت في يد مجلس القبيلة سلطات الجمعية العامة ومجلس الخمسمائة الاثيني .

وقد كان رجال مجلس القبيلة يدعون بالملأ ، وقد وردت عدة اشارات في القرآن الكريم الى الملأ باعتبارهم اصحاب السلطة العليا في قومهم ، فقد

« ١ » ابن هشام، السيرة، ج ٢ص ١٢٩.

« ٢ » الشريف ، مكة والمدينة ص ٢٥، فروخ ، الدكتور عمر، تاريخ الجاهلية ، بيروت ١٩٦٤ ص ١٥١-١٥٢.

(٣) Lewis, B. The Arabs in History, London, 1950, P.P. 34-35.

اشار القرآن الكريم «الى الملأ من بني اسرائيل من بعد موسى اذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله » «١» ، كما اشار الى الملأ في مصر «وجاء رجل من اقصى المدينة يسعى ، قال ياموسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » «٢» كذلك ورد ذكر الملأ على لسان ملكه سبأ : « ياايها الملأ افتوني في امرى ماكنت قاطعة امرا حتى تشهدون » «٣» . كما اشار القرآن الى ملأ مكة بقوله : وانطلق الملأ منهم » «٤» .

وقد انشأ قصي بن كلاب دارا خاصة لاجتماع رجال الملأ في مكة سماها «دار الندوة» وجعل بابها الى الكعبة الكعبة «٥» ، حيث يجتمع فيها رجال الملأ للمداولة واتخاذ القرارات في كل مايعنيهم من امور ، ففيها « يكون امر قريش كله ، وما ارادوا من نكاح او حرب ، او مشورة فيما ينوبهم » «٦» ، كما كان يتم في دار الندوة الاعلان عن بلوغ المواطنين «حتى ان كانت الجارية تبلغ ان تدرع فما يشق درعها الافيها » «٧» . « ولا يعذر لهم غلام الا في دار الندوة » «٨» . وكذلك فقد كانت دار الندوة المركز الذي تنطلق منه وتعود اليه القوافل التجارية «٩» . فكانت دار الندوة مركز الحكومة المكية ومجلس الشورى الخاص بها .

ولم يكن هناك نظام لاجتماعات دار الندوة ، وانما كانت الاجتماعات تتم بصورة تلقائية ، وعند الحاجة ، نظرا لبساطة المجتمع المكي في ذلك الحين بعكس الامر في اثينا حيث كانت تتم اجتماعات الجمعية العامة عشر مرات

« ١ » سورة البقرة: ٢٤٦.
« ٢ » سورة القصص: ٢٠
« ٣ » سورة النحل: ٣٢
« ٤ » سورة ص : ٤-٨.
« ٥ » ابن هشام: السيرةج ١ص ٨٨.
« ٦ » ابن سعد، الطبقات، ج ١ص ٧٠.
« ٧ » نفس المرجع ، ص ٧٠.
« ٨ » ابن سعد، الطبقات، ج ١ص ٧٠.
« ٩ » نفس المرجع ، ص ٧٠.

في السنة على الاقل . كما انه ليس لدينا صورة واضحة عن الكيفية التي تتخذ فيها القرارات في دار الندوة . ولكن يبدو ان المداولة كانت تتم في جو من الحرية ، بعيدا عن الاجراءات والشكليات التي كانت متبعة في اثينا . وكان الهدف هو التوصل الى قرارات تنال موافقة الجميع . ولكن في حالة تعذر ذلك ، فقد كان الجميع ينزلون عند الرأى الذي يرجحه رئيس القبيلة ، قصي بن كلاب ، لما كان يتمتع به من تقدير واحترام عظيمين ، حتى لقد كانوا يعتبرون امره « كالدين المتبع لا يعمل بغيره في حياته وبعد موته » «١» . اما بعد وفاة قصي ، فلم يبرز من رجال مكة من يستطيع ملء المكان الذى كان يحتله قصي ، لذا فقد كان رجال الملأ يعتبرون انفسهم اندادا لبعضهم ومن ثم فقد كان لابد من صدور القرار باجماع الاراء كي يكتسب قوة ملزمة ، لذا فقد كان رجال الملأ يبذلون مجهودا ضخما في المداولة والمساومة من اجل الوصول الى هذه القرارات . وقد اعانهم على ذلك قدرتهم التجارية العالية على المساومة والاقناع «٢» . ولكن في حالة الاخفاق في التوصل الى قرار جماعي ، فقد كانت الاغلبية تحاول فرض رأيها على الاقلية عن طريق الضغط الادبي والاقتصادي ، او حتى المقاطعة كمافعلت قريش ضد بني هاشم حينما اصروا على حماية الرسول «ص» «٣» . وقديصل الامر الى تهديد الاغلبية باستعمال الحرب لفرض رأيها على الاقلية كما حصل في حلف الفضول حينما تعاقدت بعض عشائر مكة وتعاهدت «على الا يجدوا بمكة مظلوما من اهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الاقاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته» «٤» .

وطبعا فقد كان فقدان النظام الذي ينظم اتخاذ القرارات بموجب رأى

« ١ » نفس المرجع ، ص ٧٠ ، ابن هشام ، السيرة ج ١ص ٨٨.

(٢) Watt, Muhammad at Mecca, p.8.

« ٣ » ابن هشام ، السيرة ، ج ١ص ٢١٩-٢٢٠.

« ٤ » نفس المرجع ، ج ١ص ٩٠.

وعدم وجود رئيس معترف له بالرئاسة من قبل الجميع بعد وفاة قصي بن كلاب ، من العوامل التي اضعفت دولة المدينة في مكة ، وكانت مثارا للازمات التي وصل بعضها الى حد تهديد بعض العشائر المكية باستخدام السلاح ضد العشائر الاخرى كما حصل قبل حلف المطيبين «١» .

وحصل بعد حلف الفضول «٢» ولكن على الرغم من ذلك ، فقد تمكن رجال الملأ ان يتغلبوا على هذه الثغرة بحكمتهم ومهارتهم في المساومة والاقناع التي حصلوا عليها نتيجة احترافهم لمهنة التجارة .

وقد كان يرتبط بواجبات السلطة التنفيذية في مكة ، العديد من الوظائف التي تستهدف تنظيم الحياة الدينية . وحماية الامن ، وتوفير الرفاه الاقتصادي للسكان ، وكان بعض هذه الوظائف قائما قبل ان يتولى قصي بن كلاب السلطة في مكة . فاقر ماكان قائما واستحدث بعض الوظائف الاخرى «٣» . واهم الوظائف الدينية التي كانت قائمة في مكة قبل الاسلام مايلي :

١ ــ السدانة : وهدف هذه الوظيفة هوخدمة الكعبة .

٢ ــ الحجابة : وهي حيازة مفاتيح الكعبة ، والاشراف على فتح وغلق ابوابها . وقد كانت هذه الوظيفة مصدر دخل مالي لمن يتولى القيام بها .

٣ ــ السقاية : ويقوم من يتولى هذه الوظيفة بتوفير الماء للحجاج ، وهو عمل ذواهمية كبيرة في بلد يندر فيه الماء كمكة .

٤ ــ عمارة البيت : وهي مراقبة مايجرى في داخل الكعبة ، ومنع اى انتهاك لحرمتها من استعمال الكلام الفاحش او رفع الصوت بشكل مزعج ، او المشاجرة في داخلها «٤» . وقد اشار القرآن الى بعض هذه الوظائف بالاية الكريمة : «اجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن

«١» ابن هشام، السيرة، ج ١ص ٩٠.

«٢» ابن هشام، السيرة، ج ١ص ٩٠.

«٣» نفس المرجع ، ص ٨٧.

«٤» نفس المرجع ، ص ٨٨، ايضاً:
Hamidullah, The City State of Mecca, P. 266.

بالله واليوم الاخر وجاهد في سبيل الله ، لا يستوون عند الله والله لايهدى القوم الظالمين » «١» .

٥ — الرفادة: وهي جمع بعض الاموال من سكان مكة وصنع الطعام للحجاج الفقراء ويروى ان قصياً لما فرض ذلك على اهل قريش قال لهم :

« يا معشر قريش انكم جيران الله واهل بيته واهل الحرم وان الحجاج ضيف الله واهله وزوار بيته وهم احق الضيف بالكرامة فاجعلوا لهم طعاما وشرابا ايام الحج حتى يصدروا عنكم » «٢» .

وقد ساعد استتباب الامن والاستقرار في مكة واعتبارها حرماً امناً لا يجوز سفك الدماء فيها ولا صيد الحيوانات منها ، ولا حتى تقطيع اشجارها ، وذلك بسبب وقوع الكعبة في داخلها وهي التي يحج اليها الناس من مختلف انحاء الجزيرة العربية للطواف فيها وتقديم النذور والقرابين لاصنامهم التي كانت في صحن الكعبة «٣» .

وكان الناس يفدون الى مكة بكثرة خلال الاشهر الحرم ، وهي ثلاثة اشهر متصلة : ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ، حيث يتم فيها الحج الاكبر . وشهر منفرد ، وهو رجب حيث يتم فيه الحج الاصغر او العمرة . «٤» .

وكان من عادة العرب ان يستغلوا هذه الأشهر للمتاجرة مع بعضهم بعضا ومع سكان مكة ، مما اتاح للمكيين فرصة ذهبية للمتاجرة وتوسيع علاقاتهم الاقتصادية والسياسية مع غيرهم من القبائل. وقد اعانهم على ذلك كونهم سكان الحرم وحماة بيت الله الحرام «٥» .

وقد استغل قصي كثرة توافد الناس للمتاجرة في مكة ففرض ضريبة العشر على جميع البضائع الداخلة لمكة والعائدة لغير اهلها. ولاشك ان دخل هذه

« ١ » سورة التوبة: ١٩.

« ٢ » ابن هشام، السيرة ج ١ص ٨٩.

(٣) Hamidullah, The city State of Mecca, p. 267.

« ٤ » نفس المرجع ص ٢٦٧-٢٦٨، راجع سورة التوبة: ٣٦

« ٥ » الدكتور جواد علي، تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٨ص ١٥٨.

الضريبة كان يعينه كثيراً على تقوية مركزه المالي كرئيس لمكة ويساعده على تقديم مزيد من الخدمات للسكان «١» .

ومن أجل ضمان تجارة قريش وتوسيع مداها، فقد سعى اولاد عبد مناف ان يدخلوا باحلاف وعلاقات طيبة مع القبائل المجاورة ومع الدول الكبيرة التي تتجه التجارة الى اسواقها. فنجحوا في الحصول على حماية تجارة مكة من قبل كل من امبراطور الروم وكسرى فارس ونجاشي الحبشة ورؤساء قبائل اليمن«٢». ونظراً لان الطريق الى هذه الدول لم يكن مأموناً بسبب غارات البدو على القوافل، فقد عقدوا أحلافاً مع قبائل البدو الواقعة على طريق القوافل كي تتولى حمايتها نظير اجر محدد او نظير السماح لها بالمساهمة في تمويل القوافل والحصول على ارباح كما هو الامر بالنسبة لسكان مكة «٣» . وقد دعيت هذه الاحلاف بالايلاف، واشار القرآن الكريم اليها بقوله : «لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف» «٤» .

وبذلك فقد ساعد موقع مكة الديني واحلافها التجارية والسياسية مع غيرها من قبائل العرب ان يضمن لها الامن والرفاه الاقتصادي في ان واحد. ولكن كل ذلك لم يجعل رجال مكة يهملون شئون الدفاع عن مدينتهم واعداد الافراد القادرين على الحرب بكفاءة. لذا فقد وجدت بعض الوظائف ذات الطبيعة الحربية في مكة كصاحب العقاب واللواء وحلوان النافر، وما الى ذلك. كما ابلى رجال مكة بلاءاً شديداً في حرب الفجار وفي الحروب التي وقعت بينهم وبين الرسول «ص» «٥» .

«١» ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ١ص ٧٠.

«٢» نفس المرجع ، ج ١ص ٧٥.

«٣» نفس المرجع ، ج ١ص ٧٥، راجع ايضاً:

Shaban, M. A. Islamic History, Cembridge, 1971, p . p . 6 - 7

«٤» سورة قريش: ١-٤

(٥) Hamidullah, The City State of Mecca, p . p 269-270 ; 272-273

وهنا قد يكون من الضروري ان نتساءل عن طبيعة النظام القانوني ال
كان يحكم العلاقات بين الافراد في مكة وطبيعة السلطة القضائية فيها.والحق
ان مكة والجزيرة العربية بأجمعها لم تعرف قبل الاسلام القوانين والتشريع
المدونة التي تنظم شؤون الحياة فيها.لذا فقد كان العرف السائد يقوم م
القوانين،وكان يتمتع باحترام وقدسية في نفوس الافراد.كما لم يكن ه
محاكم قائمة تتولى حسم المنازعات بين الافراد،بل كان الذي يقوم بد
المحاكم هو شيخ القبيلة الذي يتولى حسم المنازعات بين افراد قبيلته.كما ك
الكهان والحكام يتولون فصل المنازعات التي تعرض عليهم،ولكن نقطة الضع
في هذا النظام ان الحكم لم يكن بامكانه الزام المتنازعين بعرض الخصومة عليه كم
يكن بمقدوره أن ينفذ حكمه على المتنازعين لو رفض احد الاطراف قبول الحكم «

وبذلك يتضح لنا ان نظام القضاء في اثينا كان متفوقاً بكثير على نظ
التحكيم الذي كان سائداً في مكة وبقية انحاء الجزيرة العربية.

وفي الختام،ان صح وصف الحكم في دولة المدينة في اثينا بانه «نظ
الديمقراطية المباشرة»،فقد يصح ان نصف نظام الحكم الذي كان سائداً
دولة المدينة في مكة بأنه نظام «الارستقراطية التجارية القبلية» ورغم نقا
الضعف العديدة التي لاحظناها على نظام الحكم في دولة المدينة في مكة،ف
ذلك لم يمنع هذا النظام من العمل ومن تحقيق الازدهار التجاري لمكة،حتى
لقد كانت هذه المدينة اغنى المدن العربية في اواخر القرن السادس الميلادي «
وربما كان هو السبب الذي دفع الاستاذ مونتكمرى وات الى تقرير: «لقد كا
ملاء مكة اكثر حكمة واكثر شعوراً بالمسؤولية من مجلس الشيوخ الاثين
وتبعاً لذلك فقد كانت قراراته في أغلب الاحيان تصنع على اساس قوي م
جدارة الرجال وقدراتهم السياسية،لا على اساس العبارات البلاغية الخاد
التي تجعل الامر السيء امراً حسناً » «٣» .

---

(١) hacht, J. An Introduction to Islamic Law, Oxford, 1964, p . p . 78
العلي ، محاضرات في تاريخ العرب، ج ١ص١٠١.
(٢) Watt, Muhammad at Mecca, p . 3
(٣) » نفس المرجع ، ص ٩.

دراسة للحباب الفخارية المكتشفة في موقع باشطابية بالموصل

الدكتور طلعت الياور

منذ وجود الانسان على وجه البسيطة وامور متعددة كانت تشغله ومشاكل جمة كانت تجابهه، منها : الظروف الطبيعية القاسية والوحوش الكاسرة ورغبته في البقاء وتهيئة الطعام . هذه العوامل وغيرها كانت دافعاً للانسان ومحفزاً له على ابتكار واختراع وسائل متعددة عبر آلاف السنين اصبحت فيما بعد اسساً راسخة للحضارة الانسانية الحاضرة .

ويعد العصر الحجري الحديث انقلاباً في حياة الانسان حيث اكتشفت فيه معظم تلك الوسائل، ومنها: صناعة الفخار«١»بوساطة الدولاب الذي ساعد على عمل الاواني الفخارية والتي استخدمت في وسائل متعددة، منها: حفظ الطعام والطبخ وخزن الحبوب«٢»وتبريد الماء أو لاستعمالها في الطقوس الدينية والهدايا الدفنية لان الاواني الفخارية خفيفة الوزن سهلة الصنع «٣» اذا ما قيست بالاواني الحجرية التي استخدمها الانسان في بداية الامر.

وقد تعددت الاواني الفخارية وتنوعت من حيث الشكل والزخارف وطريقة الصنع والمواد بتعدد العصور والاقوام حتى غدا الفخار من الادلة المهمة التي تأخذ بين الاثاريين لتحديد المواقع الاثرية وازمانها.

ولست بمسرف إن قلت : ان هذه الصناعة تبوأت مكانة سامية

« ١ » جاردنر: علم الا ثار، نقله الى العربية محمود حمزة والدكتور زكي محمد حسن ، سلسلة المعارف العامة، القاهرة ١٩٣٦م، ص ١٦ : الدكتور تقي الدباغ ، الفخاري القديم، مجلة سومر ٢٠ لسنة ١٩٣٤م ، ص ١٠٠.

« ٢ » جاردنر: المرجع السابق، ص ١٦.

« ٣ » الدكتور تقي الدباغ: المرجع السابق، ص ٨٨.

في العصر الاسلامي لان الفخرانيين المسلمين لم يكونوا مقلدين بل مطو ومبتكرين .

ولقد اكتشفت هيئة التنقيب والصيانة الاثرية التابعة لجامعة الموصل موقع باشطابية «١» اشكالا متنوعة من الاواني الفخارية كالاباريق والحـ الكبيرة والصحون والمسارج .

ولما كانت الحباب الكبيرة المزخرفة اهم الانواع المكتشفة من حـ دقة الصنع واختيار المادة وتنفيذ الزخرف وتعدد اشكاله . فقد اختر موضوعاً لبحثنا هذا لعلنا نكشف جانباً مهماً من جوانب هذه الصناعة مدينة الموصل .

وزيادة في وضوح الدراسة، قررنا تقسيم البحث الى عدة نقاط اتخذ اسساً للبحث ، هي: المادة وطريقة الصنع والشكل العام ثم الموضوع الزخ بالاضافة الى دراسة تحليلية لانواع العناصر الزخرفية وطرق تنفيذها، النهاية مناقشة تاريخ هذه الحباب للاهتداء الى زمنها التقريبي .

المادة وطريقة الصنع :

استخدم الطين«٢»في مجالات متعددة منذ القدم ومنها الفخار نـ لسهولة استحصاله من وجه الارض وتواجده في معظم المناطق، كما انه يعـ مادة شبه عازلة في اختلاف الظروف الطبيعية .

والملاحظ ان مادة الطين المصنوعة منها الحباب الفخارية المكتـ

« ١ » باشطابية: كلمة تركية معناها «القلعة الرئيسية»، هي احدى قلاع سور الموصل ا. والواقعة في شمال المدينة.

« ٢ » يعد الطين من اهم المواد التي يستخدمها الخزاف والفخراني، وتركيبها الكيمياوي- «سيليـ الالومنيا المائية» ولكنها ليست نقية بل تحتوي على خليط من جزيئات صغيرة من مواد متـ مثل الحديد والمنجنيز والسليكا والجير والمغنيزيا وحامض الكويونيك والالومنيا والصودا والبو وغيرها (عبد الغني النبوي الشال: الخزف ومصطلحاته الفنية، القاهرة ١٩٦٠، ص ١١

نقية قليلة الشوائب«١»وهي من نوع الطينات الصلصالية المشهورة بشدة التماسك على الرغم من مرونتها ونعومتها«٢»،مما زاد في دقة الاواني المصنوعة.

وعلى الرغم من اشتهار منطقة الموصل بطينتها الصلصالية الجيدة لا يمكن ان تكون بهذه النقاوة التي نلاحظها على الحباب الا اذا عولجت بطرق تعمل على تخليصها من الشوائب التي تقتضيها صناعة الفخار الجيد وتكون جاهزة للعمل «٣» .

وقد اكتسبت الطينة الفخارية لهذه الحباب بعد عملية الفخر اللون الاصفر المخضر بالنسبة لمكتشفات الموسم الاول،ثم اللون الاحمر بالنسبة لمكتشفات الموسم الثاني.واكبر الظن ان سبب ذلك يعود الى طبيعة الشيء وتفاوت درجات الحرارة.وكلما كانت درجات الحرارة عالية وبصورة تدريجية كلما اكتسبت الاواني اللون الاصفر المخضر عادة.واذا كانت قليلة او متوسطة اعطيت اللون الاحمر.كما يعود ذلك ايضاً الى طبيعة الاكاسيد الموجودة داخل الطينة فاكاسيد الحديد مثلا عندما تدخل معها اكاسيد اخرى تعطي اللون الاصفر والبرتقالي والاحمر والبني والاسود،فاكسيد الحديدوز مثلا يعطي في الجو الاختزالي عند الحريق اللون الاخضر والازرق بدلا من اللون الاحمر والبني وذلك في الدرجات الحرارية العالية «٤» .

« ١ » الشوائب: هي المواد الغريبة التي تختلط مع مادة الطين عندما تكون في الطبيعة ويجب تخليص الطين منها لا نها معيقة للصناعة اليدوية بالا ضافة الى انها تكون بمثابة عنصر غريب في جسم الا ناء الطيني يؤدي الى تصدع الا ناء لدى فخره نتيجة الحرارة وذلك لا ن تقبل الحرارة من قبل الشوائب ومادة الطين تكون متباينة لتباين كثافتها وصلا بتها.

« ٢ » عبد الغني النبوي الشال: المرجع السابق، ص ١٢.

« ٣ » الجدير بالذكر ان اهم الطرق التي تستخدم لتنقية الطين من شوائبه وضعه في اوان كبيرة مفتوحة معرضة لا شعة الشمس ويسكب عليه كمية من الماء فيتكون مزيج خفيف ويحرك فتسقط الشوائب الثقيلة كالحجارة في قعر الا واني وتطفو الشوائب فيسهل رفعها من فوق سطح المزيج وبعد جفاف المزيج نوعاً ما يغرف بوعاء صغير ويسكب في اناء كبير اخر على ان يترك القسم الا سفل من المزيج الذي يحتوي على الشوائب الثقيلة كالحجارة وتعاد العملية عدة مرات حتى يتم غسل الطين وتخليصه من الشوائب ويكون صالحاً لصناعة الا واني الفخارية.

« ٤ » عبد الغني الشال: المرجع السابق، ص ٢٩

ولسنا في معرض التطرق لذكر اكتشاف دولاب الفخار «١» ولكن ان نؤكد ان حجم الدولاب يجب ان يتناسب مع طبيعة الاناء المراد عمله ، الطينة الموضوعة عليه، كما يحتاج الى عامل ممارس لهذه الصنعة. وربما اش في عملية الدولاب اكثر من عامل واحد في صنع هذه الحباب نظراً حجمها وضخامتها .

الشكل العام :

مما يؤسف له اننا لم نعثر على حباب كاملة توضح لنا الشكل العا كانت عبارة عن عشرات القطع المشتملة على اعناق الحباب وبعض من بد وقواعدها ولكن نتيجة لدراستنا الدقيقة لهذه القطع ولتمكننا من ا هياكل بعض الحباب اتضح لنا جلياً ان الشكل المبدئي لها بعد الانتهاء من : الدولاب هو عبارة عن عنق اسطواني ذي فوهة سميكة مخددة ثم الـ الذي يتخذ جوانب مفلطحة الخارج تليه البطن ، وهي اكبر اجزاء الـ حجماً وتتخذ شكلا اسطوانياً يضيق قليلا من الاعلى والاسفل وينتهي ا بالقاعدة. ومع ان معظم الحباب فقدت قواعدها لكننا عثرنا على اجزاء توضح لنا ان القواعد كانت على هيئة مخروطية واسعة من الاعلى لدى اتـ بالبطن وتنتهي بصورة ضيقة وقد احتوى بعضها على اضافات بارزة من ا على هيئة مستطيل تنتهي قاعدته برأس مثلث متساوي الساقين.

ومما لاشك فيه ان هذه الاضافات في القواعد كانت تستخدم لار الحباب على الحوامل ولا نعلم عددها ولكن الشيء الذي نتمكن ان نثبـ الحب لا يمكن ان يرتكز على الحامل باقل من ثلاث اضافات ولهذا فمن ا ان عددها هو ثلاث فاكثر.

ولكل حب خمس عرى تحصر بينها خمسة فراغات، والعرى المذ على هيئة حبال طينية عريضة مقوسة الى الخارج وتلتصق بعنق الاناء من الا بشكل مواز له ولكن من الاسفل يكون ملتصقاً بصدر الاناء مباشر وان خطوطاً بارزة استحدثت على سطح الحب في اعلى البطن وا

«١» لزيادة المعلومات حول نشأة وتطور دولاب الفخار عبر العصور انظر «الدكتور ابو الصوف : ملاحظات حول نشأة وتطور دولاب الفخار وتطوره في العراق ، مجلة . المجلد ٢١ لسنة ١٩٦٥ ، ص ١١٩-١٢٢».

لتحصر بينها الافاريز الكتابية والزخرفية، استحدثت خطوط بارزة اخرى اكبر منها في السطح الداخلي للبطن ، ومن المعتقد ان الخطوط الاخيرة لغرض تقوية الاناء .

كذلك لاحظنا اضافة قطع الى قواعد بعض الحباب من الداخل وربما كان ذلك لزيادة سمك القاعدة ومما يؤكد ذلك ان الاضافات لم تستحدث الا في القواعد القليلة السمك .

ان الشكل المبدئي الذي ذكرناه والذي قام بعمله الصانع بوساطة الدولاب لا يتم على الشكل النهائي للحب لان الاضافات الزخرفية التي سنتطرق اليها تغير تغييراً ملحوظاً شكل الاناء لاسيما الاجزاء العليا منه كالعنق والصدر.

الموضوع الزخرفي :

ان المواضيع الزخرفية تشمل اعناق الحباب وبطونها بينما القواعد خالية من الزخارف تقريباً. ولكنها تختلف بين حب وآخر وان كان معظمها تشترك بمميزات متشابهة مما يرجح ارجاعها الى عصر واحد .

فبخصوص الاعناق قلنا: ان الصانع جعل فيها خمس عرى حصرت بينها خمس مناطق استخدمها النقاش«١» للزخرفة اذ اختار احدى هذه المناطق لتكون واجهة امامية للحب ثم المنطقتين المجاورتين لها لتكون جوانبه ووضع بهذه المناطق الثلاث كتلا طينية منبسطة سمكها يقارب سمك العنق تقريباً والصقها من الاعلى برقبة العنق ومن الاسفل باعلى البطن ومن الجوانب محصورة بين العرى ، بحيث اصبحت هذه المناطق بمستوى العرى تقريباً وغطت العنق والصدر. اما المنطقتان الخلفيتان فتركهما على حالهما ما عدا زخارف بسيطة .

« ١ » النقاش: يقصد به الملون والمصور والمزخرف بالالوان سواء على الورق او القماش، كما اطلقت ايضاً على النقاش او الحفار سواء في الرخام والحجر والجص والخشب والمعدن والفخار وغير ذلك من المواد . انظر «الدكتور حسن الباشا الفنون الاسلامية والوظائف على الاثار العربية ، القاهرة ١٩٦٦، الجزء الثالث ، ص ١٢٨٣».

وحاول النقاش ان يتبع قاعدة التناظر التمثيلي في الزخرفة فمثلا على المنطقة الامامية موضوعاً معيناً بينما نفذ على المنطقتين الجانبيتين موض متشابهين .

ففي المنطقة الامامية من احد الحباب نشاهد شخصاً . داخل اطار مستطيل يعلوه قوس مفصص مملوء بنسيج من الختمات ا. الصغيرة ويحيط به نسيج محزم من الارابسك الخشن ويعلو الشخص ط متناظران ويدنو منه اسدان بوضعية امامية يحصران بينهما كتابة تتضمن النقاش وكل ما ذكرته احيط من الاعلى بعقد دائري مطول مزخرفة وا بالازهار، بينما نجد العروتين المجاورتين قد نفذ على كل منها من ال امرأة نصفية ترتدي قلادة ويتوجها عقد مفصص بينما النصف الاسفل العروة يوجد شخص واقف فالذي على يسار الشخص الجالس يحمل كأسين ومعلق بحزامه منديل بينما الاخر بيده عصا معقوف ومعلق به خنجر . «شكل ١ »

ونعتقد ان هذا المنظر يمثل جلسة سلطان او امير تحف به حاشية موضوعاً من مواضيع العرش . ومن الجدير بالذكر ان مثل هذه الموا الزخرفية شاعت على بعض التحف المعدنية الموصلية «النصف الاول من ا الثالث عشر الميلادي» «١» وعلى كثير من تصاوير المخطوطات العربية« القرن الثاني عشر والنصف الاول من القرن الثالث عشر الميلادي» «٢

اما المنطقتان الجانبيتان لرقبة الحب المذكور فقد نفذ على كل منهم قسمها العلوي نصف امرأة حاسرة الرأس ذات قلادة ويوجد على ا زهرتان كبيرتان بانتا كالقرنين. بينما على النصف الاسفل من المنطقة طائر رأس بشري يدنو منه اسدان متناظران يحصران بينهما اطاراً زخرفياً و

«١» صلاح حسين العبيدي : التحف المعدنية الموصلية في العصر الاسلامي ، بغداد ٩، /١٩٧٠ م، ص ٨٥ لوحة ٢١ أ .

Hamid (I . S.) : Mesopotamian School and the Place of Painting in Islam , vol. 11, Fig 5.15. 135; Skira (A.) : Les Tresors de L'Asie, Lapeinture Arabe, Geneve, 1962, p. 65. 85

كلا منهما اطار زخرفي. وكل ما ذكرته احيط بعقد دائري منبطح «١» ومطول سائب الاطراف «شكل ٢» .

واما المنطقتان الخلفيتان فقد شغل القسم الاعلى لكل منهما عقد مفصص حافته العليا شبه دائرية تحددها حبيبات شبيهة بعقد اللؤلؤ او المسبحة والسفلى مفصصة ويلتصق من الاعلى برقبة الحب ومن الجوانب بالعرى المذكورة فالعروة الخلفية وتركت اطرافه سائبة في رقبة حب اخرى ولو انها غير كاملة لكن ما تبقى منها يدلنا على ان موضوعها الزخرفي يكون مشابهاً للموضوع الزخرفي لعنق الحب السابق تقريباً مع اختلاف واحد هو استبدال الفتاتين اللتين تعلوان المناطق الجانبية باسدين بوضعية امامية، كما ان الاطار الواقع تحت الشخص الجالس شغلته الزخارف بدلا من الكتابات .

وهناك رقبة حب ثالث موضوعها الزخرفي يختلف في بعض عناصره عن المواضيع السابقة بالرغم من وجود تشابه جوهري بينها ويحدد الاختلاف في انعدام الشخصين الواقفين على جانبي الشخص الجالس واستبدالهما باطارات زخرفية واستبدال الطائر الخرافي ذي الوجه الادمي الواقع في النصف الاسفل من كل منطقة من المناطق الجانبية بطير طبيعي «شكل ٣» .

وكذلك يوجد حب رابع منفذ عليه نفس الموضوع السابق تقريباً مع وجود فارق جوهري هو استبدال الشخص الجالس بنسر او طير خرافي ذي وجه آدمي على هيئة فتاة ذات قلادة وكذلك استبدال الاطار الزخرفي الواقع بين الاسدين تحته بكتابة تتضمن اسم النقاش المدون على الحب الاول «شكل ٤» .

«١» العقد المنبطح : هو العقد الذى لا يرتفع حلقه او خوصرده كثيرا عن مستوى أطرافه ويتكون من قطاع افقي مقوس. انظر : «الدكتور احمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها، القاهره ١٩٦٥ م ، الجزء الاول ص٢٦ حاشية ٢» .

وبخصوص المواضيع الزخرفية المنفذة على البطون فتكون بمستو
واحد ولكن الاختلاف يتمثل بنوعية العناصر واسلوب تنفيذها .

فمعظم الحباب لاسيما التي وصلت الينا «شكل٣» جوانب كاملة ،
بطونها تتكون زخارفها من افريز كتابي يتضمن عبارات دعائية محصو
بين خطين بارزين وقسم من البطون يكمل افريزها الكتابي المذكور من الخلا
زخارف على هيئة اشكال كمثرية تتمركز فيها الزهيرات وتتخلل المسافا
المحصورة بين هذه الاشكال اقراص مثقوبة او تكون الزخارف على ه
حرف« S » وخطوط حلزونية وكمثرية « شكل ٥» . واسفل البطون تتكو
من افريزين محصورين بين خطين بارزين على غرار الخطوط السابقة الاع
منهما يتكون من أغصان نباتية حلزونية متصلة ببعضها تنتهي رؤوسها بزهيرا
والى الاعلى والاسفل من مناطق اتصال هذه الاغصان نفذت اقراص صغير
مثقوبة ،اما الافريز الثاني الذي يدنوه فيحتوي زهيرات متتابعة ، أما الجز
الاعظم من البطن المحصور بين الافاريز العليا والسفلى فمزخرف بمواض
متعددة مختلفة «الشكل السابق» .

ففي بعض الحباب تكون اشكال كمثرية كونتها خطوط مضافة تستد
رؤوسها من الاعلى لتنتهي بقرص صغير مثقوب وتتمركز في وسط كل شك
زهيرة . وفي بعض الاحيان تضاف الى البطن افاريز عمودية او منكسر
تكونت بواسطة خطوط بارزة وتحوي اغصاناً نباتية متتابعة ويعلو ويد
محل اتصالها ببعضها اقراص غير مثقوبة«شكل ٦» .

وفي بطون اخرى يتمثل موضوع زخرفي مغاير من حيث الشكل والتنف
حيث تقسم البطن الى عدة افاريز مختلفة العرض تفصلها خطوط بارزة عمود
مع بعض الميل فالافريز الاول نفذت عليه خطوط مضافة على هيئة حرف« S
اللاتيني بصورة متقابلة ومتدايرة وتتخللها الزهيرات ويوازي هذا الافر
من الجانبين صفان تشغلهما زهيرات متتابعة ثم يليهما افريزان متوازيان من ك
جانب شبيهان تماماً من حيث العرض والعناصر بالافريزين الواقعين في اسف

البطن.ثم تتكرر هذه الافاريز بنفس الاسلوب عدة مرات حى تغطي البطن برمتها «شكل ٧» .

ونجد حباباً اخرى نفذت على بطونها مواضيع زخرفية مغايرة لما سبق حيث تتكون من مناطق معينة وشبه منحرفة ولوزية وشبيهة بالنجوم الرباعية تكونت من تداخل والتواء الاغصان النباتية او الخطوط المستقيمة والمنكسرة المضافة يتخلل هذه المناطق الزهيرات والاقراص المثقوبة «شكل ٨» .

بينما نجد بعض البطون يتكون فيها افريز زخرفي علوي على هيئة حرف « S » اللاتيني وهو متقابل ومتداير تحصر بينها الزهيرات وفي أعلى رؤوسها واسفلها اقراص غير مثقوبة.بينما القسم الاكبر من البطن خال من الزخرفة .

اما قواعد الحباب فخالية من الزخرف ما عدا الاضافات الملصقة بها المرتكزة على الحوامل فانها يحيط بها الافريز الزخرفي الواقع في اسفل بطن الحب . هذا ما يتعلق بزخارف الحباب المكتشفة في الموسم بينما المواضيع الزخرفية المكتشفة في الموسم الثاني مغايرة لما سبق.ومن خلال القطع المكتشفة التي تشتمل معظمها على اعناق الحباب اتضح لنا وجود خمس عرى أيضاً في الرقبة تحصر بينها خمسة فراغات وقد شغلت المنطقة الامامية بكتلة طينية عليها شكل بشري رمزي متخصر مخروطي الوجه والصدر ومنحصر والى الاسفل منه حضرتان تنمان عن ان جزءاً قد انتزع منهما وربما كان محلا لاسود«قياساً بالحباب السابقة» تعلوهما اطارات زخرفية، كما يعلو الشخص المتخصر اسـد بوضعية امامـية له قرنان اما العروتان المحيطتان بهذه المنطقة فمزخرفة بزخارف على هيئة حرف « S » بصورة متقابلة ومتدايرة. «شكل ١٠ »

اما المنطقتان الجانبيتان فيعلوهما قوس دائري من الخارج ومفصص من الداخل له اطراف سائبة،وعلى رقبة الحب داخل هاتين المنطقتين زخرفة نخيلية شبيهة بشجرة الحياة الاشورية.بينما المنطقتان الخلفيتان بدون اضافات سوى خطوط محززة بسيطة .

وهكذا يتضح لنا جلياً اختلاف المواضيع الزخرفية وان كانت تتشابه ببعض المميزات، ليس بين نماذج الموسمين وانما بين نماذج الموسم الواحد ونعتقد ان هذا الاختلاف يعود لعدة عوامل، منها: قيام عدد من النقاشين بدليل ان اجزاء من حبين ورد عليها اسم نقاش واحد «عبد الرحمن» وورد على جزء يعود لحب آخر بقايا حروف تدل على اسم نقاش آخر. وطبيعي ان كل نقاش يحاول ان يظهر براعته ليس في اتقان الزخرفة وتنفيذها ـ فحسب ـ بل في تشكيل المواضيع الزخرفية وابتكارها وان لا يكون مقلداً للنقاشين الاخرين قدر الامكان. كما يوجد سبب آخر وهو محاولة الفنان نفسه ابتكار مواضيع زخرفية متعددة خاصة به دفعاً لملل التكرار تارة ولبيان براعته الفنية تارة اخرى، ودليلنا على ذلك ورود نموذجين من الحباب يحوي كل واحد على موضوع زخرفي مغاير للاخر بينما الذي قام بنقشهما شخص واحد «شكل ١، ٤». كما يجب الا نهمل رغبة وذوق الشخص الذي صنعت له التحفة ومنزلته السياسية والاقتصادية في اختيار الموضوع الزخرفي الذي يريده .

والذي يبدو لنا ـ بالنسبة لزخرفة رقاب الحباب ـ ان النقاش استغل المنطقة الامامية والمنطقتين الجانبيتين للزخرفة بينما ترك المنطقتين الخلفيتين على حالهما الا من زخارف بسيطة وان لجوء النقاش الى ذلك يساعدنا على معرفة وضعية الحب ومكان وجوده في البناء ويدعونا الى الاعتقاد انه كان يوضع في واجهة المباني او قريباً من الحيطان التي تكون صدر الغرف او جوانبها وليس في وسطها وبهذه الحالة لا يرى الشخص المار والمستخدم للحب سوى واجهته وجوانبه فيخال ان الاناء مزخرف برمته. وقد يجوز ان الفنان ترك المنطقتين الخلفيتين على حالهما تقريباً ليساعد على قلب الحب بواسطة العروة الخلفية الظاهرة وتفريغه من محتوياته .

العناصر الزخرفية وطرق تنفيذها :

اتضح لنا لدى تعرضنا للمواضيع الزخرفية المتمثلة على الحباب المكتشفة انها تشتمل على عناصر متعددة، منها: الصور البشرية والحيوانية والزخارف

النباتية والهندسية والمعمارية بالاضافة الى الكتابات. وسنتعرف لهذه العناصر بشيء من التفصيل لندرك اهم مميزاتها الفنية ومدى اصالتها او ابتكارها مع مقارنتها بما يشابهها من المخلفات الأثرية الاسلامية المختلفة ولاسيما في مدينة الموصل لنستطيع الاهتداء الى الزمن الذي تعود اليه هذه الحباب والاجزاء العائدة لها .

الصور البشرية: تشتمل على صور امراء وسلاطين او قادة وحراس وخدم وربما وصيفات أيضاً.

فالشخص الرئيس الجالس الذي تحيط به صور الاشخاص الواقفين والنساء ربما يمثل اميراً او سلطاناً حيث يمثل هذا المشهد منظراً من مناظر البلاط ويتميز ذلك الشخص بكبر الحجم والجلسة التي تدل على القوة والهيبة. كما ان النقاش خصص له وسط المنطقة الامامية واحاطه باطار مستطيل يعلوه قوس قوس مفصص ينتهي بهالة حول الرأس «١». وقد جلس هذا الشخص على مقعده وطوى رجله اليسرى بحيث بانت ظاهرة فوق الرجل اليمنى التي اختفت واحياناً يحدث العكس أي يطوي الرجل اليمنى على اليسرى وفي حالة ثالثة تظهر الرجلان ويصف البعض هذا النوع من الجلسة «بالقرفصاء» «٢». «شكل ١» واعلى «شكل ٨»

«١» الجدير بالذكر ان الاهتمام بالشخص الجالس يعد ميزة هامة من مميزات المدرسة العربية بالتصوير . انظر :

« الدكتور حسن الباشا : التصوير الاسلامي في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٩ م ، ص ١٢٨ » : اطلق على هذه المدرسة اسم المدرسة العربية للتمييز عن اسماء المدارس الفرعية او المحلية الاخرى ويطلق عليها احيانا اسم المدرسة العباسية او مدرسة بغداد أو المدرسة السلجوقية : «المرجع نفسه ، ص١٢٥ ، حاشية ١ » واحيانا : يطلق عليها المدرسة العراقية .

«٢» خليل اسماعيل القبطان : الحباب العراقية المزخرفة منذ فجر الاسلام حتى القرن الثامن الهجري رسالة ماجستير ، بغداد ١٩٧٠ م ، ص٧٦ ، صلاح حسين العبيدي : المرجع السابق ، ص١٠١ م شكل ٢٥ ونحن لا نميل الى ذلك لآن جلسة القرفصاء تكون عادة بالجلوس على القدمين مع طي الفخذين بموازاة الساقين وطي اليدين ورفعهما الى الصدر .

وقد انتشرت في الفنون الاجنبية والمحلية السابقة للاسلام كالفن السومري والمصري والبوذي «١» والساساني «٢».وفي العصر الاسلامي شاعت على شتى العناصر والتحف الفنية«٣»،بينما كثرت في الموصل على التحف المعدنية«٤» وكذلك تصاوير المخطوطات كصور بدر الدين لؤلؤ «٥» التي تعود الى النصف الاولمن القرن الثالث عشر الميلادي .

ويحمل الشخص الجالس بيده اليسرى كأساً مرفوعاً يهم بشربه ويمسك بيده اليمنى منديلا واضعاً اياه على فخذه الأيمن وأحياناً يحدث العكس .

ويظهر ان حمل الكأس والمنديل او حمل أحدهما اصبح ملازماً لمعظم الاشخاص الجالسين في الفن الاسلامي«٦»ويرجح بعض الباحثين ان الكؤوس تمثل استخدام الخمر من قبل بعض الحكام والسلاطين على الرغم من التحريم والتشديد الذي ورد بخصوصه في القرآن الكريم«٧» .

«١» خليل اسماعيل القبطان ، المرجع السابق ، ص٧٨و٧٩ .

(2) Pope (A.U.) : Asurvey of Persian Art, London 1967, vol. VII, p.207, pl. 207B, Pl. 207 A.

ارثر كريستنسن: ايران في عهد الساسانيين ، ترجمة يحيى الخشاب ومراجعة عبد الوهاب عزام ، القاهرة ١٩٥٧ م ، ص ١٦٦ .

«٣» الدكتور حسن الباشا : فن التصوير في مصر الاسلامية ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص٤٣ ، شكل ٨ ، الدكتور زكي محمد حسن : اطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص٣٠٠ ، شكل ٨٦٩ .

Rice (D.T) : Islamic Art, London, 1965, p. 103, Fig. 100;
Barrett (D.) : Islamic Metalwork in the British Museum, London 1949, Pl. 23.

«٤» صلاح حسين العبيدى : المرجع السابق ، ص١٠١ ، شكل ٢٥ .

(5) Hamid (I.S.) op. cit, vol. 11, p.69, Fig. 135

«٦» الدكتور زكي محمد حسن : المرجع السابق ، ص٢٧٨ ، شكل ٨٢٤ : الدكتور حسن الباشا : التصوير الاسلامي في القرون الوسطى ، ص١٥٧ ، شكل ١٦ .
Les Tresors De L'Asie, La Pinture, Arabe, P.85, 91, 148; Rice (D.T) Op. cit. p. 143, Fig. 142.

(7) Hamid (I.S.) Op. cit. vol. I.P. 53

وقد يفكر البعض نتيجة لذلك ان هذه الحباب كانت اواني لحفظ الخمر ونحن نعتقد عكس ذلك بسبب وجود المسامات في ابدان الحباب التي تساعد على تسرب الخمر. ولكن الذي نرجحه انها كانت اواني لحفظ المياه وذلك لان المسامات تساعد على تبريده وخاصة في فصل الصيف، بينما الخمر يحفظ في الاواني الخزفية والزجاجية، وفعلا رجح البعض استخدامها للمياه «١» .

وقد قطع الفنان شوطاً كبيراً في معرفته لعلم التشريح نظراً للتناسق العظيم الذي ظهر في رسم الاشخاص وبيان نوع من التجسيم والبروز «شكل ١». ماعدا رقاب حباب الموسم الثاني فقد ظهر عليها صور بدائية وبعيدة عن الواقع «شكل ١٠» وربما كانت مقدمة لظهور الصور المتقنة التي وجدت على حباب الموسم الاول بينما تنفيذ العناصر الفنية الاخرى متقاربة في حباب الموسمين مما يدل على ان الفارق الزمني ليس كبيراً بينهما. ونعزو عدم اتقان الصور البشرية هذه وابتعادها عن الطبيعة الى تأثر الفنان او الشخص الذي صنعت لاجله التحفة بمبدأ تحريم الاسلام للتصوير، او عدم تمكن الفنان من رسم الصور البشرية ومعرفته لعلم التشريح. وعلل بعض الدارسين ان لهيئة الشخص الغريبة هذه علاقة بمعتقدات المناطق المجاورة سواء أكانت المعاصرة أم السابقة التي تصور تأثير الارواح والملائكة والشياطين على سلوك الانسان وان الفنان يرمز بهذه الصورة الى الملك او الشيطان وربما له علاقة بعبادة الشيطان لدى طائفة اليزيدية او انه يمثل اله الجد معبود الحضر معتمداً على ورود عبارة «الجد الصاعد» على بعض الحباب بدلا من الشخص المذكور واستخلص من هذا الافتراض ان العبارة المذكورة كانت تصويرية كتابية فيما بعد «٢» ونحن على خلاف ذلك انه من غير المعقول ان يقتبس الفنان او يتأثر بمعتقدات اقوام جاء الاسلام ليهذبها او ان يسمح له الامراء او السلاطين الذين صنعت لهم

(1) Lane (A.): Early Islamic Pottery, Mesopotamia, Egypt and Persia, London, p.28.
«٢» خليل اسماعيل القبطان : المرجع السابق ، ص٦٤ — ٦٦ .

تلك الحباب بذلك، نظراً لتأصل الناحية الدينية بنفوس معظمهم في الموصل لاسيما في القرن الثاني عشر الميلادي «١» اي نفس التاريخ الذي حدده ذلك الدارس لمثل هذه الحباب «٢» .

ويلاحظ على بعض الحباب وجود شخصين واقفين عن يمين وشمال الشخص الجالس فالذي على الجهة اليسرى يحمل بيده كأسين او فواكه داخل طبق مما يجعلنا نرجح ان هذا الشخص هو الخادم الذي يقوم بتقديم الطعام والشراب للشخص الجالس، بينما الشخص الذي يقف على الجهة اليمنى يحمل عصا معقوفة الرأس والخنجر معلق بحزامه مما يدل على انه الشخص الذي يقوم بالحراسة. «الشكل السابق»وقد رجح البعض ان الشخص الحامل لهذه العصا المعقوفة يمثل واعظاً او رجل دين مدللا في ذلك على ان مجالس السلطان نورالدين محمود «٥١٤ – ٥٦٩هـ»عرف بانه كان عامراً برجال الدين«٣» . وهذا غير ممكن، اذ كيف يمكن ان نوفق بين شخص جالس يحمل كأساً يمثل على الاكثر الخمر وبين شخص يقوم بالوعظ والارشاد، هذا من جهة ومن جهة اخرى ان نورالدين محمود بعد حكمه الشام لم يزر الموصل سوى مرتين في سنة ٥٦٦ و٥٦٨هـ «٤» بالاضافة الى ذلك لا يمكن ان نوفق بين رجل الدين والسلاح الذي يحمله. هذا وثمة ناحية مهمة وهو احترام رجال الدين من قبل الحكام عادة. والمفروض، ان كان رجل دين، ان يسمح له بالجلوس لان وقفته المذكورة جعلته في مصاف الخدم .

وعلى كل حال، كانت صور جميع الاشخاص الواقفين بوضع مواجه وتعبر عن التجسيم والتناسق .

وفوق كل من هذين الشخصين الواقفين فتاة بصورة نصفية ومواجهة

«١» احمد قاسم الجمعة : محاريب مساجد الموصل الى نهاية حكم الاتابكة سنة ٦٦٠ هـ ، القاهرة ١٩٧١ م المجلد الاول ، ص١٢ .

«٢» خليل اسماعيل القبطان : المرجع السابق ، ص٦٧ .

«٣» خليل اسماعيل القبطان : المرجع السابق ، ص٨٤ .

«٤» احمد قاسم الجمعة : المرجع السابق، المجلد الاول ، ص٢٨٣ و٢٨٤ .

للناظر معلقة في صدرها قلادة ويتدلى من اذنيها قرطان ومتوجة بتاج يكون اما بهيئة مخروطية تحدده أقراص شبيهة بحبات اللؤلؤ او المسبحة على هيئة العقد المفصص. وقد وجد مثل هذه التيجان مع اختلافات بسيطة ذات الحبيبات المتراصة والتي يتمركز في وسطها فص كبير في العصر السلجوقي متمثلا على رأس فتاة من الجص «القرن الثاني عشر الى الثالث عشر الميلادي» «١» كما وجد ما يشابه ذلك متمثلا على رأس فتاة من لوح جنائزي في تدمر تبدو عليه الملامح الايرانية «٢» .

وهذا ما يجعلنا ان نرجح ان اغطية الرأس للنساء المذكورة تمثلت في ايران واواسط اسيا وشاعت في العراق في العصر السلجوقي.

وقد وقعت بيدنا رقبة حب على كل منطقة من مناطقها الجانبية في الاعلى فتاة نصفية مواجهة للناظر تبدو وكأنها حاسرة الرأس تتدلى من صدرها قلادة.

اما سحنة الاشخاص عموماً فهي شبيهة بما وجد في مدرسة التصاوير العربية. ويرى البعض ان السحن المتمثلة باشخاص هذه الحباب مغولية«٣» ولعل الذي دفعهم الى هذا الاعتقاد هو العيون اللوزية بينما نجد صفة هامة تبعدها عن السحن المغولية وهي الأنف الطويل بعكس الأنف المغولي المتميز بالقصر والفطسة عادة. وفعلا ورد حب محفوظ بمخزن المتحف العراقي تتمثل في اشخاصه السحن المغولية باجلى مظاهرها كالعيون اللوزية والانف القصير والوجه المدور والوجنات البارزة ووجود القرون في اغطية الرأس «٤» وهي تقليد للحباب التي نحن بصددها ولكنها دون المستوى الفني لها مما يدفعنا

«١» الدكتور زكي محمد حسن : اطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية ، ص ٢٦٤ ، شكل ٧٧٨ : القاهرة ١٩٥٨ م ، شكل ٥٥ .

«٢» توبنهكن ،

Ensiclopedia Di titte Le Artile Muse, 7, april 1967 .

«٣» خليل القبطان : الحباب العراقية المزخرفة ، ص ٦٩ .

«٤» المرجع نفسه ، شكل ٤٥٥ و٤٥٦

الى ترجيح صناعتها في العهد المغولي بعد غزوه للعراق وسقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ«١»والموصل سنة ٦٦٠هـ«٢».

وبخصوص ملابس الاشخاص ، لم تكن على شاكلة واحدة فملابس الاشخاص الجالسين تتكون من قطعتين: القسم الاعلى عبارة عن جلباب قصير مفتوح من الامام ويطوى عادة نحو اليمين أو اليسار ويربط بوساطة الحزام فوق القسم الاسفل الذي يتكون عادة من سروال طويل فضفاض واسع الاكمام. وعلى الاغلب هذا النوع من الملابس يمثل ازياء البلاط السلجوقي من بداية القرن الثالث عشر الميلادي «٣» .

اما ملابس الاشخاص الواقفين فتتكون من جلباب طويل يتألف من قطعة واحدة مفتوحة من الامام ويطوى نحو احدى الجهتين ويربط بحزام من الوسط وتارة تتكون الملابس من قطعة واحدة غير مفتوحة.

والملاحظ في هذه الملابس خلوها من الطيات والاستعاضة عنها بوحدات زخرفية متشابهة ومتكررة على هيئة اقراص مزدوجة او ثلاثية.ووجدت الوحدات الزخرفية بدلا من الطيات في بداية الامر على ملابس التصاوير البشرية في سامراء«٤»، كما نشاهد ظاهرة فنية اخرى في هذه الملابس هي وجود الاشرطة الملتفة حول العضد بالاضافة الى ان جميع اطراف الملابس وأكمامها طرزت بحواش مزركشة وقد كانت الملابس المزركشة بالقصب والذهب شائعة في الموصل . «٥»

ومن الجدير بالذكر ان المميزات المذكورة في الملابس كالوحدات الزخرفية المتكررة واشرطة العضد انتشرت في تصاوير مصر في العصر الفاطمي

«١» الدكتور محمد صالح القزاز : الحياة السياسية في العراق–عهد السيطرة المغولية ، بغداد ١٩٧٠ م ، ص ١٠٠ .

«٢» البعلبكي : ذيل مرآة الزمان ، حيدر آباد – ١٩٥٤ م ، جدار ، ص٤٩٢

«٣» خليل القبطان : المرجع السابق ، ص٧٥ .

«٤» الدكتور حسن الباشا : التصوير الاسلامي في العصور الوسطى ، ص٨٠ .

«٥» سعيد الديوه جي : اعلام الصناع المواصلة ، الموصل – ١٩٧٠ م ، ص ٤٦ .

«١» وتصاوير التحف الزخرفية الايرانية «النصف الاول من القرن الثالث عشر» «٢» وكذلك تصاوير المخطوطات الاسلامية التي تدور حول هذا التاريخ تقريباً . «٣»

اما أغطية الرأس سواء أكانت للاشخاص الجالسين ام الواقفين فانها تكون على هيئة عمامة مخروطية تخرج منها عذبة تتدلى على الاكتاف. وقد كانت معظم العمائم الخاصة والجميلة تصنع من الشاش الموصلي «٤»، وقد شاعت مثل هذه العمائم في تصاوير المخطوطات العربية «٥» وكذلك التحف المعدنية في الموصل في منتصف القرن الثالث عشر «٦» .

الصور الحيوانية :

تشتمل الرسوم الحيوانية على طيور طبيعية وخرافية بصورة منفردة ومزدوجة وبوضعية متقابلة ومتدابرة بالاضافة الى الاسود. «الاشكال ١ — ٣»

فالطيور الطبيعية مثلا شاعت في كثير من الفنون وعلى مختلف المواد ولكنها في معظم الاحيان كانت غير متقنة لعدم مراعاة النسب فيها ولهذا كانت بعيدة عن الواقع. لكن الفنان هنا تمكن من ابراز التناسق والانسجام بين اعضائها فتمثلت فيها الحركة والحيوية. وقد رسمت بصورة مزدوجة فوق الاشخاص الجالسين وبصورة منفردة في المناطق الجانبية .

«١» الدكتور حسن الباشا : المرجع السابق ، ص٨١ .

(2) Lane (A.) : Early Islamic pottery. Figs. 74.A., 72.A.
(3) Hamid (I.S.) : Op. cit. voll. 11, Figs. 12, 38, 97, 149, 150,
Rice (D.T) Op. cit, Figs. 102, 105

«٤» سعيد الديوه جي : المرجع السابق ، ص٤٠ .

«٥» الدكتور زكي محمد حسن : اطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية، الاشكال ٨٦٦ — ٨٦٩ .

«٦» صلاح حسين العبيدى : المرجع السابق ، لوحة ٢١ مكرر آ ، ب ، حـ ، د .

ولدى مقارنة هذه الطيور من حيث الدقة بما يشابهها على المخلفات الاثرية الاسلامية لم يشاهد ما يماثلها سوى ذلك الطير المرسوم على صحن خزفي من مدينة الرقة بسوريا يعود الى النصف الثاني من القرن الثاني عشر «١» وكذلك على نافذة حجرية تنسب الى ديار بكر بداية القرن الثالث عشر «٢».

اما الطيور الخرافية فهي من جملة الحيوانات الخرافية التي سادت معظم الفنون القديمة. ولكنها هنا تمثل جسم نسر ورأس فتاة تمركز بعضها في المنطقة الامامية بصورة مواجهة للناظر واحتل مكان الشخص الجالس وبعضها وجد في المناطق الجانبية للحباب وبوضعية جانبية .

واذا تتبعنا ظهور النسر في الفنون الاجنبية والمحلية القديمة نجد له أهمية خاصة في تلك الفنون ففي الفن السومري كان رمزاً لمدينة لكش «٣» وظهر على اثار الحثيين «٤» كحيوان مقدس لهم «٥» ، كما كان يعد من معبودات الحضر المهمة «٦» وربما كان رمزاً لمدينة روما «٧» .

---

(1) Lane (A.) Op. cit. Fig. 43

«٢» تامارا رايس : السلاجقة ، ترجمة لطفي الخوري وابراهيم الداقوقي ومراجعة عبد الحميد العلوجي ، بغداد ١٩٦٨ م ص٢٣٤ ، شكل ٣٨ .

«٣» الدكتور حسن الباشا : تاريخ الفن في العراق القديم ، القاهرة ، ٣ الطبعة الاولى ١٩٥٦ ، ص ٦٤ — ٦٥ .

«٤» ارنولد : تراث الاسلام ، ترجمه وشرحه وعلق عليه الدكتور زكي محمد حسن ، القاهرة ١٩٣٦ م ، حـ ٢ ، ص ٥٩ .

«٥» جرني : الحثيون ، ترجمه الدكتور محمد عبد القادر محمد ومراجعة الدكتور فيصل الوائلي القاهرة ١٩٦٨ م ص ٢٦٨ .

«٦» خليل القبطان : المرجع السابق ص ٦٥ . نقلا عن فؤاد سفر : كتابات الحضر ، مجلة سومر ، مجلد ١٧ ، لسنة ١٩٦١ ، ص ١٤ ، حاشية ١٧ .

«٧» احمد صفر : مدينة المغرب العربي في التاريخ ، تنس ١٩٥٩ ، حـ ١ ، ص ٢١٢.

وفي العصر الاسلامي كان للنسر دلالة خاصة منذ القرن الثاني عشر حيث كان يمثل شارة مميزة وشعاراً خاصاً للسلاجقة«١»وأصبح من المواضيع الزخرفية المهمة على مختلف الاثار والتحف الاسلامية كالمعادن «٢» والخزف«٣» والعناصر المعمارية«٤» والسجاد «٥» .

كما ان الطائر ذا الوجه الادمي على العموم شاع في كثير من المخلفات الاسلامية التي يرقى معظمها الى النصف الاول من القرن الثالث عشر كالتحف المعدنية الموصلية«٦»والخزف الايراني «٧» وعلى تصاوير المخطوطات العربية«٨»

ومن الصور الحيوانية الاخرى التي وجدت على الحباب هي الاسود بوضعية امامية وفي اسفل المنطقة الامامية والجانبيتين، تارة وتارة تعلو هذه الاسود المناطق الجانبية في بعض الحباب .

وحظي الاسد بأهمية كبيرة في الفنون السابقة للاسلام كالسومرية«٩» والاشورية «١٠» والبابلية «١١» والحثية «١٢» .

وفي العصر الاسلامي ظهر الاسد على المخلفات الاثرية منذ العصر الاموي «١٣» . ولكن اصبحت له مكانة خاصة منذ القرن الثاني عشر وما بعده حيث

«١» ارنولد : تراث الاسلام ، ص٥٩ : تامارا رايس : السلاجقة ، ص٢٤٠

(2) Barrett (D.) : Islamic Metalwork in the British Musuem, Fig 22

«٣» ابو صالح الالفي : الفن الاسلامي ، القاهرة ١٩٦٩ م ، لوحة ٤٨ .

«٤» تامارا رايس : المرجع السابق ، ص ٢٣٤ ، شكل ٣٧ : مانويل جوميث مورينو : الفن الاسلامي في اسبانيا ترجمة الدكتور لطفي عبد البديع والدكتور محمود عبد العزيز سالم ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص٢١٤ ، شكل ٢٤٦ .

(5) Wilson (R.P.) : Islamic Art, London 1957 , p.61

«٦» صلاح حسين العبيدى : المرجع السابق ، ص ١٧٥ .

«٧» الدكتور زكي محمد حسن : الفنون الايرانية في العصر الاسلامي ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ١٩٦ .

(8) Rice (D.T.) : Op . cit., Fig. 105

«٩» الدكتور حسن الباشا : تاريخ الفن في العراق القديم ، ص ٦٥.

(10) Vottrel (I.): Lost cities, London, Ist. Published 1957, P.33

(11) I bid., P. 80

(12) I bid., P.96

«١٣» الدكتور حسن الباشا : التصوير الاسلامي في العصور الوسطى ، ص٤٧

كان الاسد رمزاً للملوك الاتابكيين في الموصل «١» وشعاراً لبعض الملوك السلاجقة في اسيا الصغرى «٢» ورنكا للسلطان بيبوس في مصر «٣» وربما يعود ذلك الاهتمام الى ان الاسد يعد مظهراً من مظاهر القوة والبأس أما تنفيذ الاسود وذلك البروز بهذه الوضعية فقد وجدت على كرسي خزفي مضلع من صناعة كاشان بايران يعود الى بداية القرن الثالث عشر «٤»

ولابد لنا ان نشير الى ظاهرة شاعت في جميع صور الاشخاص ومعظم الصور الحيوانية وهي وجود الهالات حول الرؤوس ولا يمكن ان تدل هذه الهالات على القدسية بدليل عدم اقتصارها على الاشخاص الجالسين الذين يمثلون ــ كما ذكرنا ــ الامراء او السلاطين والقادة وانما شملت حتى الاشخاص الواقفين الذين يمثلون الخدم كما تعدتهم الى الحيوانات. بينما كانت تعبر عن القدسية في الصور المسيحية وظهرت الهالات التي تحف برأس الاشخاص في رسوم سامراء «٥» وكذلك في مصر في العصر الفاطمي «٦» ولكنها اصبحت اكثر شيوعاً في تصاوير المخطوطات العربية العائدة للمدرسة السلجوقية وبالاخص الموصل التي كانت من اهم مراكز هذه المدرسة قبل الغزو التتري «٧»

الزخارف النباتية :

وجدت الزخارف النباتية في الفنون السابقة للاسلام لكنها كانت بصورة عامة تقليداً للطبيعة. لكن الفنان المسلم الذي انف التقليد حور تلك الزخارف تحويراً كبيراً بحيث ابعدها عن طبيعتها وطبعها بالطابع الزخرفي وهو ما اطلق عليه بالارابسك .

«١» بطريركية السريان الكاثوليك في بيروت : بعض آثار دير مار بهنام الشهيد بيروت ١٩٥٤ م ، ص٤ .

«٢» تامارا رايس : السلاجقة ، ص١١١ .

«٣» ارنولد : تراث الاسلام ، ص ٥٩ — ٦٠ .

4) Lane (A.) : Early Islamic Pottery , Fig. 63 B.

«٥» الدكتور حسن الباشا : التصوير الاسلامي في العصور الوسطى ، ص ٧٣ .

«٦» المرجع نفسه ، ص٧٨ .

«٧» المرجع نفسه ، ص١٤٥ .

ومعظم الزخارف النباتية على الحباب تشكل «مناطق زخرفية بعضها على هيئة اغصان حلزونية متصلة مع بعضها وبصورة متكررة تكون اشباه الدوائر يتمركز في وسطها الوريدات «شكل ٣، ٥» .

وقد وجد مثل هذا التشكيل الحلزوني للاغصان في الفنون السابقة للاسلام كالفن البيزنطي «١» والساساني «٢». كما اقتبسها المسلمون منذ العصر الاموي كما يلاحظ ذلك في قبة الصخرة «٣» . ولكن المسلمين طوروا مثل هذه الاغصان فيما بعد واصبحت تختلف اختلافاً كبيراً عما كانت عليه في السابق . كما نلاحظها في هذه الحباب ساد مثل هذا التكوين النباتي على معظم الاثار الاسلامية — وعلى الاخص الافاريز — كالاخشاب «٤» والخزف «٥» والمعادن «٦» والعناصر المعمارية «٧» والمخطوطات المصورة « ٨ » وفي وفي الموصل وجدت في محراب مسجد ملا أحمد «٩» .

كما تميزت المنطقة الامامية لواجهات رقاب الحباب التي تعود للموسم الاول بوجود زخرف الارابسك الخشن «شكل ١، ٨» ، اذ شاع ما يماثله معظم المخلفات الاثرية الاسلامية بحيث يعجز الانسان عن حصره.ولكننا نجد ما يشابهه في الموصل على محراب الجامع النوري المنقول الى المتحف

---

(1) Rice (D.T.) : Art of the Byzantine Era, London 1963, Fig. 10

(2) Ghirshman (R) : Iran Parthians and Sassanians, France 1962, P. 209, Figs. 248-249

(3) Rice (D.T.) : Islamic Art, Fig. 3 .

« ٤ » الدكتور فريد شافعي : الاخشاب المزخرفة في الطراز الاموى ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة القاهرة ١٩٥٢ ، المجلد ١٤ ، حـ ٢ ، اللوحات ٥ ، ١١ ، ١٢ .

« ٥ » الدكتور زكي حسن : اطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية ، ص١٤ ، شكل ٤٩ .

(6) Barrett (D.) : Islamic Metalwork in the British Musuem, Figs 18.37

« ٧ » الدكتور احمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ، حـ ١ ، لوحة ١٣ أ .

(8) Hamid (I.S.) : Op . cit., Vol.11,p.63, Fig. 123

« ٩ » احمد قاسم الجمعة : محاريب مساجد الموصل الى نهاية حكم الاتابكة ، القاهرة ١٩٧١ م ، المجلد الثاني ص١٦ ، رسم ١٦١ . (رسالة ماجستير)

العراقي ببغداد العائد الى النصف الاول من القرن السابع الهجري «الثالث عشر الميلادي » «١» .

واهم المميزات المتمثلة في الزخارف النباتية لهذه الحباب هي : التناظر التمثيلي «٢» والقيعان المجوفة للعناصر «٣» وخروج العناصر من بعضها «٤» وقلة بروزها ما عدا الارابسك الخشن الذي يشتهر ببروزه الواضح وبالتجسيم لعناصره التي اضافت للمنطقة المنفذة عليها ظلالا متفاوتة العمق .

ومن اهم العناصر الموجودة في الزخارف النباتية المذكورة هي : المراوح النخيلية الشبيهة بشجرة الحياة الاشورية وكذلك الاوراق النخيلية الثلاثية الانصال بالاضافة الى عنصر الوريدات .

فبالنسبة للمراوح النخيلية وعلى هذه الشاكلة وجدت في اكثر الفنون القديمة كالفن الاشوري والمصري واليوناني والساساني وربما تعود بالاصل الى الفن الاشوري «٥».ولكننا نعتقد ان الفنان هنا اقتبسها من الاثار الاشورية القريبة منه في نينوى .

« ١ » المراجع نفسه ، المجلد الاول ، ص٣٠١ وكذلك المجلد الثاني ، ص١٠٩ ، رسم ٢٨٢ .

« ٢ » التناظر التمثيلي : بمعنى ان الموضوع الزخرفي يبدأ عادة من الوسط مكونا محورا زخرفيا ثم تمتد الزخرفة يمينا وشمالا متشابهة في الخصائص والعناصر والمستويات واسلوب التنفيذ «احمد قاسم الجمعة : المرجع السابق ، المجلد ١ ، ص ٢٣٤» .

« ٣ » القيعان المجوفة : مشتقة من التجويف في العناصر الجناحية التي انحدرت من الفن الساساني ثم انتقلت الى زخارف سامراء ومنها الى المناطق الاخرى « الدكتور فريد الشافعي : زخارف وطرز سامراء، مجلة كلية الاداب جامعة القاهرة ، القاهرة، ١٩٥١ ، المجلد ١٣ ، ح ٢ ، ص ١٠ » .

« ٤ » ان ظاهرة خروج العناصر النباتية من بعضها وجدت قبل الاسلام في فنون الشرق الاوسط وخاصة زخارف الشام من العصر المسيحي ولكنها نضجت تماما وكثر استعمالها في الفن الاسلامي . « الدكتور فريد الشافعي : مميزات الاخشاب المزخرفة، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، القاهرة ١٩٥٤ ، المجلد ١٦ ، ح ١ ، ص٦٢ » .

« ٥ » احمد قاسم الجمعة ، المرجع السابق ، المجلد ١ ، ص ٢٣٧ .

اما الاوراق النخيلية الثلاثية فبالرغم من انتشارها في كثير من الاثار الاسلامية فاننا نجدها متمثلة في الموصل بأجلى مظاهرها وعلى النمط الذي وجدت فيه هنا في العناصر المعمارية التي تعود الى النصف الاول من القرن الثالث عشر الميلادي كمحاريب الجامع النوري ومزاري يحيى بن القاسم وعون الدين «١» .

الزخارف الهندسية :

من الزخارف الهندسية التي شاعت في زخارف الحباب هي: الخطوط الهندسية المنكسرة والمتقاطعة والاشكال الكمثرية والعينات المتتابعة والخطوط المنحنية على هيئة حرف« S » اللاتيني والاقراص المتصلة والمتتابعة «شكل ٦-٨»

فبالنسبة للخطوط المنكسرة وجدت في الفنون الاسلامية والسابقة لها لكنه وجد ما يشابهها في مدينة الموصل على اطار محراب مسجد شمس الدين «نهاية القرن السادس او النصف الاول من القرن السابع الهجري» «٢».

اما الاشكال الكمثرية فربما تطورت عن عناصر «قشور السمك» التي وجدت في الفنون السابقة للاسلام بينما في الموصل وجدت في محراب جامع الامام الباهر «النصف الثاني من القرن السابع الهجري» «٣» .

بينما العينات المتتابعة بدورها شاعت في مختلف الفنون الاجنبية والمحلية السابقة للاسلام كما شاعت في معظم المخلفات الاثرية الاسلامية، لكنها في الموصل وجدت في محراب جامع الامام الباهر وكذلك شاهد قبر الخلال «٦٣٤ هـ» «٤» .

وبخصوص الخطوط المنحنية على هيئة حرف« S » فبالرغم من ندرة

«١» احمد قاسم الجمعة : المرجع السابق ، المجلد الاول ص ٢٦٧ و ٢٧٨ وكذلك المجلد الثاني ، الرسوم ٢٥٩ و ٢٦٩ و ٢٨٢ .

«٢» احمد قاسم الجمعة : المرجع السابق، مجلد ١ ، ص ١٦٧ والمجلد ٢ ، رسم ١٧٤ .

«٣» احمد قاسم الجمعة : المرجع السابق، مجلد ١ ، ص٣٠٨ و٣١٣، والمجلد ٢، رسم ٢٩٤ .

«٤» احمد قاسم الجمعة : المرجع السابق ، مجلد١ ، ص٣٠٩، والمجلد ٢، الرسوم ٢٩٥-٣٠٥ .

شيوعها على الآثار الاسلامية، لكننا وجدنا ما يشابهها في تصوير من مـ
مقامات الحريري «١» ونحن نرجح تطورها من الاغصان النباتية الـ
المتكررة «والتي اوردنا ذكرها عند الكلام عن الزخارف النباتية»
واخيراً، فان الاقراص المتصلة سواء المثقوبة أو غير المثقوبة الشبيهة بحبات
او حبيبات المسبحة بدورها شاعت في الفنون القديمة والاسلامية «٢» ويرى
ان حبات اللؤلؤ من التأثيرات الساسانية التي دخلت الفن الاسلامي «
انتشرت منذ عصر سامراء وما اخذ عنها من مدارس فنية اخرى «٤
الموصل وجدنا ما يماثلها في محرابي مسجد شمس الدين والجامع النوري

الزخارف المعمارية :

ان اهم الزخارف المعمارية التي تشاهد على هذه الحباب هي ا
والاقواس التي تزين المناطق المحصورة بين العرى والتي نفذت داخلها
من العناصر الزخرفية المختلفة. كما ان بعضها اصبح بمثابة التيجان فوق رؤ
بعض النساء «شكل ١، ٢، ٥، ١٠»

وان ظاهرة حصر المواضيع الزخرفية وعناصرها داخل العقود والاقـ
شاعت في الفن الاسلامي منذ عصر سامراء «٦» ويبدو انها امتدت منها الى
في الفترة الفاطمية «٧». كما تردد صدى هذه الظاهرة في صور الكابلابا
في بلرمو بصقليا. واصبح كثير الشيوع في صور المخطوطات العربية

اما في مدينة الموصل فلقد اصبحت ظاهرة حصر الصور والزخـ
داخل العقود والاقواس وكذلك المناطق المفصصة واسعة الشيوع على التـ

«١» الدكتور حسن الباشا : التصوير الاسلامي في العصور الوسطى ، ص١٦٧ ، شكل
«٢» الدكتور حسن الباشا ، مجلد ١ ، ص ١٦٤ .
«٣» الدكتور حسن الباشا : المرجع السابق ، ص ٦٣ .
«٤» الدكتور فريد شافعي : زخارف مصحف بدار الكتب المصرية ، مجلة كلية ا
، جامعة القاهرة ، القاهرة ١٩٥٦ ، المجلد ١٧ ، ج ١ ، ص ٤٨ .
«٥» احمد قاسم الجمعة : المرجع السابق ، المجلد الاول ، ص ١٦٤ .
«٦» الدكتور حسن الباشا : المرجع السابق ، ص ٧١ .
«٧» الدكتور حسن الباشا : فن التصوير في مصر الاسلامية ، ص٤٣ ، شكل
«٨» الدكتور حسن الباشا : التصوير الاسلامي في العصور الوسطى ، ص٨٣ ، شكـ

المعدنية التي ترقى معظمها الى النصف الاول من القرن الثالث عشر الميلادي«١»

ونلاحظ القوس المفصص بصورة جلية يحيط بالقسم الاعلى من الشخص الجالس ومثل هذه الاقواس انتشرت على محاريب الموصل منذ النصف الثاني من القرن السادس الهجري «الثالث عشر الميلادي» كما يلاحظ ذلك في محراب جامع الامام محسن مثلا «٢» .

ونلاحظ ميزة فنية جميلة على عقود هذه الحباب قلما نجدها على الاثار الاسلامية الاخرى ،هي ان القسم الخارجي من العقد يكون على شكل عقد دائري او منبطح مطول ومؤطر يعقد من حبيبات اللؤلؤ اما القسم الداخلي من العقد فمفصص بالاضافةالى تزيين واجهته بالزخارف المختلفة.ولابد . ونحن في صدد العقود والاقواس المفصصة.ان نشير الى ان اصالة فكرتها او ابتكارها اسلامية صرفة .

الكتابات :

تتضمن معظم الافاريز العليا المحيطة ببطن الحباب العائدة للموسم الاول كتابات بخط الثلث الذي تتمثل فيه بعض الخصائص المميزة هنا كالترويس «٣» في رؤوس بعض الحروف والتشعير «٤» في نهاياتها وكذلك الترابط في البعض الاخر.بالاضافة الى تنفيذ الكتابة على مهاد من الزخارف النباتية وعلى ارضية مخرمة بحشد من الحلقات الناعمة.ومعظم هذه الصفات لاسيما التشعير والترويس والترابط بين الحروف تمثلت في كتابات الموصل

«١» صلاح حسين العبيدي : التحف المعدنية الموصلية ، لوحة ٢١ مكررة أ — ك .

«٢» احمد قاسم الجمعة : المرجع السابق ، المجلد الاول ، ص ١٣٥ والمجلد الثاني ، ص ٥٤ . رسم ١٣٩ .

«٣» الترويس : هو تضخم رؤوس بعض الحروف لا سيما القائمة والمنتصبة . وهي من مميزات خط الثلث المهمة .« احمد قاسم الجمعة : المرجع السابق ، المجلد الاول، ص ٤٠ ، حاشية ١» .

«٤» التشعير : هو قلة سمك ورشاقة نهايةبعض الحروف القائمةلا سيما الحروف غير المتصلة — اذا ماقيست ببقية اجزاء الحرف نفسه ، ويتجلى ذلك بصورة واضحة في الخط الثلث « المرجع نفسه ، ص ٤٠ ، حاشية ٢» .

منذ نهاية القرن السادس الهجري«الثالث عشر الميلادي »واكتملت نضجاً في النصف الاول من القرن السابع الهجري « الثالث عشر الميلادي » «١»
وتشتمل هذه الكتابات على عبارات دعائية نصها: العز الدائم والاقبال الشامل والجد الصاعد لصاحبه «شكل ٣،٨» وشاعت مثل هذه العبارات الدعائية مع بعض الاختلافات التي تتناول النص وليس المضمون على معظم النقائش الاثرية الاسلامية كالخزف «٢» والمعادن والحصير «٣» مثلا.ولكنها في الموصل شاعت على الاواني التي ترقى الى النصف الاول من القرن الثالث عشر الميلادي «٤» .

وبالاضافة الى العبارات الدعائية المذكورة وردت عبارات اخرى وجدت عادة تحت الواجهة الامامية للحب تتضمن اسم النقاش نصها «نقش عبد الرحمن» «شكل ١»

ولابد لنا ان نتساءل عن ورود كلمة «نقش»«٥» بدلا من كلمة «عمل» التي تدل على الصناعة عادة وربما يعود ذلك الى اشتراك عدة اشخاص في صناعة التحفة وزخرفتها حيث يقوم شخص معين بصناعة الحب على الدولاب ثم يتولى زخرفته شخص آخر.وبما ان الصناعة على دولاب الفخار كانت شبه آلية لا تحتاج الى خبرة كبيرة كالتي تحتاجها الزخرفة والتي كانت الصفة المميزة لهذه الحباب ،فقد ذكر اسم المزخرف وهو النقاش ولعله اسم الصانع.

« ١ » احمد قاسم الجمعة : المرجع السابق ، المجلد ١ ، ص ١٤٦ .

« ٢ » الدكتور زكي محمد حسن : الفنون الايرانية في العصر الاسلامي ، ص٢٢٤

« ٣ » الدكتورة سعاد ماهر : الحصير في الفن الاسلامي ، القاهرة ، ص٤٣ .

« ٤ » صلاح حسين العبيدي : المرجع السابق ، ص ٥٢ و ٥٣ و ٥٨ .

« ٥ » النقش : هو تلوين الشيء بلونين او باكثر ، وهو ايضا استخراج اجسام صغيرة من جسم اكبر ، ومن ثم استعمل بمعنى الحفر والنحت ، ومن ذلك نقش فص الخاتم، اما حرفة النقاش فيقال لها : النقاشة .
«الدكتور حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف على الاثار العربية ، ص١٢٨٢ و ١٢٨٣ » .

وفعلا كان كثير من النماذج الاثرية الاسلامية يشترك في عملها وزخرفتها عدة اشخاص كالسجاجيد«١» والخزف «٢» والمعادن «٣» . وفي بعض الحالات يكون الصانـــع ماهراً فيقوم بعمل ونقش التحفة لوحده ويطلق عليه اسم النقاش وهذا يظهر بصورة جلية في صناعة المعادن ولا سيما التي تعود الى الموصل في النصف الاول من القرن الثالث عشر الميلادي «٤» .

ويظهر ان النقاش الذي نفذ زخرفة هذه الحباب هو الذي قام بتنفيذ الكتابة ايضاً.حيث ان كثيراً من النقاشين كانوا يجيدون الكتابة والخط «٥» .

طرق تنفيذ الزخرفة :

استخدمت طرق متعددة اتخذها النقاش اساساً لتنفيذ الزخارف المختلفة منها : اللصق والاضافة والضغط والتخريم والحز والقالب والختم .

ويقصد بطريقة اللصق تهيئة بعض العناصر مسبقاً ثم لصقها فوق الاناء بعد الانتهاء من عملية الدولاب.وهذه الطريقة ليست سهلة كما يتبادر للذهن وذلك لان لصق قطعة طينية باخرى لا ينجح على المدى الطويل الا اذا عولج بوسائل تضمن نجاحه ومنها يجب ان تكون القطعة الطينية الملصقة وجسم الاناء بحالة متساوية من الرطوبة تقريباً.ولما كانت صناعة الاناء تسبق هذه العملية فيجب حفظه بدرجة كافية من الرطوبة لحين تهيئة القطعة المراد لصقها ولأجل ذلك يلف بقطعة قماش سميكة ومبللة بالماء وربما يحفظ داخل صندوق محكم السد ليقلل من تسرب الهواء الذي يساعد على الجفاف.وبعد تهيئة القطعة المراد لصقها ترفع قطعة القماش من فوق الاناء ويرطب موضع اللصق ثم توضع الزخرفة الملصقة عليه وبعدها تسوى بالايدي او بسكاكين خشبية او معدنية لكي يحدث الاندماج التام .

«١» الدكتور زكي محمد حسن : المرجع السابق ، ص ١٥٩ ، حاشية ١

«٢» المرجع نفسه ، ص ١٧٥ ، حاشية ١ .

«٣» سعيد الديوه جي : اعلام الصناع المواصلة ، ص ٧٤ ، عبد الرؤوف علي يوسف: تحف فنية من عصر المماليك ، مجلة المجلة ، العدد ٦٢ ، مارس ١٩٦٢ ، ص١٠٣.

«٤» صلاح حسين العبيدى : المرجع السابق ، ص ٤٠ و٤٧ .

«٥» الدكتور حسن الباشا : المرجع السابق ، ص ١٢٨٥ .

وقد استخدمت هذه الطريقة في لصق القطع المخصصة للزخرفة في المناطق الامامية والجانبية بين العرى بالاضافة الى الصور البشرية والحيوانية والعقود المفصصة وربما الاقراص المتتابعة الكبيرة التي تحدد تلك العقود من جهاتها العليا .

اما طريقة الاضافة فتتم بواسطة القمع ومفادها تهيئة طينة كثيرة الليونة ونقية من الشوائب ووضعها في قمع ذي نهاية ضيقة القطر تسدد مبدئياً بواسطة الابهام او أية وسيلة كانت، ثم ترسم اماكن الزخرفة المراد اضافتها وانواعها بواسطة التحزيز – على الاكثر – ليساعد ذلك النقاش على تتبع مواطن الزخرفة من جهة ويضمن عملية لصقها من جهة اخرى وبعدها يؤتى بالقمع المملوء بالطين وتفتح نهايته ويحرك فينساب الطين على الاماكن المرسومة على جسم الاناء وبالقدر المطلوب .

واستعملت هذه الطريقة في اضافة الزخارف النباتية الحلزونية وكذلك الزخارف الهندسية الشبيهة بحرف «S» اللاتيني وكذلك الاطارات التي تكتنفها العناصر المختلفة والاقراص الصغيرة .

بينما طريقة الضغط تنفذ بواسطة اسطوانات – معدنية على الاغلب – فارغة ذات رؤوس مختلفة الاقطار حسب الحاجة ثم تضغط على الاماكن المطلوبة المستوية فتتكون دوائر منخفضة المحيطات.

ونشاهد هذه الطريقة في زخرفة الملابس وعيون الصور البشرية والحيوانية والنسيج الزخرفي من الختمات الناعمة الذي نفذت عليه بعض العناصر كالصور الجالسة والمناطق التي تدنو منها .

واحياناً تكون الالة مدببة الرأس صماء تستخدم في ثقب بعض الاجزاء الصغيرة كفتحات انوف وآذان الصور البشرية والحيوانية .

وبالنسبة لطريقة التخريم فقد شملت الارابسك الخشن الموجود في المنطقة الامامية المحيطة بالشخص الجالس او الطائر الخرافي الذي حل محله احياناً، وربما نفذت هذه الزخرفة بواسطة ازاميل خاصة على غرار النحت.

بينما اعتمدت طريقة الحز على الخطوط الغائرة التي استفيد منها في زخرفة المناطق الخلفية لمعظم الحباب وكذلك في زخرفة حواجب النساء وتحديد البسة الاشخاص واجنحة الطيور ومؤخراتها ،ونفذت هذه الطريقة بواسطة ازاميل مدببة على الاغلب .

اما طريقة القالب فتتم بنحت نموذج زخرفي معين ثم يستخرج منه قالب سلبي من الخشب او الجص وبواسطته تعمل عدة قوالب ايجابية متكررة من الطين وفي هذه الحالة يجب طلي القالب السلبي بمادة دهنية لتمنع التصاق الطين اللين الذي صب فيه لاستخراج النسخ الايجابية.وبعد ذلك يتم لصق النسخ في اماكنها .

وقد استخدمت هذه الطريقة في عمل رؤوس الاسود بدليل انها متشابهة تماماً على الاناء الواحد ولو عملت بغير ذلك لما استطاع الفنان ، مهما بلغ من الحذق ، ان يجعلها بهذا التشابه .

وأخيراً طريقة الختم وقد استعملت في زخرفة الوريدات وتشبه هذه الطريقة طريقة القالب السابقة لانها تعتمد ايضاً على قالب سلبي — ربما من الخشب — ولكن الاختلاف يكمن في اسلوب التنفيذ ، ففي طريقة القالب يصنع القالب الايجابي سبقاً بوساطة القالب السلبي ثم يلصق على الاناء بينما في طريقة الختم تلصق القطعة المراد ختمها اولا ثم تضغط بواسطة القالب السلبي بعدئذ .

وهكذا رأينا تظافر عدة طرق زخرفية لتنفيذ موضوع زخرفي او عنصر معين .

مراكز الصناعة والتاريخ :

ذكرت عدة آراء حول الموطن الاصلي لهذه الحباب بعضها رجح الموصل على انها الموطن الرئيسي لها «١» والبعض الاخر اضاف اليها سنجار «٢»

«١» ديماند : فنون الاسلام ، ص ١٩٩ .

«٢» خليل القبطان : الحباب العراقية المزخرفة ، ص٧١ .

ولكننا نميل الى الرأي الاول نظراً لان مدينة الموصل هي المركز السيا
المهم للسلطات السياسية المتعاقبة في حكم شمال العراق والجزيرة ولكـ
النماذج المكتشفة فيها وربما انتقلت هذه الصناعة من الموصل الى سنـ
والشام. «١»

ولا تحمل الحباب تاريخاً مدوناً ولاجل هذا اختلفت اراء الدار
والمهتمين بها—وان كانت معظمها متقاربة—فالدكتور محمد عبد العز
مرزوق ارجعها الى القرن الحادي عشر والثاني عشر «٢» بينما ديم
حدد زمنها ما بين النصف الاخير من القرن الثاني عشر وبداية القرن الثا
عشر«٣» اما ارثرلين «Lane» فوضعها في النصف الاول من القرن الثا
عشر «٤».وكانت آراء كل من سارة وميجون مقاربة لذلك «٥» .

وتقديرنا للتاريخ انه لا يمكن ان يتعدى العهد الاتابكي «٥٢١ — ٦٦٠
لان الفترة التي سبقته وكذلك التي اعقبته كانت مضطربة في حين تميز العـ
الاتابكي بالاستقرار وازدهار الناحية الفنية «٦».

وبالاضافة لما سبق،وجدنا من خلال دراستنا لزخارف حباب الموسم الا
وعناصرها ومقارنتها بما يشابهها في العالم الاسلامي والموصل بالذات ان معظـ
يعود الى النصف الاول من القرن الثالث عشر وهو ما نرجحه تاريخاً لهـ
الحباب وعلى الاخص عهد بدرالدين لؤلؤ «١٢٣٣ — ١٢٥٩» الذي يعد من ا
رعاة الفنون في الفترة الاتابكية «٧» .

«١» المرجع نفسه ، ص ٩١ .

«٢» الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق : فخار العراق وخزفه في العصر الاسلامي، سومر ، المجلد ٢٠ لسنة ١٩٦٤ م ص١٠٢ ، شكل ٢ .

«٣» ديماند : المرجع السابق ، ص١٩٩ .

4) Lane (A.) Op. Cit, Fig. 37B

«٤» خليل القبطان : المرجع السابق ، ص٧٥ .

«٥» احمد قاسم الجمعة : محاريب مساجد الموصل ، ص ١١ .

«٦» ديماند : المرجع السابق ، ص١٠١ .

اما حباب الموسم الثاني فلما كانت من طبقة اعمق وان رسومها البشرية بدائية وغير متقنة كما ذكرنا فمن المحتم ان تكون اقدم زمناً وانها مقدمة لظهور حباب الموسم الأول لكن وجود التشابه بين العناصر الفنية الاخرى كالعقود والزخارف النباتية والصور النسائية والاسود يجعلنا نفكر ان الفارق الزمني بين حباب الموسمين ليس كبيراً. واننا نرجح عودة حباب الموسم الثاني الى منتصف القرن السادس الهجري «الثاني عشر الميلادي» .

وختاماً: اننا وجدنا نقطة هامة ، هي: قلة انتشار هذا النوع من الحباب وتوقف صناعته فيما بعد بعكس صناعة المعادن ومن التطعيم والتكفيت الذي انتقل الى المناطق الاخرى بعد الغزو المغولي للموصل كسوريا ومصر ومهد لظهور مدارس فنية قائمة بذاتها هنالك .

ونعزو ذلك الى قلة المشتغلين بصناعة وزخرفة مثل هذا النوع من الحباب نظراً لزخرفتها المتقنة والمعقدة وانها اقتصرت على الاسرة الحاكمة عادة فكانت صناعتها محدودة ومن جهة اخرى كبر حجمها وضخامتها جعل من المتعذر نقلها من منطقة لاخرى بعكس التحف المعدنية والخزفية التي تكون اخف واصغر. وطبيعي ادى ذلك الى عدم مشاهدتها من قبل فناني المناطق الاخرى لتقليدها .

ابن الجوزي

الدكتور خضر الدوري

اسمه ونشأته الاولى :

هو ابو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن الجوزي* .
ولد ابن الجوزي ببغداد وان تاريخ ولادته غير ثابت، فروايات ترجعه الى سنة «٥٠٨ هـ» بينما اخرى ترجعه الى سنة «٥١٠هـ» ويظهر ان لابن الجوزي نفسه دخلا في امر اختلاف تاريخ ولادته، فهو يرى انه من الضروري للشخص «ان يكتم مقدار السن لانه ان كان كبيراً استهرموه وان كان صغيراً احتقروه»«١».

لقد انحـــدر ابن الجوزي من عائلة موســـرة فهو يذكر لنا ان اسلافه قد تشاغلوا «بالتجارة والبيع والشراء» وأن اباه «كان موسراً وخلف الوفا من المال» «٢» ويظهر ان اسلافه قد امتهنوا تجارة الصفر ولذلك نجد في سماعاته الاولى في الحديث يرد اسمه متبوعاً بلقب الصفار «٣» .

* وقد عرف بالجوزي «نسبة الى مشرعة الجوز «من محلات بغداد» ، او نسبة الى فرضة من فرض البصرة يقال لها: جوزة ، او لجوزة في دار جده بواسط ، او لفرضة الجوز ، او محلة بالبصرة تعرف بمحلة الجوز» عبد الحميد العلوجي ، مؤلفات ابن الجوزي ، ص ٦ .

«١» الجوزي ، صيد الخاطر «القاهرة» ١٩٢٧ ، ص ٢١٣ .

«٢» الجوزي ، لفتة الكبد الى نصيحة الولد «القاهرة ١٩٣١» ص ٨٥ ، ٩٠ .

«٣» ابن رجب ، الذيل على طبقات الحنابلة «القاهرة ١٩٥٢» ج ١ ص ٤٠ .

لقد توفي والده وهو ابن ثلاث سنوات، وبهذا الخصوص يقول: «ان ابي مات وانا لا اعقل» «٤» ويظهر ان امه لم تعن بتربيته، فتولت تربيته عمته «٥»، واخذته الى المسجد الذي كان يدرس فيه خاله الشيخ محمد بن ناصر، فدرس عليه القرآن والحديث «٦» .

ويذكر انه تلقى اولى محاضراته في الحديث سنة «٥١٦هـ / ١٢٢٢م» ومعنى ذلك انه بدأ دراسته وهو ابن ثمان او ست سنوات، كما وانه قد تلقى التعاليم الاولى في فنون الوعظ من شيخه ابي القاسم بن يعلي «٧» وعلى الرغم من المبلغ الذي حصل عليه كارث من والده والذي كان مقداره عشرين ديناراً ودارين، فان ابن الجوزي عاش في زمن طلبه للعلم عيشة ضنكة فهو يقول :

«فاخذت الدنانير واشتريت بها كتباً من كتب العلم وبعت الدارين وانفقت ثمنها في طلب العلم ولم يبق لي شيء من المال» ويتابع ابن الجوزي قوله مفتخراً بانه ما ذل «في طلب العلم قط ولا خرج يطوف في البلدان كغيره من الوعاظ ولا بعث رقعة الى أحد يطلب منه شيئاً قط» «٨» .

ويظهر ان المبلغ الذي ورثه عن والده كان قد نفد سريعاً وعندها عانى ابن الجوزي ما عانى اذ يقول: «انفقت زمن الصبوة والشباب في طلب العلم... ولقد كنت في حلاوة طلب العلم القى من الشدائد ما هو عندي احلى من العسل لاجل ما اطلب وارجو. كنت في زمان الصبا آخذ معي ارغفة يابسة فاخرج في طلب الحديث، واقعد على نهر عيسى فلا اقدر على اكلها الا عند الماء، فكلما اكل لقمة شربت عليها. وعين همتي لا ترى الا لذة تحصيل العلم» «٩».

«٤» الجوزى ، صيد الخاطر ، ص ١٩٢ .

«٥» ابن رجب ، الذيل ، ج ١ ص ٤٠ .

«٦» ابن العماد ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب « القاهرة ١٣٥٠ هـ» ج ٤ ص ٣٢٩ — ٣٣٠ .

«٧» سبط بن الجوزى ، مراة الزمان « شيكاغو ١٩٠٧ » ج ٨ ص ١١٧ ، ١١٨ .

«٨» الجوزى ، لفتة الكبد ، ص ٨٥ — ٨٦ ، ٨٢ .

«٩» الجوزى ، صيد ، ص ١٩١ .

ويوضح اكثر وضعه المعاشي في فترة التحصيل قائلا «وكنت اصبح وليس لي مأكل وامسي وليس لي مأكل» «١٠».ان وضعا كالذي عاشه ابن الجوزي جعله يدرك بل ويبالغ في قيمة المادة في التحصيل العلمي فكان كثيراً ما يكرر في كتبه ان «ليس في الدنيا انفع للعلماء من جمع المال للاستغناء عن الناس، فانه اذا ضم الى العلم حيز الكمال، وان جمهور العلماء شغلهم العلم عن الكسب، فاحتاجوا الى ما لابد منه، وقل الصبر فدخلوا مداخل شانتهم وان تأولوا فيها ...فعليك يا طالب العلم بالاجتهاد في جمع المال للغنى عن الناس فانه يجمع لك دينك» «١١» وقد يتبين مقدار خطورة رأي ابن الجوزي هذا اذا تذكرنا ان العصر الذي عاشه كان عصر ازدهار للصوفية ولفكرها في التوكل، بل ان الجوزي ينصح قائلا: «ينبغي للعالم والعابد ان يحرك في معاش كنسخ باجرة او عمل الخوص» «١٢»، وينصح كذلك من يضعف عن الكسب بان يتعفف عن النكاح ويقلل النفقة في حالة انجابه للاولاد، وان يقنع بالشيء اليسير، اما من كان له مال فينصحه ابن الجوزي بالاجتهاد في تنميته وحفظه «١٣». ويعالج ابن الجوزي نفس الموضوع مرجعاً اسباب عوز اهل العلم الى انقطاع ما كان يصلهم من بيت المال ومن صلات الأخوان. «١٤»

ويبدو ان ابن الجوزي قد يكون متأثراً في رأيه هذا بابن عقيل «١٥» ان معالجة ابن الجوزي لهذا الموضوع في الحقيقة انما هو عرض لمشكلة طالما تطرق اليها الكثير ممن كتب في الاخلاق وفي السياسة الا وهي الخوف من الاتصال بالسلطة وتفضيل العزلة .

«١٠» الجوزى ، لفتة ، ص ٨٢ .

«١١» المصدر السابق ، ص ١٢٨ — ١٢٩ .

«١٢» نفس المصدر ، ص ٣٩٥ .

«١٣» نفس المصدر ، ص ٣٢٤ .

«١٤» نفس المصدر ، ص ١٠ ، ٧٣ ، ٣٢٤ .

«١٥» الجوزى ، المنتظم ، ج٩ ، ص ٦٧ — ٦٨ .

علاقته بالسلطة :

لم يكن ابن الجوزي، في بداية امره وطلبه للعلم، على صلة بالسلطة ولا راغباً في ذلك بل انه كان يميل الى الزهد «١٦» حيث انه اشار الى اقتدائه في صباه بقول ابي طالب المكي في كتابه «قوت القلوب» بخصوص الزهد فشرع يقلل من اكله «فضاق المعى واوجب ذلك مرض سنين» «١٧» وفي مكان اخر يشير ابن الجوزي الى ميله للزهد ثم انحرافه وارتباطه بالسلطة فيقول «كنت في بداية الصبوة قد الهمت سلوك طريق الزهاد، بادامة الصوم والصلاة، وحببت الى الخلوة، فكنت اجد قلباً طيباً. وكانت عين بصيرتي قوية الحدة تتأسف على لحظة تمضي في غير طاعة، وتبادر الوقت في اغتنام الطاعات، ولي نوع انس وحلاوة مناجاة. فانتهى الامر الى ان صار بعض ولاة الامور يستحسن كلامي فامالني اليه فمال الطبع، ففقدت تلك الحلاوة. ثم استمالني آخر فكنت اتقي مخالطته ومطاعمه، لخوف الشبهات. وكانت حالتي مريبة، ثم جاء التأويل فانبسطت فيما يباح، فعدم ما كنت اجد، وصارت المخالطة «للسلطة» توجب ظلمة في القلب الى ان عدم النور كله «وهذه الحال جعلت ابن الجوزي يعاني من مرض نفسي وشعور بالاثم نتيجة اتصاله بالحكام اذ يقول «وكثر ضجيجي من مرضي، وعجزت عن طب نفسي فلجأت الى قبور الصالحين، وتوسلت في صلاحي، فاجتذبني لطف مولاي بي الى الخلوة على كراهة مني ورد قلبي علي بعد نفوره عني واراني عيب ما كنت اوثره فافقت من مرض غفلتي» «١٨».

والظاهر ان الفترة التي امضاها على اتصال بالسلطة كانت طويلة بعض الشيء وقد ذكر لنا هو جملة من الاخبار التي تشير الى وثاقة صلته بالسلطة خصوصاً ايام وزارة الوزير — الحنبلي — ابن هبيرة «١٩». وكثيراً ما كان يلتقي بابن هبيرة اذ جعل له الاخير «مجلساً في داره كل جمعة يحضره ويطلق

«١٦» ابن رجب، الذيل ج ١، ص٤٠٣.

«١٧» الجوزي، صيد، ص ١٧.

«١٨» نفس المصدر، ص ٥٨ — ٦٠ وكذلك ص ٣٣١.

«١٩» ابن رجب، الذيل، ج ١ ص ٤٠٣.

العوام في الحضور» «٢٠».ان اتصاله بالسلطة ازداد وثوقاً ايام خلافة المستضيء وخصوصاً الفترة ما بين ٥٦٦ — ٥٩٠ هـ فكان الخليفة يخلع عليه الخلع ويرسل له الهدايا «٢١» ويدعوه الى ولائمه التي يقيمها «٢٢» ويحضر هو وامه لسماع مجالس وعظه «٢٣» وابن الجوزي بدوره كان يحضر مع الوفود للتهنئة بالمناسبات المختلفة «٢٤» .

ومما يشير الى قوة صلته بالسلطة هو عقد قران ابنته رابعة الذي جرى سنة ٥٧١ في باب الحجرة وهو اشرف مكان في دار الخلافة وحضر العقد قاضي القضاة ونقيب النقباء وجماعة من الشهود والخدم والاكابر، وكان عقدها على ابن الوزير السابق يحيى بن هبيرة. اما زفافها فكان من دار الجهة المعظمة ام الخليفة وكانت قد جهزتها الجهة بمال كثير «٢٥».

ان علاقته القوية بالسلطة وكونه حنبلياً انعكس في كرهه للروافض وعدائه للباطنية، فعندما اسقطت الدولة الفاطمية بمصر سنة ٥٦٧هـ صنف ابن الجوزي كتاباً اسماه«النصر على مصر»وعرضه على الخليفة المستضيء«٢٦» والف لنفس الخليفة كتابا اخر سماه«المصباح المضيء في خلافة المستضيء» .

ويشبه ابن الجوزى قوة علاقته بالخليفة بعلاقة كل من سلمان الفارسي وحسان بن ثابت بالرسول «ص» «٢٧» .

«٢٠» المنتظم، ج ١٠ ص ٢١٥، هذا وان ابن الجوزى كان هو الذى غسل جثة الوزير عند موته وكان من بين المصلين على الخليفة المستنجد وتكلم ثلاثة ايام في عزاء الخليفة . المنتظم ج ١٠ ص ٢١٦، ٢٣٣ — ٢٣٦ .

«٢١» نفس المصدر، ج ١٠، ص ٢٣٥ .

«٢٢» نفس المصدر، ج ١٠ ص ٢٥٧، ٢٦٤، ٢٧١ .

«٢٣» نفس المصدر، ج ١٠ ص ٢٥٢، ٢٥٦ .

«٢٤» نفس المصدر، ج ١٠ ص ٢٥٢، ٢٥٤ .

«٢٥» نفس المصدر ج ١٠ ص ٢٥٧، ٢٦٢ .

«٢٦» نفس المصدر، ج ١٠ ص ٢٣٧ .

«٢٧» نفس المصدر : ج ١ ص ٢٦٣ — ٢٦٤، وانظر عن علاقته القوية بالوزراء وكبار الموظفين، المنتظم، ج ١٠ ص ٢٤٣، ٢٥٩، ٢٧٣، ٢٨٤ .

ان علاقة ابن الجوزى بالسلطة كان لها طابعها الرسمي والشعبي في آن واحد فقد كان ابن الجوزى احد الثلاثة من الوعاظ الذين سمحت لهم السلطة وحدهم باقامة مجالس الوعظ ببغداد وكان ابن الجوزى ممثلا عن المذهب الحنبلي بينما الاخران عن الشافعي والحنفي « ٢٨ » .

وفي سنة ٥٧١ لقب ابن الجوزى « ناصر السنة » «٢٩» وفي نفس السنة اعطي ابن الجوزى صلاحيات من الخليفة في محاربة البدع « ٣٠ » .

ان اتصالاته بالسلطة جلبت له متاعب ايضا ففي عصر كانت العلاقات الشخصية والمذهبية هي المعيار الوحيد في التقييم نجد ان ابن الجوزى يحاسب لعلاقته بابن يونس استاذ دار الخليفة فعند مجيء ابن القصاب وزيرا في سنة ٥٩٠ هـ نكل بابن الجوزى وختم على كتبه وداره وابعد الى واسط حيث اقام هناك منفيا مدة خمس سنوات الى ان استشفع له وعاد الى بغداد سنة ٥٩٥ ، وخلع عليه وجلس عند تربة ام الخليفة وكانت تتعصب له وساعدت في خلاصه « ٣١ » .

لقد امضى ابن الجوزى فترة ابعاده في التعبد والمطالعة ويذكر لنا سبطه انه «لما عاد الى بغداد سمعته يقول قرأت بواسط مدة مقامي كل يوم ختمة» وكان « يخدم نفسه ويغسل ثوبه ويطبخ ويستقي الماء من البئر ولم يدخل الحمام» « ٣٢ » .

ويظهر من ذلك انه عاد له ميله الاول نحو الزهد والعزلة وربما يعود الى هذه الفترة قوله: «ما اعرف للعالم قط لذة ولا عزا ولا شرفا ولا راحة ولا سلامة افضل من العزلة ، فانه ينال بها سلامة بدنه ودينه وجاهه عند الله عز

« ٢٨ » نفس المصدر : ج ١٠ ص ٢٤٢ ، ٢٥٩ .
« ٢٩ » نفس المصدر : ج ١٠ ص ٢٥٨ .
« ٣٠ » نفس المصدر ج ١٠ ص ٢٥٩ .
« ٣١ » سبط ، المرآة : ج ٨ ص ٤٣٨ ، ٤٥٩ .
« ٣٢ » نفس المصدر : ص ٤٥٩ .

وجل وعند الخلق . . .» «٣٣» ، وكان يتعوذ بالله من عالم مخالط للعالم. خصوصا لارباب المال والسلاطين ويضرب مثالا على ذلك قاضي القضاة أبا يوسف اذ «لا يزور قبره اثنان» «٣٤».

تحصيله العلم :

اما بخصوص تحصيله العلمي فيذكر لنا ابن الجوزي قائلا: «اني رجل حبب الي العلم من زمن الطفولة فتشاغلت به» «٣٥» ويرى ان هذا الاهتمام بالعلم امر طبيعي حيث ان الله قد ركزه في طبعه «٣٦» ويرجعه ايضاً الى «علو همته» «٣٧» ولم يحبب الى ابن الجوزي فن واحد من العلم بل فنونه، وان همته في فن ما كانت لا تقتصر «على بعضه» بل يروم «استقصاءه» «والايغال في كل علم الى منتهاه» «٣٨» ومع ذلك فابن الجوزي يعترف بان هذا «امر يعجز العمر عن بعضه» ولذا كانت هذه مسألة اضجرته اذ يرى ان «من علت همته يختار المعالي، وقد لا يساعد الزمان. وقد تضعف الالة، فيبقى في عذاب» ، وهذا ما كان عليه ابن الجوزي الا انه مع ذلك يمتنع عن ان يقول عن حبه للعلم «ليته لم يكن فانه انما يحلو العيش بقدر عدم العقل بل كان يرى بان العاقل لا يختار زيادة اللذة بنقصان العقل» «٣٩» وكان يكرر قائلا «يا ليتني قدرت على عمر نوح» «٤٠» ويذكر لنا ابن الجوزي ان «افضل الاشياء التزيد من العلم، فانه من اقتصر على ما يعلمه فظنه كافياً استبد برأيه، وصار تعظيمه لنفسه مانعاً له من الاستفادة والمذاكرة تبين له خطأه» «٤١» .

«٣٣» صيد : ص ١٨٩ .

«٣٤» نفس المصدر : ص ٢١٤ ، ٢٣٦ ، انظر كذلك ص ٦١ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٧٤ ، الجوزي: تلبيس ابليس «القاهرة» ، ص ١١٨ .

«٣٥» صيد ، ص ٢٢ .

«٣٦» ابن الجوزي ، ذم الهوى «القاهرة ١٩٦٢» ص ٥ .

«٣٧» المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

«٣٨» نفس المصدر ، ص ٢٢ ، ١٩٥ ، ٣٥٧ .

«٣٩» نفس المصدر ، ص ١٩٤ .

«٤٠» نفس المصدر ، ص ٨٥ .

«٤١» نفس المصدر ، ص ٨٧ .

وطالما ان العلوم كثيرة ومختلفة في الاهمية وان العمر قصير فابن الجوزي يضع منهجاً للتحصيل يرى فيه ان اول ما يبدأ به الصبي هو «التشاغل بالقرآن والفقه وسماع الحديث ويحصل له المحفوظات اكثر من المسموعات، لان زمان الحفظ الى خمس عشرة سنة، فاذا بلغ تشتت همته. فليضرب تارة وليرش اخرى..... واول ماينبغي ان يكلف حفظ القرآن متقناً... ثم مقدمة من النحو يعرف بها اللحن، ثم الفقه مذهباً وخلافاً. وما امكن بعد هذا من العلوم فحفظه حسن. وليحذر من عادات اصحاب الحديث، فانهم يفنون الزمان في سماع الاجزاء التي تتكرر فيها الاحاديث» «٤٢». وفي مكان آخر نجده يجعل التفسير العلم الثاني في الاهمية بعد حفظ القرآن، ثم يؤكد ثانية على اهمية الفقه «٤٣»، واصوله والفرائض ويقول: «وليعلم ان الفقه عليه مدار العلوم، ويكفيه من النظر في الاصول مايستدل به على وجود الصانع» ويضع في الاخير النظر في التواريخ «ليعرف مالايستغنى عنه كنسب الرسول «ص» واقاربه وازواجه وما جرى له» «٤٤» وكنتيجة لتجربة ابن الجوزي الخاصة وذوقه وجد «ان الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاديكفي في صلاح القلب، الا ان يمزج بالرقائق والنظر في سير السلف الصالحين» اذ ان هذا سبب لرقة القلب كما وانه كان الدافع الذي دفع ابن الجوزي الى تأليفه سير الحسن البصري وسفيان الثوري وابراهيم ابن ادهم، وبشر الحافي ومعروف الكرخي، وأحمد بن حنبل وغيرهم «٤٥».

لقد بدأ ابن الجوزي تعليمه وهو ما يزال صغيراً «٤٦» وكان نشطاً جداً في تحصيله اذ يقول «ولقد كنت ادور على المشايخ لسماع الحديث فينقطع نفسي من العدو لئلا اسبق» «٤٧» وبالفعل فقد رأى ابن الجوزي انه «في ميدان

«٤٢» نفس المصدر، ص ١٩٩ — ٢٠٠، ٣٥٧.

«٤٣» نفس المصدر، ص ١٤١، ٢٥٥، ١٢٩.

«٤٤» نفس المصدر، ص ١٣٥ — ١٣٦.

«٤٥» نفس المصدر، ص ١٧٤ — ١٧٥.

«٤٦» العماد، شذرات، ج ٤ ص ٢٢٩ — ٢٣٠.

«٤٧» لفتة: ص ٨٢.

سباق والاوقات تنتهب» و كان يقول «لا تخلد الى الكسل فما فات من فات الا بالكسل، ولا نال من نال الا بالجد والعزم»«٤٨»وقد قسم ابن الجوزي يوم طالب العلم الى قسمين: الاول للحفظ ويكون«في طرفي النهار وطرفي الليل»بينما «يوزع الباقي بين عمل بالنسخ والمطالعة وبين راحة للبدن واخذ لحظة»«٤٩».

وقد عرف ابن الجوزي باتباعه هذا الاسلوب في التحصيل فكان «لا يضيع من زمانه شيئاً..وكان يراعي حفظ صحته وتلطيف مزاجه وما يفيد عقله قوة وذهنه حدة» «٥٠».ومن حرصه على الوقت كان ابن الجوزي يتفادى الزيارات التي يقوم بها البعض وكان يعد مسبقاً«اعمالا تمنع من المحادثة لاوقات لقائهم لئلا يمضي الزمان فارغاً» ومن ذلك«قطع الكاغد وبري الاقلام، وحزم الدفاتر فان هذه الاشياء»يقول ابن الجوزي «لابد منها، ولا تحتاج الى فكر وحضور قلب فارصدتها لاوقات زيارتهم لئلا يضيع شيء من وقتي» «٥١».

ان ادراكه لاهمية الوقت واستغلاله له بالشكل الذي رسمه انعكس في شدة شغفه بالمطالعة اذ يقول «واني...ما اشبع من مطالعة الكتب.واذا رأيت كتاباً لم اره فكأني وقعت على كنز.ولقد نظرت في ثبت الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية فاذا به يحتوي على نحو ستة الاف مجلد.وفي ثبت كتب ابي حنيفة وكتب الحميدي «٥٢» وكتب شيخنا عبد الوهاب بن ناصر وكتب ابي محمد بن الخشاب وكانت احمالا وغير ذلك من كل كتاب اقدر عليه. ولو قلت اني طالعت عشرين الف مجلد كان اكثر وانا بعد في الطلب.فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم وقدر هممهم وحفظهم وعباداتهم وغرائب علومهم ما لا يعرفه من لم يطالع فصرت استزري ماالناس فيهواحتقر هممالطلاب» «٥٣».

«٤٨» صيد : ص ١٢٨ .

«٤٩» نفس المصدر : ص ١٦٥ — ١٦٦ .

«٥٠» شذرات : ج ٤ ص ٣٣ .

«٥١» المصدر السابق : ص ١٨٥ .

«٥٢» المنتظم : ج ٩ ص ٩٦ ، ياقوت ، الارشاد ج ٧ ص ٥٨ — ٦٠ .

«٥٣» صيد : ص ٣٦٦ — ٣٦٧ .

لقد تتلمذ ابن الجوزي على عدد من الشيوخ وسمع عن الكثير من المحدثين حتى بلغوا ثمانية وثمانين شيخاً«٥٤»وقد انتقد ابن الجوزي من قبل الذهبي على انه «لم يسمع الا ببغداد ولا روى الا من بضعة وثمانين نفساً»«٥٥».

ويمكن ان نذكر من شيوخه على سبيل المثال لا الحصر شيخه الاول محمد بن ناصر «ت ٥٥٠هـ» حيث سمع منه الحديث «٥٦» وعلي بن يعلي العلوي «ت٥٢٧هـ» وهو اول من علمه فنون الوعظ «٥٧» وعبد الوهاب الانماطي «ت ٥٣٨ هـ» الذي يقول الجوزي عنه «استفدت ببكائه اكثر من استفادتي بروايته . . . وانتفعت به ما لم انتفع بغيره»«٥٨» ودرس اللغة على ابي منصور الجواليقي ودرس الفقه على ابي بكر الدينورى «٥٩» وكذلك الفقه والوعظ على علي بن عبيد الله الزاغوني «ت ٥٢٧» «٦٠» .

آراؤه الدينية :

عاش ابن الجوزي في فترة كان قد خسر فيها الفلاسفة وعلماء الكلام المعركة امام اصحاب التقليد من اهل السنة كما وان عصره امتاز بشدة الصراع المذهبي بين اهل السنة انفسهم على اختلاف مذاهبهم وبينهم وبين فرق الشيعة خصوصا الغلاة ممن وصفوا بالباطنية او الرافضة ، يضاف الى ذلك ازدياد تأثير ونشاط الصوفية الفكري والسياسي والاجتماعي. والذي يقرأ لابن الجوزى يجد مظاهر شتى : نظرية وواقعية لهذه الصراعات . لقد عالج ابن الجوزى مشاكل عصره من زوايا متعددة وان اهم مايميز نظرته هو محاولته التوفيق بين ماجاء في الشرع من ادلة وبين مايراه العقل ولو انه في معظم الاحوال يرجح حكم الشرع اولا . كذلك تمتاز معالجته للقضايا الفكرية بتأثره الكبير

«٥٤» شذرات : ج ٤ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

«٥٥» الذهبي : تاريخ الاسلام ، مخطوطة — البودليان ، اوكسفورد ورقة ١٢٠ — ١٢١

«٥٦» المنتظم : ج ١٠ ، ص ١٦٢ — ١٦٣ .

«٥٧» نفس المصدر : ج ١٠ ، ص ٣٢ .

«٥٨» نفس المصدر : ج ١٠ ، ص ١٠٨ .

«٥٩» نفس المصدر : ج ١٠ ، ص ٣١ .

«٦٠» نفس المصدر : ج ١٠ ، ص ٣٠ — ٣٢ .

باني الوفاء ابن عقيل . على الرغم من ذكاء ابن الجوزى فانه يبدو احيانا متناقضا او غير دقيق في آرائه ، وقد يكون سبب ذلك ليس فقط صعوبة الموضوعات التي عالجها وتشعب الاراء فيها بل ربما كان ذلك بسبب ضغوط او عوامل سياسية معينة تدعوه الى التغيير . فالجوزى يؤكد فضل العقل ويعتبره «اعظم النعم على الانسان . . . لانه الآلة في معرفة الاله سبحانه والسبب الذي يتوصل به الى تصديق الرسل ، الا انه لما لم ينهض بكل المراد من العبد ، بعثت الرسل وانزلت الكتب . . . ولما ثبت عند العقل اقوال الانبياء الصادقة بدلائل المعجزات الخارقة ، سلم اليهم واعتمد فيما يخفى عنه عليهم» «٦١» .

اذن فالعقل على فضله عند الجوزى هو غير قادر على ان يدرك كل الامور المرادة من العبد وهنا يأتي دور الشريعة لتكمل العقل . فالاعتماد على العقل وحده قد يكون سببا في الانحراف عن الخط الصحيح ومن هذه الزاوية يوجه الجوزى نقده للفلسفة فيقول «تأملت الدخل الذي دخل في ديننا في العلم والعمل فرأيته من طريقتين . . . فاما اصل الدخل في العلم والاعتقاد فمن الفلسفة . . واما اصل الدخل في باب العمل فمن الرهبانية » «٦٢» .

ان مبدأ دخول الفلاسفة في الاسلام «هو ان خلقا من العلماء في ديننا لم يقنعوا بما قنع به رسول الله «ص» من الانعكاف على الكتاب والسنة فاوغلوا في النظر في مذاهب اهل الفلسفة وخاضوا في الكلام الذي حملهم على مذاهب ردية افسدوا بها العقائد» «٦٣» الا ان الجوزى لا يلقي اللوم على جميع الفلاسفة «٦٤» لا سيما وانه يستشهد احيانا بكلامهم «٦٥» بل انه يبرئهم مما ينسب اليهم

«٦١» تلبيس ابليس : ص ٢ .

«٦٢» صيد ، ص ١٨٤ .

«٧٣» نفس المصدر والصفحة .

«٦٤» امثال سقراط وابوقراط وارسطو وجالينوس . على الرغم من ان الجوزى يعرف هؤلاء ويسميهم احيانا « الاوائل» الا انه يكشف عن عدم فهم للبعض الاخر فمثلا نجده يعرف السفسطائيين بانهم « قوم ينسبون الى رجل يقال له سوفسطا » تلبيس ص ٣٩ .

«٦٥» تلبيس ، ص ١٤ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ذم الهوى : ص ٢٨٩ - ٢٩٢ .

من نكرانهم الصانع ودفعهم للشرائع ويرى ان مايحكى عنهم «محال : فان اكثر القوم يثبتون الصانع ولا ينكرون النبوات ، وانما اهملوا النظر فيها وشذ منهم قليل فتبعوا الدهرية» «٦٦» ، وانه يأخذ على الفلاسفة المسلمين ومتكلميهم تحيرهم وتناقضهم«٦٧» ويرد عليهم بانه لا ينكر وجود النفس «٦٨» بعد الموت ولا ان لها نعيما وشقاء ولكن ينكر عليهم انكارهم حشر الاجسام . ويؤكد كذلك بانه لا ينكر «اللذات والالام الجسمانية في الجنة والنار» مؤكدا بأن الشرع قد جاء بذلك ، كما وانه يؤمن «بالجمع بين السعادتين ، وبين الشقاوتين الروحانية والجسمانية » وبأن «القدرة لا يقف بين يديها شيء» وهنا يرد على من يقول بأن «الابدان تنحل وتؤكل وتستحيل » «٦٩» .

ويحذر ابن الجوزى الصوام من المتكلمين «لانهم يخبطون عقائدهم بما يسمعونه منهم»«٧٠» وفي معرض رده وذمه للمتكلمين يستشهد باقوال كالتي تنسب للشافعي واحمد بن حنبل الذي وصفهم بانهم زنادقة «٧١» ، الا ان هذا لا يمنعه من ان يورد قول ابن عقيل «والمتكلمون عندي خير من الصوفية لان المتكلمين قد يزيلون الشك والصوفية يوهمون التشبيه» «٧٢» .

على الرغم من ميل الجوزى في صغره ثم في شيخوخته الى الزهد فكرا وسلوكا «٧٣» الا انه اشتهر بعدائه للصوفية والزهاد فقد كرس الجزء الاكبر من كتابه تلبيس ابليس وجزءاً من صيد الخاطر اضافة الى كتابه المنتظم ، لنقد عادات المتصوفة التي رآها بعيدة عن الشرع . فهو يرى ان سبب بدء ظهور

«٦٦» نفس المصدر ، ص ٤٨ - ٤٩ .

«٦٧» نفس المصدر ، ص ٤٩ ، ٨٠ .

«٦٨» يبدو ان الجوزى يرى ان «نفس المؤمن طائر تعلق في شجرة الجنة حتى يرده الله عز وجل الى جسده يوم يبعثه » وهذا حديث نبوي ، صيد ص ٢٢٣ .

«٦٩» تلبيس ، ص ٤٧ .

«٧٠» صيد ، ص ٢٢١ .

«٧١» المصدر السابق ، ص ٨٠ .

«٧٢» نفس المصدر ، ص ٣٦٢ .

«٧٣» ابن رجب ، الذيل ج ١ ص ٤١٣ .

الافراط في الزهد هو الجهل بالعلم وقرب العهد بالرهبانية «٧٤» .

ويقرر بان اكثر أحوال الصوفية والزهاد «منحرف عن الشريعة» وسببه «الجهل بالشرع » او «الابتداع بالرأى» «٧٥» وينتقد بناءهم للربط بانهم «جعلوا للمساجد نظيرا يقلل جمعها . . . وانها مناخ للبطالة» «٧٦» وانها «خوارج عن المساجد وهي دكاكين كريهة يقعد فيها الكسالى عن الكسب مع القدرة عليه» «٧٧» ، ويبالغ في انتقاده فيقول بان «رجلا قرأ القرآن في رباط فمنعوه ، وان قوما قرأوا الحديث في رباط فقالوا لهم ليس هذا موضعه» «٧٨» .

في الوقت الذي ينتقد الجوزى القصص التي تروى عن بعض الصوفية نجده يؤكد عدم انكاره لما صح من «كرامات الاولياء الصالحين» التي تنسجم مع الشرع «٧٩» ، وبعبارة اخرى من استطاع منهم ان يجمع بين العلم والعمل . ويرى ان هنالك اربعة في الاسلام ممن بلغ هذه الدرجة من الكمال وهم سعيد ابن المسيب والحسن البصري وسفيان الثوري واحمد بن حنبل وقد افرد لاخبار كل منهم كتابا «٨٠» .

ان انكاره لبعض القصص الصوفي اثار عليه عجب البعض من مؤرخي الصوفية فيقول اليافعي في كتابه روض الرياحين «والعجب من المنكر المذكور «الجوزى» في انكار مثل هذا مع انه يعتقد القوم ويطرز كلامه بكلامهم وحكاياتهم وكراماتهم » «٨١» .

«٧٤» صيد ، ص ١٦ .

«٧٥» نفس المصدر ، ص ١٣ .

«٧٦» تلبيس ، ص ١٦٩ . ١٧٠ .

«٧٧» صيد ، ص ٢٧٩ .

«٧٨» تلبيس ، ص ١٧٠ .

«٧٩» المصدر السابق ، ص ١٦ .

«٨٠» صيد ، ص ٣٩ ، لفتة ، ص ٨٧ ولقد الف ابن الجوزى كتابا ذكر فيه الكثير من القصص التي تحمل كرامات الصوفية ودعاه «نرجس القلوب والدال الى طريق المحبوب» .

«٨١» اليافعي ، روض الرياحين ، مخطوطة مكتبة دائرة الهند ، لندن ورقة ٢٩٢ .

انا لانستطيع ان نغفل الدور الذي لعبته ميول الجوزى المذهبية والشخصية في هجومه على الصوفية ، فكونه فقيها ومتصلا بالسلطة جعله يكره الصوفية الذين كانوا يصارعون الفقهاء مراكزهم لدى السلطان . هذا اضافة الى ان الجوزى حنبلي وان الكثير من المتصوفة في زمانه كانوا من الشافعية بل اننا نجده لا ينصف الجيلاني في ترجمته له والتي كانت قصيرة جداً على الرغم من انه حنبلي ايضا «٨٢» .

ويبدو ان ابن الجوزى قد آمن بما روى عن العباس قوله «فقيه واحد اشد على ابليس من الف عابد» «٨٣»هذا وربما كان لكتابات ابي الوفاء ابن عقيل فيما يخص الصوفية تأثير على الجوزى «٨٤» .

لقد خاض ابن الجوزى مع من خاض في مسألة الظاهر والباطن متبعا اراء ابن عقيل من ان الاسلام هلك «بين طائفتين . . الباطنية والظاهرية . . والحق بين المنزلتين وهو ان نأخذ بالظاهر مالم يصرفنا عنها دليل ونفرض كل باطن لايشهد به دليل من ادلة الشرع» «٨٥» .

يصف الجوزى الباطنية بأنهم «قوم تستروا بالاسلام ومالوا الى الرفض» «٨٦» ويرى انه لاينفع سلوك المجادلة العلمية مع رئيسهم » بل « التوبيخ والازدراء على عقله وعقول اتباعه » «٨٧» .

ان معلومات الجوزى عن الباطنية خصوصا التي ضمنها في المنتظم تشير الى فهم جيد لهذه الفرقة الاانه خصوصا قبل اتصاله بالسلطة وبعد تخلي السلطة عنه لا يظهر عداء للشيعة بل انه يقف موقفا محايداً وينتقد كلا من الشيعة «اهل الكرخ» والسنة «اهل باب البصرة » قائلا «ونرى كثيرا ممن يخاصم في هذا

«٨٢» المنتظم ، ج ١٠ ص ٢١٩ .

«٨٣» صيد ، ص ٢٠ .

«٨٤» تلبيس ، ص ٦٦ — ٦٧ ، شذرات ، ج ٤ ص ٣٣١ .

«٨٥» تلبيس ، ص ١٠٥ .

«٨٦» نفس المصدر : ص ٩١ ، ١٠٤ .

«٨٧» نفس المصدر : ص ١٠٦ .

«العصبية لابي بكر او لعلي» يلبس الحرير ويشرب الخمر ويقتل النفس وابو بكر وعلي بريئان منهم» «٨٨» .

واشتهر ابن الجوزى ايضا بموقفه الايجابي وتحليله البعيد عن التحيز من الحرب بين عائشة وعلي «٨٩» وروى سبطه عنه انه قال «ماوقع الخلاف بين الصحابة وبين علي عليه السلام الا والحق مع علي» «٩٠» ويذهب اكثر من ذلك عندما ينتقد يزيد بن معاوية ويؤلف كتابا في ذلك مما حدا بعبد المغيث البغدادي «ت ٥٨٢ هـ» ان يخاصم ابن الجوزى ويصنف كتابا فيه فضائل يزيد ردا على ابن الجوزى «٩١» بل اننا نجد ان الجوزى كان قد اتهم — بسبب الخوف — بالميل الى الشيعة «٩٢» .

ان النشاط الثقافي — المذهبي الذي شهدته بغداد خلال العصر السلجوقي كان له اثره في اثارة المجادلات الكلامية حول الله وصفاته والروح . . . الخ . والجوزى كما يشير هو كان يحذر من الخوض في هذه المواضيع على اخذها كماجاءت بلا تأويل كي يسلموا من «تشبيه المجسمة وتعطيل المعطلة» «٩٣» . وقد ذكر لنا بانه كان قد الف كتابا عرض فيه آراء المشبهة وردهاودعاه : منهاج الوصل الى علم الاصول «٩٤» .

ويرى ان هناك امورا امر الناس «بعلم جهلها ، من غير بحث عن حقائقها كالروح . . . . والعقل» ويتساءل الجوزى «لوقال قائل : ماالصواعق . وما البرق . وماالزلازل ؟ قلنا : شيء مزعج ، ويكفي . والسر في ستر هذا . انه لو كشفت حقائقه خف مقدار تعظيمه» «٩٥» .

«٨٨» نفس المصدر : ص ٣٧٦ ، ٣٨٠ .
«٨٩» المنتظم : ج ١٠ ، ص ٢٨٦ . ابن رجب ، الذيل ، ج ١ ص ٤٣٣ .
«٩٠» سبط ، مرآة ، ج ٨ ص ٣٥٠ — ٣٥١ .
«٩١» الذهبي ، تاريخ ، مخطوطة مكتبة المتحف البريطاني ورقة ١٣ .
«٩٢» نفس المصدر ، ورقة ٦٣ — ٦٤ .
«٩٣» صيد ، ص ٥٧ ، ٧٩ — ٨٠ ، ٧٨ ، ٦٣ ، ١٧٨ .
«٩٤» تلبيس ، ص ٨٤ .
«٩٥» المصدر السابق ، ص ٥٦ .

ان خوض ابن الجوزى في هذه القضايا المذهبية جلب عليه نقمة اصحاب المذاهب الاخرى ويبدو انه لم يكن يبالي في اول الامر فقد «قيل له مرة : قلل من ذكر اهل البدع مخافة الفتن فانشد :

اتوب اليك يارحمن مما جنيت فقد تعاظمت الذنوب
واما من هوى ليلى وحبي زيارتها ، فاني لا اتوب «٩٦»

وقد جرت بينه وبين «ارباب الولايات» عداواة بسبب الاعتقاد المذهبي ممن «يميل الى مذهب الاشعري » ومن يميل الى مذهب الروافض» «٩٧» ويبدو ان الوزير ابن هبيرة كان حاميه في هذه العداوة فلما مات سعي به الى الخليفة «٩٨» . فالجوزى اذن لم يكن مخاصما للروافض فحسب بل للاشاعرة ومن يميل اليهم او يسندهم من الشافعية «٩٩» .

وعلى الرغم من تأكيد ابن الجوزى على ضرورة السير على «طريق السلف» الاانه كان يأخذ بما قاله احمد بن حنبل « من ضيق علم الرجل ان يقلد في دينه الرجال فلاينبغي ان تسمع من معظم في النفوس شيئا في الاصول فتقلده فيه » «١٠٠» ومن هذا المنطلق وجه ابن الجوزى هجومه على التقليد ورفضه كمنهج له في الحياة ، بل نجده وصف المقلد بانه اعمى «١٠١» وان التقليد من شأن العوام «١٠٢» واعتبر التقليد بانه «من اقبح النقص» ويرى ان من «قويت همته رقته الى ان يختار لنفسه مذهبا ولا يتمذهب لاحد»«١٠٣» .

ان آراء الجوزى لم تجلب عليه نقمة المذاهب الاخرى فحسب بل حتى رفاقه الحنابلة الذين وقف يدافع عنهم ويوضح عقيدتهم . بل ان كلامه في

«٩٦» ابن الجوزى ، زاد المسير في علم التفسير ، الطبعة الاولى « دمشق ١٩٦٤ » ج ١ ص ٢٥

«٩٧» صيد ، ص ١٧٨ .

«٩٨» المنتظم ج ١٠ ، ص ٢١٣ — ٢١٤ .

«٩٩» نفس المصدر ، ج ١٠ ص ٢١٧ — ٢١٨ ، وهامش رقم «١» في نفس الصفحة .

«١٠٠» صيد ، ص ٩٣ ، وانظر ايضا ص ٨٥ .

«١٠١» نفس المصدر ، ص ١٨٣ — ١٨٤ .

«١٠٢» تلبيس ص ٧٩ — ٨٠ .

«١٠٣» صيد ، ص ١٢٨ .

وعظه كان السبب في رفع شأن المذهب لدى السلطان «١٠٤» الا انه لم يكن متعصبا في الاعتقاد كالحنابلة وكان يفسح مجالا لحرية الرأى في فكره، ومعارضته للتقليد فنجده يخالف صاحب مذهبه احمد بن حنبل في امور يقول فيها «ومنعني الدليل من اتباعه في هذا» «١٠٥» ويصف لنا ماجرى له مرة مع اصحابه من الحنابلة اذ سئل «هل في مسند احمد ماليس بصحيح؟» فقال: «نعم. فعظم ذلك على جماعة ينسبون الى المذهب» وكتبوا فتاوى «يعظمون هذا القول، ويردونه ويقبحون قول من قاله» «١٠٦».

ان النقمة على ابن الجوزى جاءت عن طريق اتهامه بالتأويل فيذكر لنا احد الحنابلة من ان «الذي من اجله نقم جماعة من مشايخ اصحابنا «الحنابلة» وأئمتهم من المقادسة والعلثيين — من ميله الى التأويل في بعض كلامه، واشتد نكيرهم عليه في ذلك ولاريب ان كلامه في ذلك مضطرب مختلف. وهو، وان كان مطلعا على الاحاديث والاثار في هذا الباب، فلم يكن خبيرا بحل شبهة المتكلمين وبيان فسادها» «١٠٧» ويتبين لنا من بين هؤلاء المقادسة الذين انتقدوا الجوزى هو الشيخ موفق الدين المقدسي الحنبلي الذي يقول «اننا لم نرض تصانيفه في السنة ولا طريقته فيها» «١٠٨» وقد انتقد الجوزى ايضا من قبل الذهبي اذ اتهمه بانه «يوما اشعرى ويوما حنبلي» ويتابع الذهبي بان «تصانيفك تنبيء بذلك فما رأينا الحنابلة براضين بعقيدتك ولا الشافعية» «١٠٩» وفي مكان اخر ينتقده ايضا حيث يقول «وكلامه في السنة مضطرب تراه في وقت سنيا وفي وقت متهجما محرفا للنصوص» «١١٠» واتهم الجوزى ايضا

«١٠٤» المنتظم، ج ١٠ ص ٢٨٤.
«١٠٥» المصدر السابق، ص ٦٦.
«١٠٦» نفس المصدر السابق، ص٢٤٥.
«١٠٧» ابن رجب، الذيل، ج ١ ص ٤١٤، ابن العماد، شذرات، ج ٤ ص ٣٣١
«١٠٨» نفس المصدر والصفحة.
«١٠٩» الذهبي، تاريخ الاسلام، مخطوطة في البودليان — اوكسفورد ورقة ١٢٠ — ١٢١
«١١٠» نفس المصدر، ورقة ١٢٣.

بالتشبيه الا انه يرد على ذلك معلنا ان «من ادعى علينا التشبيه فالله يقابله . مذهبنا مذهب احمد . . . وطريقنا طريق الشافعي . . . ونرفض قول جهم» «١١١» ، وفي مكان اخر يؤكد بقوله «اعتمادي على السنة والقرآن ، واعتقادي اعتقاد فقهاء البلدان ، واورد الصحيح في نقلي» «١١٢» ، ويؤكد كذلك بانه يتبع « طريق السلف » «١١٣» .

ويبدو انه قد ضاق ذرعا من اصحابه الحنابلة وانتقاداتهم الى درجة جعلته يقول : «والله لولا احمد «ابن حنبل» والوزير ابن هبيرة لانتقلت عن المذهب فاني لو كنت حنفيا او شافعيا لحملني القوم على رؤوسهم» «١١٤» . وفي النهاية يبدو انه وجد ان كشفه لارائه المذهبية كان عملا خاطئا لذا نجده يشير الى انه «ينبغي كتم المذاهب ، فانه مايربح مظهرها الا بالمعاداة» «١١٥» .

وعظـــــه :

لقد مارس الوعاظ والمذكرون نشاطا قويا خلال العصور الاسلامية على الاخص في فترة الصراعات المذهبية التي شهدها العراق في الفترة السلجوقية ، لذا فلا غرابة من ان يكون فن الوعظ من اول المعارف التي تلقنها الجوزى ففي سنة ٥٢٠ هـ حمل وهو «صغير السن» حينذاك الى ابي القاسم علي بن يعلي العلوي فلقنه «كلمات من الوعظ» حفظها الجوزى ثم تكلم بها من على المنبر امام جمع غفير من الناس «١١٦» . لقد صحب الجوزى الكثير من الوعاظ وسمع منهم «١١٧» .

«١١١» الجوزى ، رؤوس القوارير ص ١٤ .

«١١٢» نفس المصدر ص ١١ ، صيد ص ١٠١ ، وانظر هجومه على المشبهة والمعطلة في رؤوس القوارير ص ١٣ .

«١١٣» صيد ، ص ٦٣ ، ٨٠ ، ٨٥ – ٨٦ .

«١١٤» سبط ، مرآة ج ٨ ص ٣٢٦ .

«١١٥» المصدر السابق ، ص ٢٢٣ .

«١١٦» المنتظم ، ج ٩ ص ٢٥٩ ، ج ١٠ ص ٣٢ ، ابن رجب ، الذيل ج ١ ص ٤١١ .

«١١٧» المنتظم ، ج ١٠ ص ٣٢ ترجمة الزاغوني .

يعتبر ابن الجوزى من وعاظ العامة من اهل بغداد ، وكان يرى «ان انفع ما للعامي مجلس الوعظ ، يرده عن ذنب ويحركه الى توبة» «١١٨» ، ولفترة ليست بالقصيرة اصبح ابن الجوزى من وعاظ السلاطين حيث نجد الخليفة وامه ووزراءه وكبار رجال دولته من بين مستمعيه «١١٩» . بل نجده في كتاباته يقدم النصائح للوعاظ في كيفية وعظهم السلاطين «١٢٠» .

لقد كان اهتمام ابن الجوزى بخطبه الوعظية شديدا حيث اورد لنا في المنتظم تفصيلات عن مجالس وعظه ويوردها احيانا كاول خبر من احداث السنة التي يدونها «١٢١» .

ان جميع خطبه الوعظية كانت قد القيت في بغداد في جامع المنصور وجامع القصر وجامع الرصافة وعند قبر معروف الكرخي وفي محلة باب البصرة ومحلة نهر المعلى ومحلة الحربية ومحلة باب بدر بدار الخلافة «١٢٢» اضافة الى الخطبتين اللتين القاهما في الحرم بمكة اثناء حجه سنة ٥٥٣ هـ «٢٢٣»

لقد وصف ابن الجوزى بانه امام اهل عصره في الوعظ «١٢٤» ووصفت مجالس وعظه ايضا بانها «لم يكن لها نظير ، ولم يسمع بمثلها ، وكانت عظيمة النفع ، يتذكر بها الغافلون ويتعلم منها الجاهلون ، ويتوب فيها المذنبون ، ويسلم فيها المشركون » «١٢٥» . وقد حفظ لنا الرحالة ابن جبير عند زيارته

« ١١٨ » صيد ، ص ٧٨ .

« ١١٩ » المصدر السابق ، ج ١٠ ص ٢٦٣ — ٢٦٤ ، ابن رجب ، الذيل ج ١ ص ٤٠٩ .

« ١٢٠ » صيد ، ص ٣٣٤ — ٣٣٥ .

« ١٢١ » المنتظم ، ج ١٠ ص ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ — ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ — ٢٧٢ ، ٢٨٣ — ٢٨٥ .

« ١٢٢ » نفس المصدر ج ١٠ ص ٣٠ — ٣١ .

« ١٢٣ » نفس المصدر ج ١٠ ص ١٨٢ .

« ١٢٤ » ابن العماد ، شذرات ج ٤ ص ٣٣١ .

« ١٢٥ » ابن رجب ، الذيل ج ١ ص ٤١٠ ، ٤١٣ .

بغداد سنة ٥٨٠ هـ وصفا دقيقا لبعض مجالس الجوزى ومما جاء فيه «فشاهدنا هولا يملأ النفوس انابة وندامة ، ويذكرها هول يوم القيامة . . . فسبحان من خلقه عبرة لاولي الالباب ، وجعله لتوبة عباده اقوى الاسباب» «١٣٦» .

لقد وقف الجوزى موقف المدافع عن والمنتقد للوعاظ «١٢٧» اذ ينتقد بعض الفقهاء لازدرائهم الوعاظ وعدم حضورهم مجالسهم بحجة انهم قصاص ، وقد رد الجوزى عليهم بأن «القصاص لا يذمون من حيث «تسميتهم قصاص» وانما ذم القصاص لان الغالب منهم الاتساع بذكر القصص دون ذكر العلم المفيد ، ثم غالبهم يخلط فيما يورده ، وربما اعتمد على ماا كثره محال ، فاما اذا كان القصص صدقا ويوجب وعظا فهو ممدوح » «١٢٨» ويواصل نقده لهم قائلا «والالحان التي اخرجوها اليوم » في قرا آتهم مشابهة للغناء فهي الى التحريم اقرب منها الى الكراهة ولان الواعظ ينشد بتطريب اشعار المجنون وليلى مع تصفيق بيديه وايقاع برجليه كالسكران ويعيبهم لانشادهم اشعار النوح والبكاء ، ووضعهم احاديث الترغيب مؤكدا ان اكثر كلامهم في موسى والجبل وزليخة ويوسف . ومن جملة انتقاداته ايضا ان منهم من يحث على الزهد وقيام الليل ولا يبين للعامة المقصود فربما تاب الرجل منهم وانقطع الى زاوية او خرج الى جبل فبقيت عائلته لاشيء لهم وانهم يخلطون في مجالسهم الرجال والنساء كما وانتقدهم لاخذهم المعاشات من الامراء والظلمة واصحاب المكوس والتكسب في البلدان «١٢٩» . وهنا يرى الجوزى ان انحطاط صناعة الوعظ جاءت بسبب الوعاظ انفسهم حيث «كان الوعاظ في قديم الزمان علماء فقهاء . . . . ثم خست هذه الصناعة فتعرض لها الجهال فبعد عن الحضور عندهم المميزون من الناس وتعلق بهم العوام والنساء ، فلم يتشاغلوا

« ١٢٦ » ابن جبير ، رحلة ، «ليدن ١٩٠٧ » ص ٢٢٠ — ٢٢٥» ، اما عن اعداد من تابوا وقصت شعورهم فانظر : صيد ، ص ٢٦ ، ١٩٢ ، ابن رجب ، الذيل ج ١ ص ٤١٠

« ١٢٧ » لقد الف ابن الجوزى كتابا دعاه «القصاص والمذكرين » .

« ١٢٨ » تلبيس ، ص ١٢٠ .

« ١٢٩ » نفس المصدر ، ص ١٢٠ — ١٢٢ ، صيد ص ٦٦ — ٦٧ .

بالعلم واقبلوا على القصص وما يعجب الجهلة » «١٣٠» .

مؤلفـــاتـــه :

لقد اوضحنا مسبقا مقدار شغف الجوزى بالعلوم وتحصيلها وضرورة التصنيف فيها فيقول «ان نفع التصانيف اكثر من نفع التعليم بالمشافهة ، لاني اشافه في عمرى عددا من المتعلمين واشافه بتصنيفي خلقا لاتحصى ماخلقو بعد .... فينبغي للعالم ان يتوفر على التصانيف ان وفقللتصنيف المفيد»«١٣١».

وبالفعل فقد خصص الجوزى جزءا كبيرا من وقته للتصنيف وقد وصف بانه « كان مكثرا من التصانيف . . . وربما كتب في الوقت الواحد في تصانيف عديدة . ولولا ذلك لم يجتمع ل هذه المصنفات الكثيرة » «١٣٢»ووصف ايضا بانه كان « يكتب في اليوم اربع كراريس ويرتفع له كل سنة من كتابته مابين خمسين مجلدا الى ستين» «١٣٣» ويرى ابن خلكان ان نشاط ابن الجوزى في التأليف قد بولغ فيه فينقل لنا ماقيل من «انه جمعت الكراريس التي كتبها «ابن الجوزى» وحسبت مد عمره وقسمت الكراريس على المدة فكان ماخص كل يوم تسع كراريس ويعقبابن خلكان على ذلك بقوله «وهذا شيء عظيم لايكاد يقبله العقل»«١٣٤»

بدأ ابن الجوزى تصانيفه وتآليفه وله من العمر ثلاث عشرة سنة ويذكر لنا بأن اولها كان ثبت التصانيف المتعلقة بالقرآن والعلوم «١٣٥» وعلى الرغ من تجربته المبكرة هذه فانه يرى ضرورة «اغتنام التصنيف في وسط العمر لان اوائل العمر زمن الطلب واخره كلال الحواس . وربما خان الفهم والعقل من قدر عمره » ويوضح ذلك اكثر عندما يحدد « زمان الطلب والحفظ

« ١٣٠ » تلبيس ، ص ١٢٠ ، صيد ص ٧٨ .

« ١٣١ » نفس المصدر ، ص ١٨٥ — ١٨٦ .

« ١٣٢ » ابن رجب ، الذيل ج ١ ص ٤١٤ ، ٤١٥ .

« ١٣٣ » ابن العماد ، شذرات ، ج ٤ ص ٣٣٠ ، ابن رجب ، الذيل ١ ص ٤١٢ .

« ١٣٤ » ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٢ ص ٣٤٣ .

« ١٣٥ » ابن رجب ، الذيل ، ج ١ ص ٤١٦ .

والتشاغل الى الاربعين ، ثم يبتدأ بعد الاربعين بالتصانيف والتعليم . هذا اذا كان قد بلغ «الشخص» مايريد من الجمع والحفظ واعين على تحصيل المطالب فاما اذا قلت الالات عنده من الكتب او كان في اول عمره ضعيف الطلب فلم ينل مايريده في هذا الاوان ، اخر التصانيف الى تمام خمسين سنة . ثم ابتـدأ بعـد الخمسين في التصنيف والتعليـم الى رأس الستين ثم يزيد فيما بعد الستين في التعليم ويسمع الحديث والعلم ويعلل التصانيف الى ان يقع مهم الى رأس السبعين ، فاذا جاوز السبعين جعل الغالب عليه ذكر الاخرة والتهيؤ للرحيل » «١٣٦» .

في الواقع ، يعتبر ابن الجوزى من اخصب المؤرخين المسلمين انتاجا فقد ترك لنا مؤلفات عديدة ومتنوعة ، اذ «لم يترك فنا من الفنون الاوله فيه مصنف» «١٣٧» فله في التاريخ والسير «المناقب» والحديث ، والتفسير ، والفقه

«١٣٦» صيد ، ص ١٨٦ .

«١٣٧» المصدر السابق ، ج ١ ص ٤١٢ — ٤١٤ ، ابن العماد ، شذرات ، ج ٤ ص ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٨ . لقد ذكر الجوزى عن نفسه بانه صنف «مائة كتاب» لفتة ص ٨٨ ، وروى عنه انه قال « زيادة على ثلثمائة واربعين مصنفا » شذرات ج ٤ ص ٣٣١ ، ابن رجب ، الذيل ج ١ ص ٤١٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٨ . وقد عدد ابن تيمية مصنفاته وقال « فرأيتها اكثر من الف مصنف . ورأيت بعد ذلك مالم اره » ابن رجب ، الذيل ج ١ ص ٤١٥ ، وقد ذكر سبط بن الجوزى بان جده الف مائتين وخمسين كتابا ، مرآة الزمان ج ٨ ص ٤٨٨ ، وقد عني مؤخرا الاستاذ عبد الحميد العلوجي بمؤلفات ابن الجوزى ويعتقد « ان المسرد العام لمؤلفات ابن الجوزى يدور مع اكثر من اربعمائة كتاب استقر منها مخطوطا اكثر من ١٣٩ كتابا في خزائن الكتب الشرقية والغربية المنتشرة في اوربا وامريكا والاتحاد السوفيتي والوطن العربي وايران والهند وتركيا . وضاع اكثر من ٢٣٣ كتابا » العلوجي : مؤلفات ابن الجوزى « بغداد ١٩٦٥ » ص ٥ .

ان احجام هذه المصنفات مختلفة فقد روى انه قال « منها عشرون مجلدا ومنها ماهو كراس واحد » ابن رجب ، الذيل ، ج ١ ص ٤١٣ ، وانظر كذلك لفته الكبد ص ٨٨ حيث يذكر بان احجام كتبه تتراوح بين عشرين مجلدا كالمنتظم والتفسير وبين مجلدين كلقط المنافع في الطب ، ابن رجب ، الذيل ج ١ ص ٤٢١ .

والزهد، والاخلاق، والوعظ، واللغة، والادب ، والنحو ، والجغرافية ، والطب
وفي نصيحته لابنه اورد الجوزي رأيه في بعض كتبه التي ألفها في ذلك الوقت فيقول : « وعليك بكتاب منهاج المريدين فانه يعلمك السلوك فاجعله جليسك ومعلمك وتلمح كتاب صيد الخاطر فانك تقع بواقعات تصلح لك امر دينك ودنياك ، وتحفظ كتاب جنة النظر ، فانه يكفي في تلقيح فهمك للفقه . ومتى تشاغلت بكتاب الحدائق اطلعك على جمهور الحديث ، واذا التفت الى كتاب الكشف ابان لك مستور مافي الصحيحين من الحديث . ولا تتشاغل بكتب التفاسير التي صنفها الاعاجم ، وما ترك المغني وزاد المسير لك حاجة في شيء من التفسير . واما ماجمعته لك من كتب الوعظ فلا حاجة لك بعدها الى زيادة اصلا» «١٣٨» .

وقد قيمت معلومات ابن الجوزى من خلال تآليفه «فكان في التفسير من الاعيان، وفي الحديث من الحفاظ ، وفي التاريخ من المتوسعين . ولديه فقه كاف . واما السجع الوعظي فله فيه ملكة قوية ان ارتجل اجاد ، وان روى ابدع » «١٣٩» . ومع هذا فان تصانيفه في السنة وطريقته فيها لم تكن مقبولة من قبل البعض كما ذكرنا سابقا وقد ابدى ابن تيمية اعجابه الشديد بتصانيفه في الحديث واخبار الاولين «١٤٠» ومن جهة اخرى فنجد ان الذهبي مع تثمينه لابن الجوزى في تبحره «في العلوم وكثرة اطلاعه وسعة دائرته » ينتقده بانه «لم يكن مبرزا في علم من العلوم وذلك شأن كل من فرق نفسه في بحور العلوم ومع انه كان مبرزا في التفسير والوعظ والتاريخ ومتوسطا في الحديث له اطلاع تام على فنونه واما الكلام على صحيحه وسقيمه فما له فيه ذوق المحدثين ولا نقد الحفاظ المبرزين فانه كثير الاحتجاج بالاحاديث الضعيفة مع كونه كثير السباق لتلك الاحاديث في الموضوعات » «١٤١»

«١٣٨» لفتة ، ص ٨٩ .

«١٣٩» ابن رجب ، الذيل ج ١ ص ٤١٢ .

«١٤٠» نفس المصدر ، ج ١ ص ٤١٦ ، لقد احصى العلوجي مايقرب من عشرين كتابا في المناقب، انظر : العلوجي ، مؤلفات ابن الجوزى ، ص ٢٨٣ — ٢٨٤ .

«١٤١» الذهبي ، تاريخ الاسلام ، مخطوطة البودليان — اوكسفورد ورقة ١٢٣ .

ويذهب الذهبي اكثر في انتقاده للجوزي مخاطبا اياه «فانت لاينبغي ان يطلق عليك اسم الحفظ «حافظ» باعتبار اصطلاحنا بل باعتبار انك ذو حافظة وعلم واسع وتفوق كثير واطلاع عظيم . . . » «١٤٢» .

لقد انتقد ابن الجوزي كذلك بسبب «كثرة اغلاطه في تصانيفه» وسبب هذه الاغلاط هو اكثاره من التصنيف فكان «. . . يصنف الكتاب ولايعتبره بل يشتغل بغيره . وربما كتب في الوقت الواحد في تصانيف عديدة . ومع هذا فكان تصنيفه في فنون في العلوم بمنزلة الاختصار من كتب في تلك العلوم» «وكانت اكثر علومه يستفيدها من الكتب ولم يحكم ممارسة اهلها فيها»، «فينقل من التصانيف من غير ان يكون متقنا لذلك العلم من جهة الشيوخ والبحث ، ولهذا نقل عنه انه قال : انا مرتب ، ولست بمصنف» «١٤٣» .

ويبدو ان وصف ابن الجوزي لنفسه بانه مرتب ينسجم مع تقييم ابن تيمية فيما بعد من انه «حسن الترتيب والتبويب قادر على الجمع والكتابة» «١٤٤» ويوضح لنا الجوزي رأيه بالتصنيف قائلا : «ليس المقصود «بالتصنيف» جمع شيء كيف كان . وانما هي اسرار يطلع الله عز وجل من شاء من عباده ويوفقه لكشفها . فيجمع ما فرق او يرتب ماشتت او يشرح مااهمل ، هذا هو التصنيف المفيد » «١٤٥» .

واذا اخذنا بهذا التعريف فالجوزي مصنف ايضا وليس بمرتب فقط . لقد اوردنا مسبقا بعض الدوافع العامة التي كانت تدفع الجوزي للتأليف ويمكن ان نضيف هنا ما قيل من انه كان اذا رأى تصنيفا واعجبه صنف مثله في الحال . وان لم يكن قد تقدم له في ذلك الفن عمل ، لقوة فهمه وحدة ذهنه . فربما صنف لاجل ذلك او نقيضه بحسب مايتفق له من الوقوف على تصانيف من تقدمه » «١٤٦» وعلى سبيل المثال فأنه الف كتابه تلقيح فهوم اهل الاثر

«١٤٢» نفس المصدر ، ورقة ١٢٠ — ١٢١ وانظر السخاوي ، الاعلان بالتوبيخ ص ١١١ .
«١٤٣» ابن رجب ، الذيل ج ١ ص ٤٠٣ ، ٤١٤ .
«١٤٤» نفس المصدر ، ج ١ ص ٤١٦ .
«١٤٦» المصدر السابق ، ج ١ ص ٤١٥ .
«١٤٧» ابن خلكان ، وفيات ، ج ٢ ص ٣٤٣ .

ورتبه « على وضع كتاب المعارف لابن قتيبة» «١٤٧» كما وانه «بنى كتابه في الموضوعات » على كتاب الموضوعات للحسين بن ابراهيم الجوزقاني «ومنه اخذ كثيرا » «١٤٨» ويمكن ان يقال نفس الشيء على كتابه صفة الصفوة وعلاقته بكتاب حلية الاولياء لابي نعيم الاصفهاني ومن جهة اخرى نجد ان ابن الجوزى جمع ما اعتقده غلطا في كتاب الاحياء للامام الغزالي وسماه اعلام الاحياء لاغلاط الاحياء «١٤٩» اما عن سبب تأليفه لكتابه ذم الهوى فيقول: «انظر فيما تكلم به الحكماء في العشق واسبابه وادويته وصنفت في ذلك كتابا سميته بذم الهوى» « ١٥٠ » ومن اجل التحذير من مكايد ابليس وليدلل على مصايده الف الجوزى كتابه تلبيس ابليس «١٥١» .

وخلال الفترة التي اصبح فيها الجوزى مقربا من بلاط الخليفة وكبار موظفيه نجد ان دوافع تأليفه تكون احيانا سياسية وتعكس المناسبات فعندما اسقطت الخلافة الفاطمية وذكر اسم الخليفة العباسي على منابر مصر في سنة ٥٦٧هـ الف الجوزى كتابه النصر على مصر وعرضه على الامام المستضيء «١٥٢» كما والف لنفس الخليفة كتابه «المصباح المضيء في خلافة المستضيء» «١٥٣»

واخيراً، فقد كانت لابن الجوزى رغبة باختصاره لكتبه او كتب غيره كاختصاره لكتابه نزهة العيون النواضر في الوجوه والنظائر «١٥٤» واختصاره

« ١٤٨ » الذهبي ، تاريخ الاسلام ، مخطوطة البودليان — اوكسفورد ورقة ٧٣ .

« ١٤٩ » المنتظم، ج ٩ ص ١٦٩ ، سبط مرآة، مخطوطة المكتبة الوطنية، بباريس، ورقة ٢٦٩ .

« ١٥٠ » صيد ، ص ٨١ .

« ١٥١ » تلبيس ، ص ٤ ، يقول ابن غانم الذي الف ردا على كتاب الجوزى « التلبيس » ودعاه تفليس ابليس «اني اطلعت على كتاب تلبيس ابليس فوجدته بئس الجليس وهو من الكتب التي لا ينبغي ان ينظر فيها » سبط، مرآة، مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس ورقة ٢٦٩ .

« ١٥٢ » المنتظم ، ج ١ ص ٢٣٧ .

« ١٥٣ » العلوجي ، ، مؤلفات ابن الجوزى ص ١٦٨ .

« ١٥٤ » ابن رجب ، الذيل ج ١ ص ٤١٦ .

لكتابه المنتظم والذي سماه بشذور العقود في تاريخ العهود «١٥٥» .

تدوينــــه للتاريــــخ :

لقد كانت العوامل الدينية اولى الاسباب لنشوء علم تدوين التاريخ في الاسلام لذلك فاننا نجد معظم من عنوا بالتدوين التاريخي من المسلمين حتى منتصف القرن الرابع الهجري كانوا علماء دين او محدثين ، ولكن منذ منتصف الرابع الهجري نجد «ان تدوين التاريخ السياسي اصبح في الغالب مهمة الموظفين والمقربين من البلاط . وقد اثر هذا التغيير في الشكل والموضوع والروح على السواء» «١٥٦» . ومن جملة هذه التغييرات هو ان التاريخ بعد «ان كان يتخذ المسوغ الديني سبباً لوجوده ، اخذ حينئذ يتذرع بمسوغ اخر وهو القيمة الاخلاقية لدراسته اي انه يخلد ذكر الاعمال الصالحة والسيئة لتكون عبرة للاجيال المقبلة »«١٥٧» .

ونجد ان ابن الجوزي في كتاباته التاريخية يجمع بين المسوغ الديني والمسوغ الاخلاقي كسبب للعناية بالتاريخ ، فيجعل للسير والتواريخ فوائد كثيرة اهمها فائدتان :

«احداهما انه ان ذكرت سيرة حازم ووصفت عاقبة حاله افادت حسن التدبير واستعمال الحزم او «ان ذكرت» سيرة مفرط ووصفت عاقبته افادت الخوف من التفريط ، فيتأدب المتسلط ويعتبر المتذكر ويتضمن ذلك شحذ صوارم العقول ، ويكون روضة للمتنزه في المنقول .

والثانية ان يطلع بذلك على عجائب الامور وتقلبات الزمن وتصاريف القدر وسماع الاخبار .... وقال ايضاً في اول شذور العقود في تاريخ العهود الذي اختصره «من المنتظم» ان التواريخ وذكر السير راحة القلب وجلاء الهم وتنبيه للعقل ، فانه ان ذكرت عجائب المخلوقات دلت على عظمة الصانع

«١٥٥» نفس المصدر ، ج ١ ص ٤١٨ ، والعلوجي ص ٢٧٩ — ٢٨٠ .

«١٥٦» جب ، دراسات في حضارة الاسلام ، ص ١٥٨ .

«١٥٧» نفس المصدر ، ص ١٥٩ .

وان شرحت سيرة حازم علمت حسن التدبير وان قصصت قصة مفرط من اهمال الحزم وان وصفت احوال ظريف اوجبت التعجب من والتنزه فيما يشبه الاسمار» «١٥٨» .

ان الاهداف التي يضعها ابن الجوزي للتاريخ تجمع بين نظرة الم الموظفين والمقربين من البلاط وبين نظرة المحدثين ورجال الدين، فابن اذن يمثل مرحلة جديدة عاد فيها المحدثون ورجال الدين الى حظيرة في التاريخ السياسي، لذلك فهو في كتابه المنتظم يعنى بتدوين الاحدا الطابع السياسي والديني خصوصاً التراجم .

ان هذا التغيير في محتويات واهداف التاريخ الذي نجده يع التبدل الذي اصاب ثقافة العصر الذي عاشه ابن الجوزي. في الحقيقة ا التبدل يمكن ارجاعها الى ما قبل عصر الجوزي وبصورة دقيقة يمكن الى بدء دخول السلاجقة العراق اذ رافقهم في ذلك انتعاش مبادىء وانتشار دور الثقافة السنية كالمساجد المختلفة ومدرسة ابي حنيفة والمدارس والمدرسة التاجية...«١٥٩». لقد كانت هذه المراكز الثقافية تخرج ال المثقفين ثقافة دينية — دنيوية والمؤهلين لاملاء الكثير من المناصب الرسـ الرسمية، ومن بين هؤلاء برز معظم مؤرخي العراق في العصر السلجوقي الى ذلك ان قوة الخلافة العباسية — ظاهرياً على الاقل ومن ثم الصرا جرى بين الخليفة والسلطان السلجوقي والذي ادى الى استقلال العر السلاجقة كان له دوره في انتعاش تدوين التاريخ السياسي للعراق مؤرخين ذوي حديث وفقه امثال الخطيب البغدادي، ابي علي ابن ابي شجاع الذهلي، ابي الوفاء بن عقيل، ابي الحسن الزاغوني، وابي الفرج بن ابن الحداد...

«١٥٨» السخاوي ، الاعلان ص ٤٤ .

Makdisi, "Muslim istitutions of learning in eleventh century Baghdad." BSOAS, XIV, I (1961).

لقد ترعرع ابن الجوزي في ذلك الجو الثقافي بل وتتلمذ على معظم اولئك
رخين ذوي الحديث والفقه.وتمشياً مع الاهداف التي وضعها الجوزي
ريخ فانه ينتقد مقاصد المؤرخين الذين سبقوه اذ يقول ان منهم «من يقتصر
ى ذكر الابتداء ومنهم من يقتصر على ذكر الملوك والخلفاء،واهل الاثر
ثرون ذكر العلماء،والزهاد يحبون احاديث الصلحاء،وارباب الاداب
يلون الى اهل العربية والشعراء،ومعلوم ان الكل مطلوب والمحذوف من
اك مرغوب» «١٦٠» .

اذن فالجوزي يريد ان يجعل من كتابه جامعاً غير مقتصر على فترة
منية او جماعة معينين بحيث يجد فيه الكل ضالتهم .

يعتبر المنتظم «١٦١»،بصورة عامة من الكتب التي تبحث في التاريخ
عام مع تركيز شديد على تاريخ العراق ويشمل الكتاب بطبعته الحالية «صدر منه
حد الان الاجزاء من خمسة الى عشرة وطبع في حيدر آباد ـ الدكن» احداث
سنوات ٢٥٧ ـ ٥٧٤هـ ولذا فالاجزاء الغير منشورة تحتوي فترة ما قبل
لاسلام والى احداث سنة ٢٥٧هـ.واستناداً الى ما جاء في مقدمة كتاب شذور
لعقود الذي هو ملخص للمنتظم نستطيع ان نقول ان محتويات الاجزاء الغير
منشورة تبدأ بذكر شيء عن اول المخلوقات ثم معلومات عن الارض والمعادن
والاقاليم والجبال وعجائب الدنيا والجن والسماء والجنة والنار،ومن المحتمل
جداً ان يكون الجوزي قد تأثراو نقل من مروج الذهب للمسعودي «١٦٢».

«١٦٠» السخاوي ، الاعلان ، ص ٣٣٦ — ٣٣٧ .

«١٦١» لقد ورد عنوان الكتاب بالصور المختلفة التالية : المنتظم في التاريخ ، المنتظم في تواريخ الملوك والامم ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، المنتظم تواريخ الامم من العرب والعجم ، راجع اليافعي ، مرآة الجنان ، ج ٣ ص ٤٨٩ ، سبط ، مرآة ج ٨٤ ، ابن رجب ، الذيل ، ج ١ ص ٤١٨ ، طاش كوبرى زاده ، مفتاح السعادة ج ١ ص ٢٠٧ حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ ص١٦٦ ،ابن كثير، البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٢٨ .

«١٦٢» روزنثال ، علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة الدكتور صالح احمد العلي ص ١٥٣ .

وبعد ذلك يسلسل لنا الجوزي التاريخ حسب تتابع الانبياء من آدم الى شـ
وادريس ونوح وابراهيم...وموسى وعيسى ثم يذكر فصلا قصيراً«عن ملو
الفرس،واشارة مقتضبة عن وجود الامم الاخرى غير الاسلامية ثم ـ
الرسول الاول ثم هجرته»«١٦٣» ثم يتابع ذكر الاحداث حسب التقويم الهجر
ويعتبر المنتظم من حيث تنظيم المادة التاريخية من الكتب الحولية ا
تدون فيها الاحداث حسب التعاقب السنوي لها.يضاف الى ذلك انه يتم
عن نظام الحوليات الذي كان سائداً قبله بفصله التام بين «الحوادث» و
الوفيات التي حدثت في نفس العام.ان هذا الفصل لم يكن بالشيء الجديد تماما
اذ اننا نجد جذوره في تاريخ ابي طاهر طيفور «ت ٢٨٠ هـ»حيث انه«يو
في تاريخ بغداد اخبار وفيات مرتبة حسب السنين،يذكرها في نهاية حكم كـ
خليفة... غير ان البحث الثابت للتراجم بهذا الشكل الخاص يبدو وكأنه
مميزات ابن الجوزي» «١٦٤» .

يبدأ الجوزي عادة اخبار كل سنة بقوله«ثم دخلت سنة...»ويتبعها قائلا
«فمن الحوادث فيها...»ثم يستمر بسرده للحوادث،واحياناً يبتديء الخ
بقوله: «وفي هذه السنة....»او «وفيها»او يبتديء الخبر بذكر المصدر الذي استق
منه معلوماته مثلا انبأنا او اخبرنا.واحياناً اخرى يبتديء بذكر الشهر او اليو
الذي حدث فيه الحادث مثلا وفي ربيع الاخر...او وفي يوم السبت الثالث
والعشرين من جمادي.....

ايماناً منه بان دراسة التاريخ تشحذ صوارم العقول وان من يدرسه يجد
فيه راحة للقلب وجلاء للهم وتعرفاً على عجائب الامور،نجد ان الجوزي
يدون من الاحداث ما اعتقده مهما ومحققاً لنظرته في التاريخ،ولهذا فاخبار
تشمل احداثاً عن انقضاض النجوم،ظهور الكواكب المذنبة الخسوف والكسوف
الزلازل،التبدلات الجوية المفاجئة ،الفيضانات،المجاعات والاوبئة،حالة

«١٦٣» الجوزى، شذور العقود، مخطوطة – كمبردج ورقة ١ ، روزنثال،علم التاريخ
، ص ١٩٩ ، ص ٥١٤ .

«١٦٤» روزنثال ، علم التاريخ ، ص ١٩٨ .

الاسعار في الاسواق. فرض والغاء انواع الضرائب، النزاعات المذهبية، تعيينات الموظفين وعزلهم، اسماء قادة الحج، تولي الخلفاء الخلافة، التشهير، بامرأة تزوجت من رجلين في ان واحد، انتحار بعض الاشخاص، الولادات الغريبة، ثم ينهي احداث السنة بذكر الوفيات. وفي السنوات الاخيرة من المنتظم ٥٦١- ٥٧٤ هـ وعلى الاخص السنوات الخمس الاخيرة نجد ان الجوزي يتحدث كثيراً عن اخباره هو وخصوصاً مجالس وعظه وعلاقته بالسلطة.

على الرغم من اعتبارنا المنتظم من التواريخ العالمية الا انه في الواقع لم يعر اهتماماً بتواريخ الشعوب الاخرى كالاغريق او الهنود او الصينيين، والاكثر من ذلك انه حتى في فترته المعاصرة نجده لا يورد شيئاً عن تاريخ الاقطار المجاورة للعراق اللهم الا الشيء النزر والذي له اثر على العراق مثلا الفتك بالباطنية بدمشق سنة ٥٢٣هـ، او وصول الافرنج الى باب دمشق، او اخبار قتل الخليفة الفاطمي بمصر «١٦٥» او حروب السلاجقة وبعض احداثهم في مناطق ايران.

ان الاخبار التي يوردها الجوزي في المنتظم تختلف في الطول والقصر، فبينما يكون بعضها اقل من سطر واحد نجد بعضها الاخر يستغرق بضع صفحات. اننا لا نستطيع ان نبين السبب الذي دفع الجوزي لاطالة الخبر مرة واختصاره اخرى. الا اننا نستطيع ان نقول بانه لابد ان يكون لكثرة او قلة المعلومات المتوفرة لديه عن الخبر الواحد دخل في ذلك وقد تلعب الاهداف او الفوائد التي وضعها للتاريخ دوراً في ذلك. كما وان مجموع عدد الحوادث التي اوردها للسنين كان قليلا مرة وكثيراً اخرى. ان اختصاره للاحداث وترتيبه لها حسب السنة ثم الشهر واحياناً اليوم جعل ترتيب الكتاب اشبه بالمذكرات اليومية .

ان هذه الطريقة ليست من مبتكرات الجوزي بل اننا نجدها عند الاجيال السابقة من المؤرخين خصوصاً اولئك الذين ينتمون لطبقة كتاب الدواوين،

«١٦٥» المنتظم ، ج ١٠ ، ص ١٣ ، ١٥ .

ومن المحتمل انيكون النموذج المباشر الذي تأثر به الجوزي هو كتاب التاريخ لابي علي بن البناء «ت٤٧١ هـ» «١٦٦» .

لقد اوردنا مسبقاً بان الجوزي يقسم احداث السنة الواحدة الى قسمين رئيسيين: الاول «للاحداث» والثاني للوفيات . ويبدأ القسم الثاني عادة بعبارة «ذكر من توفي في هذه السنة من الاكابر»ثم يسلسل الوفيات حسب الحروف الهجائية.ان العناية بالتراجم لم تكن بالشيء الجديد فالتاريخ الاسلامي نشأ بسبب العناية بسيرة الرسول «ص» ومن ثم سيرة شخصيات الامة من الخلفاء والصحابة وتابعيهم.وقد اكد الجوزي بان في ذكر السير راحة للقلب وجلاء للهم وتنبيهاًللعقل.اذن فالمثل الاعلى في الاخلاق والسياسة هو في سير الاولين والصلحاء من رجال الامة .

لقد ترجم الجوزي في المنتظم لمختلف المشاهير من الناس بغض النظر عن صلاحهم او عدمه بل اننا نجده يترجم لمن وصفوا بالالحاد والزندقة كاحمد ابن يحيى الراوندي والذي خصص له الجوزي عدداً من الصفحات مبرراً ذلك بقول «وانما ذكرته ليعرف قدر كفره فانه معتمد الملاحدة والزنادقة» «١٦٧» .

تبدأ تراجمه عادة بذكر الاسم الكامل للشخص وفي حالات خاصة كالاشراف من الناس يذكر الجوزي نسب الشخص كاملا الى درجة يغلب على جميع المعلومات الاخرى «١٦٨» ، وبعد ذلك يذكر مسقط رأسه وهنا تأتي بعض المعلومات الجغرافية لتحديد مكان القرية التي ولد فيها «١٦٩» وعندما يترجم للعلماء فانه يهتم بذكر شيوخهم واحياناً يفصل اختصاص كل شيخ ممن درسوا المترجم له، كما ويذكر الاماكن التي زارها الشخص للدراسة

«١٦٦» لقد نشر الدكتور جورج مقدسي الجزء الصغير والمتبقي من هذا الكتاب في : Bulletin of the School of Oriental and African Studies, London , 1956-1957

«١٦٧» المنتظم ، ج ٦ ص ٩٩ — ١٠٥ .

«١٦٨» نفس المصدر ، ج ٩ ص ١٧٦ ، ج ١٠ ص ١٣ — ١٤ ، ٢٨ ، ٩٣ .

«١٦٩» نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢٠٠ ، ٢٣٩ ، ٢٦٢ ، ج ١٠ ص ٢٣ ، ٥٤ ، ٩٤ .

هنا توجه عناية خاصة لتثبيت زيارته لبغداد وتاريخها «١٧٠»،وشيء عن حلقات تدريسه ومكانها،وفي احوال اخرى يورد بعض المناظرات الكلامية والادبية التي جرت للمتوفى «١٧١» ثم ما الف من كتب «١٧٢».وقد تطول ترجمة الشخص بذكر نص رسالة كانت قد وجهت اليه من شخص آخر «١٧٣» و يورد نص خطبة لغوية او وعظية كان قد القاها الشخص في احد مساجد بغداد «١٧٤»

لم يكن ايراد الشعر في تراجمه مقصوراً على تراجم الشعراء فحسب بل كان يورده كتعبير عن ثقافة وبراعة الشخص الادبية،وقد سجل لنا الجوزي نماذج عديدة مما انشد المتوفى لابن الجوزي من شعر «١٧٥»،او ماروى عن المتوفى من شعر «١٧٦»،او ما قيل من شعر في المتوفى كرثاء «١٧٧» ،واحياناً قد لا تتجاوز ترجمة الشخص،الستة اسطر بينما يورد له قصيدة عدتها اكثر من خمسين بيتاً «١٧٨» وفي كثير من الاحيان يورد الجوزي معلومات عما قام به الشخص من اعمال بر وخير،ثم مقدار ما خلف من مال «١٧٩» ، وفي نهاية الترجمة يورد تاريخ الوفاة بالشهر او اليوم واحياناً كيفيتها خصوصاً اذا كانت عجيبة كالقتل مثلا «١٨٠» ثم مكان دفنه . وقد يورد ايضاً بعض القصص او الاحلام التي رئي فيها الشخص المتوفي تعكس كراماته «١٨١» .

«١٧٠» نفس المصدر ج ١٠ ص ١٩ ، ٣٣ ، ٥٤ ، ٨٤ ، ٩٤ .
«١٧١» نفس المصدر ج ١٠ ص ٥٣ ، ٩٩ .
«١٧٢» نفس المصدر ، ج ١٠ ص ٢١٢ .
«١٧٣» نفس المصدر ، ج ٩ ، ص ٢٠٨ — ٢١٢ .
«١٧٤» نفس المصدر ، ج ٩ ص ١٧٣ .
«١٧٥» نفس المصدر ، ج ١٠ ص ٢١ — ٢٢ .
«١٧٦» نفس المصدر ، ج ١٠ ص ٣٣ ، ٣٨ ، ٦٣ — ٦٤ ، ٧٦ ، ٩٢ ، ٢٧٦ — ٢٧٧ .
«١٧٧» نفس المصدر ، ج ٨ ص ٣٠١ — ٣٠٣ ، ج ١٠ ص ٢١٧ .
«١٧٨» نفس المصدر ، ج ٩ ص ١٩٠ — ١٩٣ .
«١٧٩» نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢١٩ .
«١٨٠» نفس المصدر ج ٩ ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

وغالباً ما يشير الجوزي في تراجمه الى العلاقات الخاصة التي تربط بالمترجم لهم كأن سمع منهم حديثاً او كتاباً معيناً او مقطوعة شعرية او اجاز لهم المتوفى بعض مسموعاته او حضر الجوزي مجلس وعظه او كان يزور وهو صبي «١٨٢»،او تتلمذا سوية او حضر مجلس وعظ الجوزي او كانت ل مكاتبات معه «١٨٣» كما وانه يهتم بايراد رأي مشايخه ـ خصوصاً رأي شيخه ابن ناصر ـ في المترجم لهم،ولو انه احياناً لا يوافقه فيه «١٨٤» على اية حال فان الجوزي في كثير من الاحوال لم يستطع التحرر من تعصبه المذهبي وميله الشخصي في تقييمه للاشخاص او في مناقشته لارائهم «١٨٥» وربما يكمن وراء هذا السبب في قصر بعض تراجمه وطول البعض الاخر «١٨٦» الا ان الميزة الواضحة ان تراجم بعض الكبار كالوزراء او استاذ دار الخليفة او صاحب المخزن تكون غالباً قصيرة «١٨٧»،اما تراجم الخلفاء فتذكر عادة في اول ولاية الخليفة للحكم وعادة يعنونها بقوله«باب ذكر خلافة....»اما في قسم الوفيات فانه يذكر عادة موجزاً عن حياة الخليفة يتناول فيه اسم الخليفة ومدة خلافته وعمره وشيئاً يسيراً جداً من سيرته .

مصـــادره :

١ـ ان ابن الجوزي كغيره من المؤرخين المسلمين يذكر لنا تارة بوضوح واخرى بغير وضوح مصادره التي اعتمد عليها،الا انه كثيراً ما ينقل دون

«١٨١» نفس المصدر ج ١٠ ص ٤٠ .

«١٨٢» نفس المصدر ج ١٠ ص ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٨٠ ، ٢١٢ .

«١٨٣» نفس المصدر ج ١٠ ص ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٨ ، ٢٤٨-٢٤٩ ، ٢٧٦ .

«١٨٤» نفس المصدر ، ج ١٠ ص ١٩ ، ٢٨ ، ٦٣ ، ٧٥ ، ٩٨ .

«١٨٥» نفس المصدر ، ج ١٠ ص ٨٠ ، ٢٢٤ ـ ٢٢٥ وانظر كذلك ابن الاثير . ج ١٠ ص ٤٥٠ ، ج ١١ ص ٢١٩ .

«١٨٦» المنتظم ج ٦ ص ١٦٨ ، ج ٨ ص ٢٥٢ ، ج ١٠ ص ٦٤ ، ٩٢ ، ٢١٩ ، ٢٦١ ـ

«١٨٧» نفس المصدر ، ج ٩ ص ٥١ ، ٥٤ ، ٥٩ ، ١٦٥ ، ١٦٨ ، ج ١٠ ص ٩ـ ١٠ ، ١٤ ، ٢٨ .

ان يذكر اي اشارة لمصدره ومما لاشك فيه انه اعتمد في تدوينه للتاريخ الجاهلي وللقرون الثلاثة الاولى للهجرة على الطبرى بالدرجة الاولى .

ان اعتماده على الطبرى لم يمنعه من الرجوع الى مصادر اخرى خصوصاً تاريخ العقود الاخيرة من القرن الثالث الهجري. ففي سنة ٢٩٦هـ ينقل فيها من كتاب ثابت بن سنان حيث يقول «ذكر ثابت بن سنان في تاريخه» «١٨٨» وكذلك في احداث سنة ٢٩٧هـ اذ يورد «قال ثابت بن سنان المؤرخ» «١٨٩» فالجوزي كما يبدو يعتمد على كتاب التاريخ لثابت بن سنان والذي الفه كذيل لتاريخ الطبرى .

٢ـ عندما يؤرخ الجوزي حركة القرامطة يورد معلومات مفصلة عنهم. وهناك تشابه كبير بين ما يورده وما يورده الطبري «١٩٠» ولكن بعض الاخبار التي يوردها الجوزي، خصوصاً تلك التي تتعلق بافكارهم وآرائهم المذهبية والسياسية ليس لها مشابه عند الطبري «١٩١»، ومن المحتمل جداً ان يكون الجوزي قد اعتمد على التنوخي او الصولي في معلوماته الاضافية. ففي نص مطول يسوقه الجوزي عن القرامطة يورد فيه مرتين بأن مصدره التنوخي «١٩٢» ولما كان الجوزي يذكر احياناً الصولي كمصدر له في موضوع اخر غير القرامطة «١٩٣» فمن المحتمل انه كان قد اطلع على بعض آراء الصولي في حركة القرامطة خصوصاً وان الاخير كان قد الف كتابا حول تاريخ القرامطة .

اما عن اخبار القرامطة في هجر فان كلا من الجوزي ومسكويه يذكران

«١٨٨» نفس المصدر ج ٦ ص ٨٠ — ٨١ .

«١٨٩» نفس المصدر ، ج ٦ ص ٨٩ .

«١٩٠» الطبرى ج ٣ القسم الرابع ص ٢١٢٤ — ٢١٣٠ ، ٢١٨٨ ، ٢١٩٢ ، ٢٢٥٥ — ٢٢٥٦ ، ٢٢٦٩ — ٢٢٧٣ . المنتظم ، ج ٥ ص ١١٠ — ١١٣ ، ج ٦ ص ١٨ ، ٢٤ ، ٤٣ ، ٥٦ ، ٥٩ — ٦٠ .

«١٩١» المنتظم ، ج ٥ ص ١١٠ — ١١١ ، ١١٣ — ١١٩ ، ج ٦ ص ١٢١ .

«١٩٢» نفس المصدر ، ج ٦ ص ٢٢٤ ، ٣٦١ .

«١٩٣» نفس المصدر ، ج ٥ ص ٦٦ ، ج ٦ ص ٢٩٦ .

تقريباً نفس الشيء ولكن الجوزي يبدو اكثر توسعاً في بعض الاحيان وتوسعه مصبوغ بوعظ ديني «١٩٤» .

٣ـ ومن بين المصادر الاخرى التي ذكرها الجوزي هو كتاب هلال الصابي الذي ما زال مفقوداً عدا ذلك الجزء الصغير الذي يتناول حوادث السنوات ٣٨٩ ــ ٣٩٣ والذي نشره H. F. Amedros في نهاية ذيل تجارب الامم لابي شجاع الروذراورى. وفي بعض الاحيان يورد الجوزي قائلا: «وروى هلال بن المحسن»«١٩٥» وفي احيان اخرى نجد ان الجوزي ينقل مرة حرفياً ومرة بتغيير جزئي من كتاب هلال الا انه لا يذكر اي اشارة الى انه اخذ منه «١٩٦» .ان الاختلاف الجزئي الذي نجده في نصوص ابن الجوزي ربما مرجعه الى انه كان ينقل من مرجع اخر كان قد اخذ بدوره من هلال ومن المحتمل ان يكون من ذيل تجارب الامم الذي الفه الروذراورى «١٩٧» .

٤ـ لقد اعتمد ابن الجوزي كثيراً على كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي «ت ٤٦٣ هـ» في الحصول على المعلومات لتراجم الاشخاص كما وانه اورد الكثير من الاخبار التي كان قد رواها الخطيب لابي منصور القزار الذي نقلها بدوره الى الجوزي «١٩٨» .

٥ـ كما واعتمد الجوزي على تاريخ ابي علي الحسن بن احمد بن البناء «ت ٤٧١ هـ»حيث يورد كثيراً عبارة «وقرأت بخط ابي علي بن البناء»«١٩٩»

«١٩٤» نفس المصدر ، ج ٦ ص ١٢١ ، مسكويه ، تجارب الامم ، ج ١ ص ٣٤ .

«١٩٥» المنتظم ، ج ٧ ص ٢٠ .

«١٩٦» ذيل تجارب الامم ، ص ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٧٢ ، ٣٩٢ ، ــ ٣٩٧ ، وانظر مايقابل ذلك من المنتظم ج ٧ ص ٢٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢١٥ ، ٢٢٢ .

«١٩٧» المنتظم ، ج ٦ ص ٣٨٤ ، ٣٩٥ ، ج ٧ ص ١٠٥ ، ٢٠٢ ــ ٢٠٣ الروذراوري ، ذيل تجارب الامم ، ص ١٢ ، ٣٠٥ ، مسكويه ، تجارب الامم ج ٢ ص ١٦٧ ، ١٧٧ .

«١٩٨» المنتظم ، ج ٨ ص ١٧ ، ١٨ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٤ ، ١٤٨ ، ١٨٨ .

«١٩٩» المنتظم ، ج ٨ ص ٢٤٨ ، ٣١٦ ، ٣١٩ .

لقد وصف بانه صنف في كل فن . «٢٠٠» لذا فنحن لا نستطيع ان نحدد من اي كتاب من كتب البناء استقى الجوزي معلوماته الا انه من المحتمل جداً انه اعتمد على كتاب البناء في التاريخ الذي قد ضاع معظمه الا ذلك الجزء اليسير الذي نشره الدكتور جورج مقدسي .

٦ــ ومن المصادر الاخرى التي يرد ذكرها في المنتظم ما الفه ابو الفضل أحمد ابن الحسن بن خيرون «ت ٤٨٨هـ» حيث يرد كمصدر لمعلومات الجوزي في بعض التراجم ،ومن المحتمل بان الجوزي اعتمد على كتاب ابن خيرون المعروف بـ «وفيات الشيوخ» «٢٠١» .

٧ــ ويرجع ابن الجوزي في المنتظم الى هبة الله بن المبارك بن يوسف السقطي «ت ٥٠٩هـ» كمصدر لمعلوماته فيذكره قائلا :«وذكر هبة الله بن المبارك... في تاريخه» وكذلك يذكره قائلا « ومن العجائب ما ذكره هبة الله» «٢٠٢».

٨ــ يعتبر ابو الوفا علي بن عقيل «ت٥١٣هـ» من مصادر ابن الجوزي المهمة فقد اعتمد كثيراً على مؤلفاته وخصوصاً على كتابه الفنون اذ يذكر سبط بن الجوزي قائلا«واختصر منه جدى عشر مجلدات فرقها في تصانيفه»«٢٠٣» لقد نقل الجوزي معلومات كثيرة تخص احداث السنوات اضافة الى اخبار واقوال تخص الوفيات وكثيراً ما يشير الجوزي الى ذلك قائلا«ونقلت من خط ابي الوفاء بن عقيل»او «ورأيت بخط ابي الوفاء» او« قرأت بخط ابي الوفاء» واحياناً اخرى «قال ابن عقيل » «٢٠٤» .

٩ــ كما ويرجع ابن الجوزى الى محمد بن عبد الملك الهمذاني «ت ٥٢١ هـ»

«٢٠٠» نفس المصدر ، ج ٨ ص ٣١٩ .

«٢٠١» المنتظم ج ٩ ، ص ٨٧ ، ١٣٩ ، ج ٨ ص ٢٦٥ .

«٢٠٢» نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢٥٢ ، ج ٩ ص ٧٢ ، ١٨٣ .

«٢٠٣» سبط ، مرآة ، ج ٨ ص ٨٤ .

«٢٠٤» المصدر السابق ، ج ٦ ص ١١٠ ، ١٠٥ ، ج ٩ ص ٤٢ ، ٤٨ ، ٥٨ ، ٨٩ ، ٩٧ ، ١٨٤، ١٩٧ .

كمصدر له فيذكره بوضوح قائلا «وذكر محمد بن عبد الملك الهمذاني» او «قال محمد بن الفضل الهمذاني» «٢٠٥» الا انه لا يذكر اسم الكتاب الذى رجع له اذ اننا نعلم بان الهمذاني كان قد الف عدة كتب منها ذيل على تاريخ الطبري وذيل اخر على كتاب ابن شجاع الروزراوري وكتاب في التاريخ ايضا دعاه بعنوان السير وغيرها من الكتب «٢٠٦» .

١٠ — لقد استند ابن الجوزى كثيرا على شيخه ابي الحسن علي بن عبيد الزاغوني «ت ٥٢٧ هـ» ، سواء في ايراده للاحداث ام في تراجمه للمشاهير ، وعادة يشير اليه بقوله «ذكر هذا شيخنا ابو الحسن بن الزاغوني في تاريخه » او «قال شيخنا ابن الزاغوني» «٢٠٧» .

١١ — ومن مشاهير شيوخه الذين اوردهم كمصادر لمعلوماته هو شيخه محمد ابن ناصر «ت ٥٥٠ هـ» وعلى سبيل المثال ينقل عنه بعض احداث بغداد في سنوات ، ٤٨٧ ، ٥١١ ، ٥٢٤ ، ٥٣٣ هـ . ومن الغريب ان ماينقله عنه هي حوادث الزلازل التي حدثت خلال هذه السنوات «٢٠٨» وكذلك شيخه ابو بكر محمد بن عبد الباقي البزاز «ت ٥٣٥هـ » اذ قد روي عنه جملة من احداث بغداد اضافة الى اخبار عن تراجم كبار كبار الشخصيات «٢٠٩» ، وكذلك بالنسبة للشيخ محمد بن عبد الله ابي عبد الله الحراني «ت ٥٦٠ هـ» اذ اورد اسمه كمصدر لاحداث العراق «٢١٠» ثم ابي الفرج صدقة بن الحسين الحداد « ت٥٧٣ هـ» فقد ذكره الجوزى كثيرا في منتظمه في امور تخص احداث العراق وكذلك الوفيات ويرجع اليه عادة بقوله « وجدت بخط ابي الفرج بن الحسين الحداد» واحيانا اخرى يقول «وحكى ابو الفرج . . . » «٢١١» .

«٢٠٥» نفس المصدر ، ج ٥ ص ١٣٦ ، ج ٨ ص٢٥١ ، ٣٣١ .
«٢٠٦» ابن شاكر ، عيون التواريخ ، مخطوطة ، كمبردج ، ورقة ٧٠ .
«٢٠٧» المصدر السابق ، ج ٩ ص ٢٠٦ — ٢٠٧ ، ج ١٠ ص ٩ ، ص٢٧ ، ص٣٠ .
«٢٠٨» المنتظم ، ج ٩ ص ٨٠ — ٨١ ، ١٩٣ ، ج ١٠ ص ١٤ ، ٧٨ .
«٢٠٩» نفس المصدر ، ج ٦ ص ٦ ، ٣١٩ ، ٣٤٠ ، ج ٩ ص ١٧١ ، ج ١٠ ص ٦٢ .
«٢١٠» نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ ، ٢٥٦ ، ج ١٠ ص ٢١٢ — ٢١٣ .
«٢١١» نفس المصدر ج ١٠ ص ٦١ ، ٢١٠ ، ٢٧٦ — ٢٧٨ .

ومن مصادره ايضا شجاع بن ابي شجاع فارس بن الحسن الذهلي «ت ٥٠٧ هـ» اذ يعتمد عليه الجوزى بقوله «قرأت بخط ابي شجاع الذهلي » «٢١٢» .

١٢– واعتمد الجوزى في بعض وفياته على عبد الكريم بن محمد السمعاني «ت ٥٦٣» وخصوصا على كتابه الانساب . وفي انتقاد الذهبي لابن الجوزى يخاطبه قائلا «وعامة ما في كتابك المنتظم من سنة نيف وستين واربعمائة الى وقتنا هذا « ٥٥٠ هـ » من التراجم انما اخذته من ذيل «ابن السمعاني اى كتاب الانساب» «٢١٣» .

١٣– ومن الشيوخ الذين وردت اسماؤهم كمصادر لمعلومات الجوزى هم عبد الوهاب بن ابي منصور الامين عن ابيه ، وابو المكارم بن رميضاء السقلاطوني ، والقاضي ابو يعلي الفراء ، وابو الحسن بن عساكر ، وطلحة بن المظفر العلثي «٢١٤» وعندما يرجع ابن الجوزى الى أحد هؤلاء نجده يذكر العبارات الاتية «قالى لي» او«وحدثني»او«حكى لي» او«انبأنا» واحيانا يعود اليهم بصفة الجمع «حدثنا . . . اشياخنا»«٢١٥» مما يشير الى ان المعلومات كانت قد وصلته شفهيا .

١٤– وعندما قويت علاقة ابن الجوزى بالسلطة اصبح على صلة وثيقة بالاحداث بل ان اخباره كانت مستقاة من كبار رجال البلاط فعلى سبيل المثال نجده يورد اسم الوزير يحيى بن هبيرة كمصدر لمعلوماته ويشير الى ذلك قائلا «وحدثنا الوزير . . .» «٢١٦» وأحيانا يكون مصدره الوزير او احد اقاربه «٢١٧» او خياط المخزن او غيره

«٢١٢» نفس المصدر ، ج ٩ ص ١٦٤ ، ١٧٦ .
«٢١٣» الذهبي ، تاريخ الاسلام ، مخطوطة البودليان – اوكسفورد . ورقة ١٢٠ – ١٢١ .
«٢١٤» المنتظم ، ج ٩ ص ٧٦ ، ج ١٠ ص ٤ ، ٢٧٦ ، ٢٦٥ .
«٢١٥» نفس المصدر ، ج ٩ ص ٩٥ ، ٩٦ .
«٢١٦» نفس المصدر ج ١٠ ص ٦١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢١٤ .
«٢١٧» نفس المصدر ، ج ١٠ ص ٢١٠ .

من الموظفين «٢١٨» اضافة الى هذه المصادر العليا فاننا نجد ينتقي اخباره من عامة الناس او المجهولين فنجده مثلا يقول بعض الجند» او «وحدثني بعض الاتراك وكان محبوسا» او «وتحد جيراننا بباب المرتب» «٢١٩» ، وقد يحصل على الاخبار م اصدقائه او من المسافرين الى بغداد وخصوصا الحجاج الا انه الاسماء كأن يقول «بلغني» ، «قيل» ، «ذكر» ، «حدثني بعض «ثم وصل الخبر من همدان» ، «ثم وصل الخبر من اصفهان» ، كتب من . . . » «٢٢٠» .

١٥ـ لقد اورد ابن الجوزى الكثير من الوثائق الرسمية بنصوصها لمعلوماته فهو يذكر لنا نص الكتاب الذي قرىء على الناس بـ الثائر يعقوب بن الليث الصفار «٢٢١» ويورد كذلك نص العه قاضي بغداد ايام المطيع «٢٢٢» ونص توقيع بتقليد المظالم «٣ واخر بنيابة الوزارة «٢٢٤» وكذلك نص كتاب الخليفة الى استاذ الدار «٢٢٥» . بل نجده يسجل لنا ماشاهده هو يحوي ابياتاً شعرية كان قد شاهدها الجوزى مكتوبة على ابو علي بن افلح الكاتب «٢٢٦» .

«٢١٨» نفس المصدر ، ج ١٠ ص ٢٣٣ .
«٢١٩» نفس المصدر ج ١٠ ص ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٦٦ .
«٢٢٠» نفس المصدر ، ج ١٠ ص ٥ ، ٢٤٤ ، ج ٩ ، ٢٠٦ ، ٢٢٤ .
«٢٢١» نفس المصدر ، ج ٥ ص٣٣ .
«٢٢٢» نفس المصدر ، ج ٧ ص ٦٤ — ٦٥ .
«٢٢٣» نفس المصدر ج ٩ ص ٢٦ .
«٢٢٤» نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ .
«٢٢٥» نفس المصدر ج ، ١٠ ص ٤٦ ، ٤٧ — ٤٨ ، ٥١ ، ج ٩ ص ٤٧ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ .
«٢٢٦» نفس المصدر ، ج ١٠ ص ٨١ ، ٨٣ .

١٦ــ واخيرا ، فان ابن الجوزى في بعض الاحيان ينقل احداثا تاريخية من مصادر الا انه لا يورد اسمها بل يشير بما يفهم من انه شاهد الحدث نفسه عندما كان صغيرا ، الا ان دقة الوصف تثبت بانه ينقل من مصدر كما حدث في وصفه احداث سنة «٥٢١هـ» وكذلك ٥٢٩ وقد وصف الجوزى نفسه بانه كان صبيا في ذلك الوقت «٢٢٧» لذا يمكن القول بانه على الاقل منذ سنة ٥٣٠ هـ فما فوق أصبح ابن الجوزى يعتمد في وصفه لبعض الاحداث او ذكره بعض الاخبار على نفسه اضافة الى المصادر التي ذكرناها سابقا وخصوصا الشفوية منها .

« ٢٢٧ » نفس المصدر ، ج ١٠ ص ٢ ، ٤٦ – ٤٧ .

الطبقات والصراع الطبقي في عراقنا القديم

الدكتور عباس حسين الدباغ

كانت ارض الرافدين مهد الحضارات الانسانية العريقة قد عرفت اوا
التشريعات في تاريخ البشر . كما وانها كانت مهدا لمختلف الانظمة الاجتماع
والسياسية والاقتصادية التي لعبت دورا بارزا في تقدم وتطور الحضارة البشرية

من المعروف ان العراق كان من بين اقدم المناطق التي سكنها الانسا
المتحضر الا ان بساطة حياة ذلك الانسان وبدائية تنظيماته الاجتماعية من جه
وجهله للقراءة والكتابة من جهة اخرى لم يسمح لنا بتحديد تاريخ ظهور ذلك
الانسان على ارض الرافدين بالضبط . غير انه من المسلم به ان الافراد في
بداية امرهم كانوا متساوين من حيث الحقوق والواجبات اى انهم كانو
يتبعون مانسميه الان بنظام «العشيرية» او «المشاعية البدائية» . فظروف الحيا
الصعبة والمشاكل الكبيرة التي كانت تواجههم مع بساطة وبدائية معرفتهم
ومحدوديتها . كل ذلك كان يتطلب جهودا جماعية مشتركة لتدبير مسأل
الحصول على القوت والتغلب على المشاكل التي تضعها الطبيعة في طريقهم ودحر
الحيوانات المفترسة التي كانت تنافسهم في البقاء . فالناس كانوا يشتركون
في ملكيةوسائل الانتاج ويتعاونون في اداء العمل ويتقاسمون ثمار ذلك العمل
في تلك الظروف لم يكن بالامكان تحقيق اية زيادة في الانتاج تفيض على م
يتطلبه سد ابسط ضرورات الحياة ، وترتب على ذلك انعدام الاستثمار
والاستغلال ، كما وانعدام بالتالي نشوء الطبقات التي تتصارع حول تملك
فائض الانتاج .

«وبالنظر لعدم وجود الفائض وانعدام الاستثمار وعدم ظهور الملكية
الفردية لوسائل الانتاج والطبقات كنتائج لذلك لم يظهر نظام «الدولة» هو

الاخر. والمقصود بالدولة طبعا هو جهاز الحكم المبني على الالزام بالقوة. وكان العرف وحده هو وسيلة الرقابة الاجتماعية واساس هيبة رؤساء العشائر» «١».

فسكان العراق القديم حتى ذلك الوقت لم يعرفوا الطبقات ولا التمايز الطبقي بل عاشوا على شكل جماعات متعاونة تصطاد الحيوانات وتجمع الاثمار هكذا كان الامر في العصر الحجري القديم ، وما ان جاء العصر الحجري الحديث الا وحمل معه تغيرات جذرية في حياتهم الاجتماعية. ففي هذا العصر عرف سكان العراق الملكية الفردية «ولعل نشوء هذا النظام اثر في نشوء العائلة — وقد قدرت بداية هذا العصر بنحو عشرة الاف سنة قبل الميلاد ، وقد بدأ في الشرق الادنى وخصوصا في العراق ومصر قبل غيره من بقاع الارض» «٢».

لقد احدث ظهور الملكية الفردية ثورة اجتماعية بعيدة الاثر في حياة سكان العراق القديم لما ترتب على هذا التطور الخطير من نتائج بالغة الاهمية في قيام التنظيمات الاجتماعية المختلفة التي تطلبتها الاوضاع الجديدة. فمن اولى نتائج هذا التطور تفكك العشيرة الى اسر كبيرة اولا ثم الى وحدات عائلية صغيرة قائمة على اساس الملكية الخاصة لوسائل الانتاج والعمل الخاص. ثم ان الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ادت الى تغيير كامل وجذري في بنيان المجتمع نظرا لما خلقته من مصالح متباينة داخل الوحدة الاجتماعية والاقتصادية والى تولي مالكي ادوات الانتاج المناصب الاجتماعية الاساسية والى انفصالهم تدريجيا عن بقية افراد قومهم. ومن هنا كانت بداية نشوء الاسر الحاكمة.

ونظرا لما رافق هذا التطور «ظهور الملكية الفردية» من تطور كبير في قوى الانتاج والذي مهد لظهور زيادة في الانتاج عن حاجة المالك لذلك الانتاج «وبالنظر لان المصدر الوحيد لهذا الفائض «الزيادة» هو العمل ، ارتفعت قيمة

«١» ابراهيم كبة — دراسات في التاريخ الاقتصادي والفكر الاقتصادي — الجزء الاول بغداد ١٩٧٠ ، ص ٢٠.

«٢» طه باقر — مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة — بغداد ١٩٥٥ ص ٤٤.

العمل ارتفاعا كبيرا مما ادى الى ضرورة عدم قتل اسرى الحرب والاكتفاء باستعبادهم» «٣» وبظهور نظام العبودية القائم على استثمار عمل الاخرين «العبيد» ظهر اول انقسام طبقي للمجتمع ، الا اننا نجهل تاريخ ظهور العبودية بالضبط ، ولقد وردت اول اشارة تاريخية الى وجود العبيد في ملحمة جلجامش المشهورة والتي يرجع تاريخها الى عصر ماقبل السلالات والذي يرتقي الى حدود ٣٥٠٠ سنة ق . م . حيث ورد في الملحمة مانصه : «ماعاظم الشبه بين النائم والميت الا تظهر على وجهيهما هيئة الموت ، وهكذا العبد والسيد لم ينتهي اجلهما » «٤» .

من المسلم به ان اول مصدر للعبيد كان اسرى الحرب . فغالبا ماكانت تنشب الحروب بين سكان مدن العراق القديمة لا سباب كثيرة يقف على رأسها النزاع حول الثروة على اختلاف اشكالها « ماشية ، اراض ، مصادر معادن ، الخ . . » وكان المنتصر في تلك الحرب يستولي على الاخرين وما يملكون ، وفي البداية كان اسرى ينذرون لمعبد المدينة حيث يخدمون فيه او يعملون في املاكه «من مزارع ومراع » كعبيد . وبمرور الزمن لم تعد ملكية العبيد مقتصرة على المعابد فقط بل اصبح الحكام والاغنياء من ا كبر المالكين للعبيد كما وان مصادر العبيد تعددت وازدادت ومن بين المصادر الجديدة هي التجارة حيث راجت عملية نهب الافراد من منطقة معينة ليباعوا في منطقة اخرى كعبيد ، كما وان الفقراء من الناس الاحرار كانوا مجبرين على بيع اولادهم او انفسهم للحصول على لقمة العيش . بهذه الصورة بدأ ينشأ اول اشكال الانظمة الاستثمارية واشدها قسوة وفظاظة في تاريخ البشر . ذلك النظام الذى اخذ يتطور ويتمركز على ارض الرافدين باندفاع عجلة التطور الى امام حتى اصبحت العبودية خطرا يهدد الفقراء من الناس وسيفا مسلطا على رقاب الاحرار . ان نظام العبودية لم ينتصر ويسد سلميا بل واجه مقاومة

« ٣ » ابراهيم كبة — مصدر سابق ، ص ١٢٣ .

« ٤ » طه باقر — مصدر سابق ، ص ٤٦٧ .

عنيفة من انصار النظام السابق له «المشاعية البدائية» تلك المقاومة التي تمثلت في قيام الانتفاضات والثورات الشعبية تلك الانتفاضات التي كان فلاحو الارض المملوكة جماعيا «اي الفلاحون الاحرار» جماهيرها والتي استهدفت الدفاع عن نظام العشيرية في وجه طغيان واستبداد مالكي العبيد وتعسفهم. ولعل اولى الانتفاضات التي عرفها التاريخ من هذا النوع قد حدثت في مدينة لجش في منتصف الالف الثالث قبل الميلاد تلك الانتفاضة التي كان من نتائجها المباشرة الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية التي قام بها ملك لجش اور- كاجينا، فقد جاء هذا الملك الى السلطة نتيجة لانتفاضة شعبية وحكم مدينة لجش طيلة ستة اعوام اجرى خلالها اصلاحات عكست بوضوح نضال الاحرار من انصار العشيرية ضد نظام العبودية الذي بدأ حياته الاقتصادية بالتوسع والتركز.

فقد حاول اور - كاجينا من اجل تقوية مركزه ان يعتمد على فلاحي الارض المملوكة جماعيا وقام بمحاولات جدية للحد من سطوة وتعسف مالكي العبيد واعادة سلطة وسيطرة الفلاحين على الارض والماشية والعبيد الذين في حوزة المعابد. فقد اعلن اور - كاجينا انه «في وسط ٣٦ ألف من سكنة لجش قد جرى اعادة النظام القديم وانه قد اقتطع من شباك الصيد لناظر الصيادين . . . وجرت اعادة حقوق معابد الاله باوورارجع لها ذلك القسم من العبيد الذي سبق وان استولى عليه المتنفذون. وان العبيد الملحقين بالمعابد قد اصبحوا من جديد في واقع الحال ملكا للعشيرة» «٥».

لقد خفض اور - كاجينا الرسوم المفروضة على السفن ومنع مساعدي الكهنة في المعابد من جباية مختلف الضرائب. ومن اصلاحاته المهمة وضعه حدا للتعسف الذي كان يمارسه الاغنياء ضد الفقراء «اذا ما اراد العظيم ان يشتري حمارا من احد افراد الجيش «عسكري» فعليه ان يدفع «فضة جيدة» واذا لم تتم الصفقة «فيجب على العظيم ان لا يشعر العسكري بانه متذمر منه»

«٥» ستروفي . ف . ف . نظرات في تاريخ العالم القديم - المجلد الاول - مقدمة فصل دولة مابين النهرين ، ص ١٣٩ « باللغة الروسية » .

وفي خاتمة هـــذه الاصلاحات التي اعلنها اور — كاجينا — والتي تعـ
اول شريعة في تاريخ الانسانية وسبقت شريعة حموراني بعدة قرون. اعـ
اور — كاجينا بفخر انه «قد اعاد لمدينة لجش النظام وحرر سكانها من الخـ
على حياتهم، ومن الخداع وسرقة الحبوب والنفائس. ومن القتل والكـ
وانه وقع العقوبات لئلا يضطهد الايتام والارامل من قبل الاقوياء» «٦

ان هذه الاصطلاحات لم تكن عفوية في تاريخ العراق القديم فـ
مهد لها الصراع الحاد بين الفلاحين المعدمين الاحرار ومالكي العبيد ذلـ
الصراع الذي ميز فترة نشوء العبودية والذي اصبح شيئاً مألوفاً في القرون التا
من تاريخ الشرق القديم ككل.

لقد وضع اور — كاجينا كما يبدو هدفاً واضحاً نصب عينيه في اصطلاحا
الا وهو تقوية مركز العشيرية جزئياً وتحريرها من اضطهاد وتعسف الحكـ
والمتنفذين والكهنة. وتنظيم صناعة السفن وتوسيع شبكة الري وتوسيع الضمانا
الممنوحة للملكية الخاصة للفرد العادي وحمايتها.

كل هذه الامور كان يجب ان تقلل ولو وقتياً من ضغط مالكي العبيـ
واستبدادهم وتضع حداً لابتزاز الموظفين. فاور — كاجينا الذي ارعبه اشتدا
التناقضات الطبقية. او الذي اراد ان يتسلق على اكتاف الكادحين من اجـ
الوصول الى السلطة قد اقدم على اجراء تنازلات جدية في صالح جماهيـ
الشعب الكادحة على حساب الاشراف والكهنة. لقد اخذ بنظر الاعتبار فـ
اصلاحاته امكانية تعايش العبودية والعشيرية وعدم تصادمهما. وان احسـ
ما يعكس هذا الرأي هو محاولته تقوية وتوسيع وزيادة عدد العبيد التابعين الى المعابـ
على حساب العبيد المملوكين ملكية خاصة. مع العلم ان العلاقات العشيريـ
كانت لا تزال باقية ومسيطرة على نطاق المعابد. والقسم الاكبر من الارضـ
كان اما في حوزة المعابد او مملوكاً ملكية جماعية، وعليه فان اية اصلاحات

«٦» ای . د . أود التسوف . يا . بوليانسكي — تاريخ الافكار الاقتصادية .
المجلد الاول ، ص ١٤ باللغة الروسية » .

في نظام الري وتطويره كانت في صالح العشيرية بالدرجة الاولى. كما وان تخفيف الضرائب التي كان يجبيها الكهنة كان يستهدف الدفاع عن الاحرار وتحديد تعسف المتنفذين والذين غالباً ما كانوا يشغلون مناصب دينية رفيعة.

ان اور – كاجينا قد وضع في محاولته الدفاع عن العشيرية في وجه العبودية المتصاعدة اهدافاً متناقضة للغاية لم تكن تنسجم وخط التطور الاقتصادي ولا تتلاءم معه، بل كانت معرقلا لذلك التطور الى حد ما. لذلك فان «اصلاحاته هذه لم يتمتع بها امدا طويلا اذ غلبه على امره ملك مدينة «اوما» المعادية وقضى على سلالته...... ويدعى ملك اوما هذا «لوكال زاكيزي» وهو من مشاهير الامراء السومريين وعهده نهاية عصر فجر السلالات» «٧».

بعد ذلك استمر نظام العشيرية يتنازع البقاء ويصارع نظام العبودية المتصاعد حتى فترة متأخرة اي الى ان قامت الدولة الاكدية وتولى سرجون الاكدي السلطة حيث تعرضت العشيرية لهجوم كاسح وفقدت الكثير من مراكزها «ظهر زعيم من الساميين هو سرجون الاكدي ولفظه – شروكين – اي الملك الصادق الذي كون من العراق مملكة موحدة في حدود ٢٣٥٠ ق.م. بعد ان قضى على لوكال زاكيزي....... وتشير الاخبار المتأخرة عن سرجون انه لم يعتمد على ولاء دول المدن السومرية كثيراً بل انه عين حكاماً تابعين له والمرجح كثيراً انه اوجد نظام الجيش الدائم» «٨».

لقد قامت دولة سرجون الاكدي واحفاده واعتمدت بالاساس على سياسة تقوية واسناد العبودية على حساب العشيرية. حيث شقت القنوات وبنيت المدن والقصور والمعابد ونزعت ملكية الجماعة للارض لصالح الملك والحاشية وازدادت الضرائب واعمال السخرة لصالح المتنفذين ورجالات الحكم وتم الاجهاز على البقية الباقية من حقوق الاحرار المعدمين. ان نزع الملكية الجماعية للارض لصالح مالكي العبيد في وقت كان فيه الانتاج الزراعي

«٧» طه باقر – مصدر سابق – ص ١٠٨ .

«٨» المصدر السابق، ص ١٢١ – ١٢٣ .

اساس حياة الفرد والمجتمع يعني اخضاع المجتمع لسيطرة مالكي العبيد ويعني ان جميع اعمال السخرة من شق للقنوات وتنظيم للري وبناء المدن والمعابد والقصور وجباية الضرائب والخدمة العسكرية قد اصبحت لصالح مالكي العبيد وعلى حساب الاحرار المعدمين والعبيد. ولذلك كان من المنطقي جداً ان يتهرب الاحرار من الخدمة العسكرية « الاحرار المعدمون » ومن هنا برزت الضرورة القصوى لتكوين الجيش الدائم من العبيد والاحرار الاغنياء ، على ان تكون الضرائب هي مصدر ادامة ذلك الجيش.

ان النظام الملكي الاكدي الاستبدادي قد اسرع بشدة ووطد نظام العبودية على حساب العشيرية وكان مجمل الخط السياسي الذي اتبعته هذه الدولة خالياً من الحلول التوفيقية التي سار عليها وطبقها اور – كاجينا ، ومصطبغا بطابع ملكية العبيد وتركيز الثروة في ايدي الطبقة الحاكمة وعلى راسها الملك وما الفتوح الاكدية التي استهدفت السيطرة على البقاع الغنية بالموارد والمواد الاولية والتي تعتبر اول نظام للامبراطورية في تاريخ البشر السياسي وطلائعاً لما نسميه بالاستعمار في الوقت الحاضر ، الا تعبيراً صادقاً عن هذا الاتجاه. ان ذلك النظام لم يقف ساكناً ازاء انهيار نظام العشيرية وانتصار العبودية فقط بل أسرع في تلك العملية وشددها .

ولم يقف التطور الاجتماعي والاقتصادي في حياة سكان وادي الرافدين عند ذلك الحد بل سار الى الامام جارا وراءه حدوث تبدلات جدية في مجمل الانظمة والعلاقات الاجتماعية السائدة. ففي عهد السلالة الملكية الثالثة لاور «٢١١٨–٢٠٠٧» ق.م. تلك الدولة التي قامت على انقاض دولة الاكديين ، ظهر ما يعرف «بعبيد الدين Debtors Slaves » «٩» .

بعد هذه المرحلة اخذ يبدو واضحاً وجلياً انقسام المجتمع الى طبقتين متناحرتين متعارضة المصالح. فعلى رأس المجتمع يقف الملك والحاشية والكهنة وكلهم من مالكي العبيد الكبار والمتوسطين والصغار وكانت الدولة بأجهزتها

« ٩ » وقائع التاريخ القديم ١٩٥٢ ، ج ٤ ، ص ٣١٠ « باللغة الروسية » .

وقوانينها مكرسة كلياً لخدمة هذه الطبقة ومصالحها بالدرجة الاولى.

ان هذه الطبقة كانت تعرف بطبقة الاحرار الكاملي الحقوق «اميليم» ولم يكن جميع افرادها في مستوى واحد بطبيعة الحال من حيث الملكية والسطوة الاجتماعية. و في قاعدة المجتمع كان العبيد المحرومون من جميع الحقوق «ان الرقيق كان يعتبر مالا مملوكاً لسيده وان اهلية الرقيق كانت مقيدة في التعامل بقيود كبيرة وان الرقيق كان يوسم بعلامات مختلفة باختلاف احوال لا تزال غامضة . وكان يلزم بعدم مغادرة المدينة بدون اذن المالك. وكان من الجائز ان يمتلك الرقيق احد افراد ال اميليم» او «المشكينم» وللقصر «بلاط الامير» رقيق خاص له احكامه» «١٠».

الى جانب هاتين الطبقتين كانت هناك فئة اخرى تنتمي الى الطبقة الاولى وهم الاحرار المعدمون «المشكينم» والذين كان القسم الغالب منهم فلاحين، فهم يتمتعون بالحرية الا ان خطر العبودية كان يهددهم باستمرار ولم تكن لهم جميع الحقوق التي كانت لمالكي العبيد ومع ذلك فانهم كانوا اسعد حظاً بكثير من العبيد. فالعبد كان مجرد سلعة من السلع تباع وتشترى ويحق لمالكه ان يتصرف به كما يشاء، فهو لم يكن محروماً من حقوق الملكية فقط بل كان محروماً من جميع الحقوق الادمية، وحيث يوسم بسيماء خاصة يشار فيها الى اسماء مالكيهم ومن تجرأ على محوها يعاقب بأقسى العقوبات.

في ظروف انتصار نظام العبودية وتطوره على نطاق واسع جاءت الدولة البابلية الى الوجود ففي دولة بابل تسارعت عملية استعباد «عبيد الدين» وتحول شعب المملكة الى قطيع من العاملين المستغلين مما ادى الى فقدان الحكومة لركيزتين مهمتين من ركائزها الا وهي الضرائب والقوة العسكرية الاحتياطية. فنتيجة لسيادة العبودية وخضوع الغالبية الساحقة للاستغلال من قبل كبار رجال الدولة من مالكي العبيد قلت الضرائب التي كان يدفعها الاحرار

«١٠» صلاح الدين الناهي – تعليقات على قوانين العراق – مجلة سومر ، المجلد الخامس ، ج ١ ، كانون الثاني ١٩٤٩ ، ص ٤١ .

سابقاً من جهة ونضب مصدر الجنود من جهة اخرى فانخفضت احتياطات الخزينة والملاك الحربي في تلك الظروف كانت العبودية سيفاً مسلطاً على رقاب جماهير المملكة البابلية وليس خطراً يهدد الغرباء عن المملكة فقط كما وان العبودية اخذت تهدد جدياً الملكية الفلاحية الصغيرة مما اثار احتجاج ومعارضة الفلاحين الاحرار. واشتدت التناقضات الطبقية في المجتمع ومما زاد الامر سوءاً التطرف في عمليات استعباد «عبيد الدين» واتساعها وشمولها العسكريين والمدنيين على السواء، من غير القادرين على دفع الدين. وبدأ المرابون بالاستيلاء على ممتلكات واراضي المواطنين العسكريين والذين كانوا السند الاساسي للنظام الاستبدادي «لعبت مراتب المساكين ومعدمي الاحرار دورا اساسياً في مد النظام بجمهرة العبيد بنتيجة اضطرارهم لبيع كل ما يملكون سداداً لديونهم، وبالتالي رهن انفسهم لدى الدائن، ثم بالتالي تحولهم الى عبيد بسبب العجز عن سداد الديون. وقد تكونت نتيجة لهذه الاوضاع المزرية طبقة مستثمرة خاصة في المجتمع البابلي متفرغة لاصطياد «عبيد الديون» وتأجيرها للطبقات المستثمرة في حقول الانتاج المختلفة» «١١». ومن جهة اخرى تعرض العبيد لاستغلال وحشي مما ادى الى بروز ظاهرة الهروب بين العبيد على نطاق واسع ولضبطهم تطلب الامر نوعاً جديداً من القيود.

في مثل هذه الظروف اصبح من الضروري ظهور شريعة «اشنونا» ومن بعدها شريعة حمورابي «١٧٩٢—١٧٧٠» ق.م. والتي كانت في نصوصها نوعاً فريداً في تاريخ الصراع الطبقي للنظام العبودي البابلي. ان اهم ما استهدفته الشريعة هو وضع حد لتطور عملية استعباد المدينين. فهذه الطريقة كان من الممكن منع اشتداد التناقضات الطبقية والمحافظة على الاحتياطي الاجتماعي للحكومة من جنود ودافعي ضرائب. فقد اعلنت الشريعة ان الوضع القانوني للمستعبد بموجب الدين وضع مؤقت ويرجع حرا بعد مرور ثلاث سنوات ويلغى الدين الذي بذمته «المصدر الداخلي للعبيد افراد من الطبقة الوسطى

«١١» ابراهيم كبة — دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي، ج ١ بغداد ١٩٧٠، ص ١٥٠.

«الاحرار المعدمين» يؤول مصيرهم الى الاسترقاق في حالات منها عجزهم عن ايفاء الديون، فيحجز الدائن عليهم ويسترقهم او انهم يبيعون ابناءهم او زوجاتهم لمدة معينة يكونون فيها في خدمة الدائن» «١٢».

لقد منعت الشريعة منعاً باتاً قتل المدينين غير القادرين على دفع الدين بغض النظر عن مركز الدائن «نصت المادة ١١٦ من قانون حمورابي: اذا مات الرهينة في بيت حابسه بسبب الضرب وسوء المعاملة فسوف يحاكم صاحب الرهينة التاجر الدائن. فاذا كان الميت ابن الرجل فيقتل ابنه وان كان عبده فعليه ان يدفع ١/٣ المن من الفضة. وسوف يخسر التاجر جميع ما اقرضه من المال» .«١٣» وفي حالة القحط اعفي المستأجرون للارض من بدل الايجار لسنة واحدة. كما ووضعت حدود للايجار واعلنت الاراضي التي يملكها الجنود على انها محرمة اي لا يجوز الاستيلاء عليها حتى مقابل تسديد الديون «المادة ٤٨ من شريعة حمورابي نصت على: اذا كان على شخص دين ثم اغرق الاله –ادد– حقله واتلف حاصله. او لم ينتج الحقل غلة لانتفاء الماء فسوف يعفى ذلك الشخص في تلك السنة من تسليم حبوب الى صاحب دين عليه وسوف يغير عقده ولن يدفع ربا– فائضا– تلك السنة» «١٤» .

ان شريعة حمورابي قد اقرت وصادقت على العبودية باعتبارها اساس المجتمع واصبحت العقوبات والارهاب الوحشي والتعسف ضد العبيد جراء الهرب او العصيان البسيط للسادة امراً قانونياً فالشريعة اذن قد وطدت نظام العبودية في بابل بوجه عام وجعلت استغلال العبيد شيئاً شرعياً وتحول العبيد الى ملكية مضمونة. انها لم تضع حداً لاستعباد الاحرار الا في الحدود التي لا تهدد اسس الدولة .

ليس هناك ادنى شك في ان شريعة حمورابي كانت نتيجة وانعكاساً

«١٢» طه باقر – مصدر سابق ، ص ٤٠٣ .

«١٣» مجلة سومر – المجلد الرابع ، ج ٢ ايلول ١٩٤٨ ، ص ١٦٦ – ١٦٧ .

«١٤» طه باقر – مصدر سابق ، ص ٢٩٤ .

لتناقضات اجتماعية وطبقية لنظام العبودية في بابل، فلقد كان نظام حمورابي واعيا بشكل جيد وواضحاً للاخطار التي كانت تهدد نظام العبودية.ان شريعة حمورابي واحكامها كانت انعكاساً لصفة المجتمع القائم على اساس سلم ومراتب طبقية وطوائف اجتماعية وتتلاءم تلك الاحكام مع الاوضاع التي كانت سائدة في ذلك المجتمع. فقد و ضعت الشريعة الاحرار الكاملي الحقوق «اميليم» في وضع امتيازي بالنسبة للاخرين وصانت مصالحهم ودافعت عنها. وحتى بين افراد هذه الطبقة كانت هناك فئات «مراتب» ولعل احسن دليل على ذلك هي العقوبات المفروضة في حالة الاتيان بجرم معين حيث ان العقوبات تختلف حسب الطبقات التي كان ينتمي اليها المجني عليه.

«المادة ٨ من شريعة حمورابي– اذا سرق رجل بقرا او غنماً او حماراً او خنزيراً او قارباً سواء كان يعود للاله او الى القصر فانه يعطي ثلاثين مرة قيمة المسروق، اما اذا كان ذلك يعود لـ «المشكينم» فانه يدفع عشرة امثاله ... الخ» «١٥».

لقد قدم حمورابي لشريعته باعتبارها احلالا للعدالة وابعاداً للاذى الذي يتعرض له الضعيف من جانب القوى. الا ان الشريعة في واقع الحال كانت خير سند واهم سلاح استخدم لتقوية وصيانة نظام العبودية «كما وردت في شريعة حمورابي احكام تنظم الخدمة العسكرية او كما سمتها الشريعة– خدمة الملك– وتخصيص الاراضي لاعالة الداخلين في تلك الخدمة، وتنظيم تلك الاراضي مثل عدم جواز بيعها ورهانها وجواز اعطائها الى الابن على شرط القيام بخدمة الملك كماوردت جملة احكام حول الضباط، ومن ذلك الزامعبد المدينة بدفع الفدية في حالة اسرهم وعدم تمكنهم من الدفع. وفي حالة عدم وجود المال في المعبد فيلزم على المدينة ان تقوم بالدفع..... وجاءتنا اشارات من الزمن البابلي الاخير ان فرض بعض الضرائب الخاصة على السكان

«١٥» طه باقر – مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة – بغداد ١٩٥٥ ، ص ٢٩٤ .

لادامة الجند» «١٦» .

ان تخفيف التطرف في استعباد المدينين «عبيد الدين» والمحافظة على المحاربين وصيانة حقوقهم ورعايتهم وتنمية وصيانة موارد الخزينة واحتياطها والقوة العسكرية، كل هذه الاجراءات المخففة لتعسف نظام العبودية وقسوته لم يكن باستطاعتها ان تقضي على تناقضات ذلك النظام ولا ان تبعدها عن بابل التي اشتدت فيها تلك التناقضات في الفترات اللاحقة وكانت سبباً في انهيار تلك الامبراطورية العظيمة امام هجمات القوى المعادية من الخارج.

«١٦» المصدر السابق ، ص ٤٠٢

الستراتيجية السوفيتية في الحرب الباردة

كاظم هاشم نعمة

يمكننا التعرف على موقف الاتحاد السوفياتي من العلاقات الدولية من ناحيتين، احداهما دراسة الايديولوجية الماركسية– اللينينية من جانب، او تتبع السياسة الفعلية للحكومة السوفيتية وردود فعلها في الازمات الدولية وثانيتها الجمع بين الايديولوجية والتطبيق، مع الانتباه الى الدوافع الظاهرية والخفية التي تحرك صانعي القرارات.

وأول سؤال يفرض نفسه هو: هل ان السياسة السوفيتية في الحرب الباردة تنطلق من مخطط ستراتيجي متكامل الابعاد او مجرد تفاعل مع الاحداث تكتيكياً؟ ورغم ان العلاقة بين الستراتيجية والتكتيك متداخلة ومتبادلة ويصعب احياناً رسم حدود فاصلة وواضحة، فان الفكر الماركسي– اللينيني يؤكد بصراحة على ضرورة الاعتراف بتباين جوهر الستراتيجية من التكتيك. فالستراتيجية تعالج الاوضاع الاساسية وتتعامل مع المقومات الرئيسة وما يحيطها مؤمنة بأن الثورة لا تقف عند مرحلة معينة بل متغيرة، لذا فانها تواكبها من حيث التكيف، لكنها تحافظ على جوهرها خلال مرحلة معينة من التطور في العلاقات الاجتماعية– الاقتصادية للمجتمع البشري الذي تتحكم فيه تناقضات معينة متناسقة ديالكتيكيا مع الاطار التاريخي للعلاقات الانسانية. وتختلف الستراتيجية عن التكتيك من ناحية الهدف الذي تتوخاه. فبما ان الصراع بين القوى الاشتراكية وبين القوى البرجوازية الامبريالية ظاهرة حتمية تاريخا وجدليا، فالستراتيجية تستهدف تحقيق الاطاحة التامة بالنظم الرأسمالية وبناء مجتمع اشتراكي. من هنا يتضح لنا ان افق الستراتيجية ارحب بكثير من التكتيك لانها تتعامل مع مستقبل بعيد تسير اليه التطورات. ومن الضروري، في

مثل هذه الحالة، ان يكون تصورنا الستراتيجي عاماً ومبنياً على اعتبارات لها اهميتها الجوهرية في الظاهرة رغم انها قد تكون خفية في فترة زمنية محددة. وهكذا، فالتكتيك هو الذي يعالج القضايا والتطورات في زمن محدود ترسم ابعاده شروط معينة وظروف قائمة، كمعيار القوة الفعلية والقوى التي تستخدمها وطبيعة اهدافها ومناهجها العملية ونظام افكارها وتصوراتها للواقع.

كتب ستالين في سنة ١٩٢٤ حول الستراتيجية بان « الستراتيجية تتعلق بالقوى الاساسية للثورة واحتياطاتها، وتتغير مع انتقال الثورة من مرحلة الى اخرى، لكنها تبقى غير متغيرة جوهرياً خلال مرحلة معينة... وبينما تستهدف الستراتيجية كسب الحرب ضد البرجوازية فالتكتيك يسعى وراء اهداف اقل اهمية، لان هدف التكتيك ليس النصر في الحرب كلياً، بل نصر في اشتباكات ومعارك معينة» «١».

وعندما نتفحص كيفية صيانة الستراتيجية السوفيتية نجد ان تشخيص القوة المضادة للدولة السوفيتية يأخذ قدراً كبيراً من الاعتبار، فالدولة السوفيتية تعتبر الكيان السياسي المنظم الاول للطبقة العاملة. وتاريخ النضال السياسي للطبقة العاملة لم يأخذ الثورة الاشتراكية طابعاً دولياً معترفاً به، بل اقتصر على الكفاح داخل الاطر القومية. وفي كلا الحالتين كان ولا يزال تجمع القوى الرأسمالية اقليمياً، والقوى الامبريالية اميا العدو المباشر الذي تستهدف اطاحته الستراتيجية السوفيتية. واذا كان الصراع داخل الدولة القومية الواحدة تتحكم فيه اعتبارات تكتيكية لان طبيعة الظروف والعوامل المتداخلة ذات صبغة مرحلية معينة ومحدودة، فان الصراع منذ الحرب العالمية الثانية وحتى الان ترسم ابعاده اعتبارات ستراتيجية عامة على رقعة جغرافية هائلة تتفاعل فيها عوامل متباينة ومتقلبة لا يمكن ادراكها بدون منهجية علمية.

«ان التكتيك يعني الخطة السياسية لفترة قصيرة تحددها ظروف معينة، بينما

(1) Josef Stalin, "The Foundation of Leninism", in Problems of Leninism, Moscow, Foreign Languages Publishing House, 1953, pp. 83 - 44.

تعني الستراتيجية خطة لمرحلة تاريخية.... وعند انتقاء الخطة الستراتيجية للحزب خلال مرحلة الرأسمالية فمن الضروري تحديد الهدف الاساسي المعين للطبقة العاملة... وكذلك عدو الطبقة العاملة الرئيسي» «٢».

منذ قيام الدولة السوفيتية وهي معرضة لضغوط خارجية، بعد ان فشلت محاولات التدخل وتمرد الجيش الابيض،من جانب الدول الاوربية خلال فترة ما بين الحربين وكان على الاتحاد السوفياتي ان يجد لنفسه سياسة تضمن له البقاء والحفاظ على دولة العمال الفتية. ولم تكن عملية انتقاء هذه السياسة سهلة وفي ظروف ملائمة، فالاقتصاد السوفياتي كان يعاني من نكسة التحول من اقتصاد رأسمالي صناعي الى اقتصاد اشتراكي مما اضطر لينين ان يرجع خطوة الى الوراء ويتعايش سلمياً مع بقايا النظام الرأسمالي حتى تستطيع رواسي الاشتراكية تثبيت قدمها. ولم تقتصر سياسة التعايش على الساحة الاقتصادية، بل شملت علاقة الدولة السوفيتية، ذات النظام الغريب في العلاقات الدولية، مع بقية الدول الاوربية الاخرى. وقد اكد ستالين على فكرة التعايش السلمي لاعتبارات محلية وعالمية . فبعد ان تبنى سياسة الاشتراكية في قطر واحد على خلاف رأي تروتسكي، وكان من الضروري في مثل هذه الحالة حشد جميع القوى لتحقيق الهدف فأنه من الافضل للدولة السوفيتية ان تتجنب الدخول في صراع مكشوف مع النظم الرأسمالية. وبذلك استطاع ستالين ان يستخدم التفسيرات الماركسية- اللينينية لتبرير موقفه مما يدفع للاعتقاد بان العقيدة كانت تجر اذيالها وراء السياسة الفعلية وتلفها بغطاء تبريري كلما دعت الحاجة لذلك. فالدولة السوفيتية لم تكن تناضل من موقع القوة في صراعها مع الدول الرأسمالية الاخرى، بل هي كانت في وضع يعرضها الى تكالب شرس أئتلافي رأسمالي ومع ذلك فالطوق الانعزالي الذي احاط الاتحاد السوفياتي حتى عام ١٩٣٥ كانت له اسبابه. فالعصبة لم تكن في نظر الحكومة السوفيتية

---

(2) Otto. C.Kuusinen ed., "Fundamentals of Marxism-Leninism", Moscow, Foreign Language Publishing House, 1961, pp. 424 - 425 .

سوى «مأوى لصوص» وتجمع نظم برجوازية تعاني من التناقضات مع ما قد يؤدي بها الى حرب جديدة كالتي شهدتها عام ١٩١٤ وتحاول ان تخلص اوربا منها عن طريق العصبة. وان الاتحاد السوفياتي لم يمتلك من القوة الفعلية ما يمنحه غطاء دفاعياً ضد هجوم اوربي ولا بد ان نذكر بأن السياسة السوفيتية لم تغفل عن ما يجد في اوربا سعياً وراء تراتيب دولية لصيانة الامن والسلم الاوربي وحاولت ان تساهم قدر الامكان في تهيئة الجو الاوربي، ولم تكن تلك السياسة ايجابية الا بعد ان تعاظم الخطر النازي بتولي هتلر الرئاسة .

ومن المفروض بالاتحاد السوفياتي ان يعمل في التناقضات داخل المعسكر الامبريالي "الا ان المتطلبات الفعلية لم تكن الى جانب هذه السياسة المقيدة بالخطوط العقائدية العريضة . واذا كان الاتحاد السوفياتي عاجزاً عن القضاء على النظم الراسمالية فانة يجب ان يمنع هذه الدول من هدم النظام الاشتراكي بصورة مباشرة او غير مباشرة«فواجبنا الانتباه للتناقضات داخل المعسكر الرأسمالي ، ولتأجيل الحرب بالتفاهم مع الرأسمالية واتخاذ الخطوات للحفاظ على علاقات سليمة . ان علاقتنا مع الاقطار الرأسمالية مبنية على افتراض بان تعايش النظامين المتضاربين ممكن ، والواقع يؤكد ذلك»«٣» .

لقد اثبتت الحرب العالمية الثانية ان الدولة الاشتراكية ولدت لتبقى ولديها من مقومات الحفاظ على كيانها ويهدد بقاء النظم الرأسمالية . ولاشك ان القادة السوفيت يدركون بثقة بانهم يتعاملون مع عدو قوي مسلح باسلحة نووية ولا يمتنع من استخدامها حتى ولو على حساب البشرية ككل ، لذلك فمن الضروري التوفيق بين المتطلبات الايديولوجية والتطورات الجذرية في العلاقات الدولية ، وبالتالي اتباع سياسة ستراتيجية — تكتيكية ، تخدم مصلحة الاشتراكية ، مبنية على تحليل علمي يحتضن ابعاد الظواهر الدنميكية بصورة

(3) Josef Stalin, "Political Report of the Central Committee to the 15th Congress of the CPSU, December, 1927, Moscow Foreign Publishing House, 1950,p . 27.

صحيحة . واولى هذه الحقائق هي ان المرحلة الراهنة للعلاقات الدولية تشهد تعامل نظامين متناقضين وانتقالا من الرأسمالية الى الاشتراكية . ويقود في الاتحاد السوفياتي معسكرا اشتراكيا له من القوة ماتكفي للدفاع عن نفسه ضد السياسة الامريكية الغربية المتمثلة بالا حتواء او الهجوم المضاد الشامل الاتوماتيكي ضد اى تحرك سوفيتي في منطقة من نفوذ الدول الغربية . ومن هذا المنطلق اتخذت سياسة التعايش السلمي كوسيلة يمكن مواجهة الغرب فيها وتحقيق الاهداف العامة «لاتعتبر سياسة التعايش السلمي مناورة تكتيكية مصممة لحقبة قصيرة من الزمن ، بل الخطة الستراتيجية لطول فترة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية على النطاق الدولي » «٤» .

واذا كانت سياسة التعايش السلمي قد نظر اليها من جانب الانكماش طيلة فترة مابين الحربين ، فان التطورات الجوهرية في العلاقات الدولية بعد الحرب العالمية الثانية دفعت بالسوفيت الى كسر طوق الرأسمالية الذي فرض على المعسكر الشرقي حتى منتصف الخمسينات . ومن جملة التطورات الثورة التكنولوجية التي شملت الاسلحة ووسائل قذفها وقابليتها التدميرية . فبعد ان تمتعت الولايات المتحدة الامريكية بفترة احتكار نووى هددت في الاتحاد السوفياتي ولجأت الى ستراتيجية الاحتواء والرد الشامل واجهت في الخمسينات قوة اشتراكية نووية تتمتع بكل ماتمنحه الاسلحة التدميرية النووية من مزايا القوة والتهديد . ثم ان القيادة السوفيتية بعد وفاة ستالين ارادت ان تنفتح على العالم الخارجي وتساهم في العلاقات الدولية من موقع القوة . ولكن علينا ان نؤكد بأن الاتحاد السوفياتي كان امام مفترق طرق من ناحية النظر الايديولوجية للحرب والسلم .

فالنصوص الماركيسية — اللينينية تؤكد بشكل او اخر ان الحرب شكل من الصراع بين الطبقة العاملة والمجتمع الاشتراكي من جهة وبين البرجوازية والمجتمع الرأسمالي ، وقد تفسر ستراتيجية التعايش السلمي على اعتبار رفضها

---

(4) For The Unity and Solidarity of The International Movement, Pravda, December. 6, 1963.

للحرب او تغيبها عن المجتمع الدولي . لكن هذا التفسير يسلب الماركيسية — اللينينية من اهم ركن فيها : الصراع الطبقي . وقد حاول الغربيون تجميد الحرب في مفهوم التعايش السلمي . بيد ان الواقع هو أن التعايش السلمي لا يعتبر مرحلة تخفيف سرعة اوحدة التنافس ولا حتى هدنة «هناك من يحاول تذويب فكرة التعايش السلمي لتعني رفض الحرب . لكن السلام والتعايش السلمي ليس نفس المعنى . فالتعايش السلمي لا يعني هدنة مؤقتة ومستقرة بين حربين ، بل شيئاً اخر اكثر تعقيدا» «٥» . ومع ذلك تبقى مشكلة تحديد طبيعة الحرب التي تغيب في اطار ستراتيجية التعايش السلمي ، هل هي حرب محدودة تقليدية أو حرب نووية عامة؟ يبدو ان الاتحاد السوفياتي يدرك خطورة خوض حرب نووية عامة ويعتقد بان الدول الرأسمالية قد تزج بالعالم الى حرب عالمية ثالثة . لذلك فمن ضرورة الوقت الراهن حرمان الغرب من هذه السياسة وذلك بفضل القوة السوفيتية النووية . «ان جوهر سياسة التعايش السلمي للانظمة المختلفة يكمن بالذات في اجبار الدول الكبرى على رفض الحرب كوسيلة في سياستها» «٦» .

وهنا تثار مسألة ايجاد الحلول الحاسمة للمشاكل الدولية وللخلافات بين الشرق والغرب ، فاذا كانت سياسة التعايش السلمي لا تجند الحرب كوسيلة فهل يمكن اللجوء الى المنظمة الدولية او الى اتفاقات ثنائية بين العملاقين او الى مؤتمرات دولية لوضع نهاية للصراع ؟ ان الاخذ بهذه الفكرة معناه تنازل السوفيت عن الفكر الماركسي — الليني وتحبيذهم فكرة التوفيق التي طالما نادى بها الغربيون وبالتالي السير مع الاستعمار ومع الاستغلال «ان التعايش السلمي لا يمت بصلة «للتوفيق» مع الاستعمار . وكونه شكلا من كفاح الطبقة العاملة فانه موجه نحو تسهيل التطور الاجتماعي وتعجيل الانهيار الحتمي للاستعمار

(5) H. Dona, "Peaceful Coexistence: A Basic Principle of the Foreign Plicy of the Rumanian Peoples Republic", Bucharst State Publishing House, 1963, p.2

(6) N.S. Khruschehov, "Message to the 19th International Conference in Hiroshima. 1963 .

نتيجة لهزيمته في الصراع الاقتصادى مع الاشتراكية . . . ان التعايش السلمي بالذات يخلق الشروط الملائمة للكفاح ضد الاستعمار في جميع اشكاله» «٧» . ومن هذه الشروط هي ان قوى النظام الاشتراكي تمنع الاستعماريين والكولونياليين من استغلال القدرة العسكرية في تمرير مصالحهم وذلك برفض السوفيت للحرب وتأييدهم للحركات التحررية في العالم الثالث فكفاح الشعوب المستعمرة ضد الامبرياليين ونيل الاستقلال يشكل حلقة مكملة للمرحلة الراهنة في التحول من الرأسمالية الى الاشتراكية ، وان من اهداف ستراتيجية التعايش السلمي تصعيد نضال الشعوب من اجل التحرر . فمن مهمات المعسكر الاشتراكي تسهيل عملية كفاح الشعوب المتطلعة للتحرر والاستقلال وذلك بمدها بالمعونات العسكرية ومنحها التأييد السياسي والمعنوي في المحافل الدولية «ان التعايش السلمي يخلق الظروف الملائمة لكفاح الشعوب المستعمرة ضد المستعمرين ، والتعايش السلمي يعني اقصى التأييد للشعوب المظلومة ومن ضمنها امدادهم بالسلاح» «٨» .

ان من اهداف المعسكر الاشتراكي هزيمة النظام الرأسمالي ، وبدون شك ان مشكلة كيفية تحقيق ذلك تستدعي البحث . فاذا كان النظام الرأسمالي عنيدا في مواقفه ومغامرا لدرجة الحرب العامة فما عسى الاتحاد السوفيتي ان يفعل ؟ فهل من الممكن التلاحم في الاهداف المتباينة لكلا النظامين المتضادين؟ وهل يمكن تنازل احد الاطراف عن مصالحه ، او ان يبدل اساليب سلوكه ؟ الاجابة على هذه الاسئلة تتطلب منا اولا التأكيد على أن ستراتيجية التعايش السلمي في نظر السوفيت لا تعني زوال الصراع الطبقي والتباين العقائدي كما يحلو لبعض الكتاب الرأسماليين ان يتصوروا القضية «كثير من الغربيين الذين يأخذون بفكرة التعايش السلمي بين الرأسمالية والاشتراكية يفسرونها بشكل

---

(7) D.Y. Melinkov, "Coexistence and the Struggle Against Imperialism, International Affairs, Moscow, August, 1963, P. 23.

(8) K. Oesterling and N. Freed, "Peace, Freedom and You", 1963, p. 15.

مخالف للموقف الماركسي . . . ويعطون تفسيرات عديدة لبعض المسائل كالعلاقة بين التعايش السلمي وتطور التناقضات الاجتماعية داخل المعسكر الرأسمالي ، وبين حركة السلام وكفاح الطبقة العاملة من اجل الاشتراكية . ومن الايديولوجيين الرأسماليين من يفسر التعايش السلمي كتوفيق بين الطبقتين المتطاحنتين ، البروليتارية والبرجوازية وبالتالي الى تلاشي الصراع في ايديولوجية الطبقتين المتناحرتين ، الاشتراكية والبرجوازية . اننا ننطلق من افتراض بأن التعايش السلمي بين النظامين لا يستثني ، بل على العكس ، يشمل تطورا في صراع الطبقة العاملة» «٩» . وبما ان ايديولوجية المعسكرين مختلفتان جوهريا فان التعايش السلمي لا يمت بصلة الى اهدافهما التي ترسمها الايديولوجية . وقد تذمر القادة السوفيت من-موقف المسئولين الغربيين الذين يرفضون فهم التعايش السلمي بانه لا يشمل الايديولوجية «في الغرب لا لا يريدون : او على الاقل لا يتظاهرون بأنهم لا يريدون فهم التعايش السلمي بين الدول المختلفة الانظمة الاجتماعية لا يعني التعايش السلمي في الايديولوجية نحن لم نكن نقبل ولا نقبل فكرة التعايش السلمي ايديولوجيا . فلا يمكن التوفيق هنا» «١٠» . اذا هل سيكسب المعسكر الاشتراكي حربه الباردة مع الدول الرأسمالية الاستعمارية خاصة وان الاتحاد السوفياتي اكد اكثر من مرة ، كما في احداث كوبا ، «بانه لا يرغب في الحرب ضد اى كان . فنحن لا نحتاج الى اراضي الاخرين ، ولا ثرواتهم » «١١» .

والجواب : نعم . ويمكننا اثبات ذلك من خلال موقف المسئولين السوفيت ورأى الكتاب . ان النظرية العسكرية السوفيتية تؤمن بحتمية النصر لقواها لانها تخوض حربا عادلة ضد حرب غير عادلة يشعلها الاستعماريون «وان حربا عالمية بين المعسكر الاشتراكي والاستعماري ستكون حربا عدوانية وغير عادلة من جانب الاستعمار . لكنها حرب تحرير وعادلة وحرب ثورة من جهة

(9) T.T. Timofeyev, "Aganist Distortion of the Class Nature of the Leninst Policy of Peaceful Coexistence", International affairs, Moscow, 1963, pp. 18 -19 .

(10) N. S. Khruschohov, "Current Soviet Documents, 1963, pp. 18.

(11) N. S. Khruschehov, "Speech of August, 1961 .

المعسكر الاشتراكي»«١٢» وتؤكد هذه النظرية الأسس الماركسية ــ اللينينيةالتي تهتدى بها ستراتيجية الاتحاد السوفياتي في الحرب الباردة «بتطويره للنظرية الماركسية في الحرب والجيش وضــع لنين في مؤلناتـــه الاسس التي يستند اليها الفكر السوفياتي العسكري . وأهمها الفرضية القائلة بان الحرب امتـــداد للسياســـة بواســـطة القوة . وسهلت هـــذه النظرية اكتشاف محتوى الحرب من خلال الاهداف التي تخدمها ودور الحرب في المجتمع واستنبط من ذلك مفهوم الحرب العادلة وغير العادلة» «١٣» .

ويعتبر المعسكر الاشتراكي التعايش السلمي نمطا من العلائق مع الدول الاستعمارية التي سيخذلها التاريخ على يد القوى الاشتراكية والدول المحبة للسلام . وان قوة محركة للتطور الثقافي والاجتماعي والسياسي في جميع انحاء العالم بحيث يدفع بالنظم الرأسمالية الى الانكماش والذوبان . وان وضعية حالة التعايش السلمي لا يمكن « ان تعني غياب الحرب وتتنفس الصعداء بين هجومين ، كلا . ان التعايش السلمي السياسة الايجابية والبناء التي تبعث التقدم الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي » «١٤» . ثم ان يقين القيادة السوفيتية في كسب المعركة يبدو جوهريا ، خاصة بعد وصول العلاقات الدولية في ظل السلاح النووى الى حالة التعادل «ليس بوسعنا سوى اليقين بتوجد نظامين ، وان نزاعا بينهما يدور . والمعركة معركة حياة او موت ، لكننا نرغب في النصر باقل خسارة . وليس هناك من شك في انتصارنا» «١٥» . وحتى اذا تأخر النصر ، فان العامل الزمني الى جانب الاشتراكية «الاشتراكية والسلام وحدة لا تتجزأ . . . . وفي مناخ التعايش السلمي فان عامل الزمن الى جانب الاشتراكية . ولهذا يرعب الايديولوجيون الغربيون من مفهوم

---

(12) Marshal C.D. Sokolovsky, "Military Strategy", p. 178.
(13) N. A. Lomov, "Soviet Military Doctrine, Moscow, 1963, p.5.
(14) I. Glagolev and C. Larinov, "Soviet Defence Mifgt and Peaceful Coexistence", International Affairs, Moscow, November, 1963, p. 33.
(15) N. S. Khruschehov, "Current Soviet Document", 1963.

التعايش السلمي» «١٦» .

وبهما تحاول قوى الامبريالية تمويع الصراع وزجه في زوايا ثانوية متناسية طبيعة الخلافات الجوهرية ومتخطية الحقيقة التاريخية ، فان الفكر السوفياتي يؤمن بامتناع تلاقي جرفي النهر في نقطة ما . ويأتي الرفض بعد المحاولات التي تجري في الفكر البرجوازي لبناء جسور بين العقيدتين متخذة من تشابه النمو التكنولوجي وبروز التكنوقراطية التي يعاني منها المجتمع المتصنع فوق العادة . «ان الايديولوجية البرجوازية مبنية على حقد الانسان والخداع لذلك لانستطيع التوفيق مع البرجوازية ، وللسبب نفسه نتكلم لغة تختلف ولن نجد لغة عامة مطلقا » «١٧» . ولاشك ان الدولتين العملاقتين تتجهان في مجالات متقاربة لدرء اخطار التطورات الهائلة في التكنولوجية ولتقييد جوانبها السلبية باللجوء الى اجراءات متفق عليها دوليا . ويمكن اعتبار هذه المحاولات بداية الطريق نحو رقابة دولية وسلطة عالمية تشرف على بعض النشاطات وبالتالي تبديل الحرب الباردة بالتعاون . لكن بالنسبة للسوفيت تبقى هذه اللقاآت مرحلية ولا تتعرض لجوهر الحقائق التي تحكم طبيعة العلائق بين النظامين «فان المفهوم التفائلي بالتقاء الرأسمالية مع الاشتراكية على صعيد واحد ماهو الاطوبائية من اولها الى اخرها . وسيأتي الوقت الذي تكون فيه حكومة عالمية ، لكنها حكومة المجتمع الاشتراكي» «١٨» .

---

(16) U. P. Kalygin, "The Magnetic Force of hte Leninist Ideas of Peaceful Coexistence" 'Internaional Affairs, Moscow, November. 1963, p. 24.

(17) A. Solodovniko, "Speaking Different Languages", International Affairs, Moscow, November, 1963, p. 53.

«١٨» نفس المصدر السابق ، ص ٤٨ .

القاضي الأديب منذر بن سعيد البلوطي

حازم عبد الله خضر

كثيراً ما يلحظ الباحث في الادب العربي صوراً متعددة من التحام علوم العربية وفنونها بعلوم القرآن الكريم واحكام الاسلام في مختلف نواحي حياة الفرد والمجتمع وذلك لاعتماد الاولى على الثانية واستمدادها المصادر الاولى والمنابع الاصيلة من جذورها واسسها.... فقد اثار القرآن الكريم بالفاظه ومعانيه واحكامه ونشرها في نفوس الادباء والعلماء الكثير من وجوه النظر والتأمل لفروع مختلفة من المعرفة وتاريخ الادب الاندلسي باعتباره ادباً عربياً صميماً في موضوعاته واساليبه والفاظه لم يخرج عن هذه القاعدة بل انه عبر عنها اصدق تعبير وانطلق منها في اكثر الدراسات والبحوث التي تناولت جوانب الثقافة الاندلسية في عصور مختلفة، وازاء هذا كان على كل من يتصدى لدراسة هذا الادب او دراسة جانب من جوانبه ان يتوقع ظهور الصلة القوية بين العلوم الشرعية والعلوم العربية وتعدد الصور المعبرة عن طبيعة هذه الصلة فمن فقيه اديب الى محدث حافظ خطيب، او مفكر ناجح وشاعر بليغ....

ولعل صورة الجمع بين الفقه والأدب من ابرز الصور واكثرها في تاريخ الادب الاندلسي فلا يكاد الباحث يمضي في تتبع ثقافة الاديب حتى تتبين له الخطوط الاساسية والقواعد الاولى لثقافته التي كونت شخصيته. صورة اديب فقيه فصيح اللسان قوي البيان يعالج امور الادب وفنونه الى جانب معالجته لامور الشرع ومتطلبات الفقه والقضاء .

على ان من نافلة القول التنويه بوجود هذه الصور في المشرق اذ ان نظرة سريعة في سير الفقهاء المشارقة وما كانوا عليه من فصاحة اللسان وقوة البيان،

مع العلم الوافر والفقه الواسع والاحاطة بالاحكام والتنظيمات الشرعية والقدرة على الاستنباط واصدار الفتيا.. كل هذا يبرز لنا هذه الحقيقة بوضوح وجلاء. حتى كان ابرز الفقهاء ممن يقولون الشعر ويحفظونه ويتأثرون به فضلا عن الخطب والرسائل وغيرها. ومن هؤلاء في المشرق الامام الشافعي الفقيه المشهور والاديب وصاحب ديوان في الشعر. «١» ومنهم في الاندلس ابن حزم الفقيه الظاهري المعروف وصاحب كتاب طوق الحمامة في الالفة والالاف. «٢» فضلا عن اشعاره المتناثرة في المصادر الاندلسية والمشرقية حتى عاده بعض الباحثين من اعلام الشعراء الاندلسيين . «٣»

منذر بن سعيد البلوطي :

والصفحات التالية تعرض — بشيء من التفصيل — لسيرة احد هؤلاء الاعلام في الاندلس. وهو القاضي الاديب منذر بن سعيد بن عبدالله بن عبد الرحمن بن قاسم بن عبدالله البلوطي، ثم الكزني من اهل قرطبة يكنى ابا الحكم وينسب في البربر في فخذ منهم يقال لهم «كزنة» «٤»

وتتفق المصادر جميعاً على ان ولادة منذر في قرية فحص البلوط القريبة من قرطبة واليها تعود نسبته . «٥»

ولا نجد خلافاً في اسم الرجل وكنيته، اما ولادته فقد ذكر انها كانت سنة ٢٧٢هـ أو ٢٧٣ وكانت وفاته قريباً من سنة ٣٥٥هـ «٦» كما اورد ذلك ابن الفرضي من القدامى وبالنثيا وحسين مؤنس وغيرهما من المحدثين. «٧»

«١» انظر تاريخ التشريع الاسلامي — في ثقافة الشافعي — ص ٢١٣ . وانظر ديوان الشافعي .

«٢» انظر كتاب طوق الحمامة في الالفة والالاف .

«٣» انظر قصة الادب في الاندلس — القسم الثاني — فصل من اعلام الشعراء الاندلسيين . ص ٢٤٥ — ٢٤٦ . وانظر كذلك كتاب الصلة لا بن بشكوال — ص ٤١٥ ، ٤١٧ ، ج ٢ . حيث اورد ترجمة له وطرفا من اشعاره .

«٤» تاريخ علماء الاندلس ، ابن الفرضي ، ص ١٤٤ .

«٥» صفة جزيرة الاندلس ، الحميرى ، ص ١٤٠ .

«٦» تاريخ علماء الاندلس ، ابن الفرضي ، ص ١٤٥ .

«٧» تاريخ الفكر الاندلسي ، ص ٤٣٩ ، وشيوخ العصر في الاندلس ص ٧٠ .

اما القول بأن تاريخ مولده سنة ٢٦٥ «١» فلم نجد له اثراً فيما وق
بايدينا من المصادر الاندلسية والمشرقية .

وايا ما كان هذا التاريخ فان المهم في الامر معرفة الفترة التي ولد في
منذر وهي فترة التمهيد لمجيء عبد الرحمن الناصر الذي كان عصره عص
ازدهار البلاد وتقدم الحضارة في مختلف الميادين .«٢»

ثقافته واقباله على طلب العلم :

يبدو ان ابا الحكم قد اقبل مبكراً على طلب العلوم وبخاصة العلو
العربية والشرعية فدرس على المشهورين من علماء الاندلس كعبد الله بن يحيى.
لكنه لم يكد يتجاوز العقد الثاني من عمره حتى نراه يتأهب للسفر الى المشرق
ويؤدي فريضة الحج ثم ينصرف الى طلب العلم في مكة المكرمة على ايد
مشاهير الفقهاء والعلماء امثال محمد بن المنذر النيسابوري الذي قرأ عليه كتا
المؤلف في اختلاف العلماء المسمى بالاشراف، ثم سافر الى مصر والتقى بعد
غير قليل من اعلام علمائها وفقهائها وفي مقدمتهم ابو جعفر النحاس، واب
ولاد وقد روى عن الاخير كتاب العين «٣» .

والذي يبدو لنا من الاشارات الكثيرة في المصادر الاندلسية ان ابا الحك
«..كان غزير العلم كثير الادب متكلماً بالحق متبيناً بالصدق، له كتب
ومؤلفات في السنة والقرآن والورع والرد على اهل البدع ..» «٤». ولكن لم يصا
من هذه الكتب شيء كامل مطبوع سوى مقطعات من الابيات الشعرية وخطب
المشهورة بين يدي الناصر ونماذج اخرى في الحوار وغيره .

ومن هذه النماذج يظهر لنا منذر بن سعيد العالم المثقف والفقيه الاديب
وطالب العلم الحريص على طلبه لا يبالي تعباً او نصباً ولا يشعر ان للعقبات
أثراً على صاحب الهمة، قوي الارادة والعزيمة .

«١» قرطبة في التاريخ الاسلامي ، ص ١١٣ .
«٢» انظر الفن ومذاهبه في النثر العربي ، د . شوقي ضيف ، ص ٣١٧ .
«٣» صفة جزيرة الاندلس ، الحميري ، ص ١٤٠ .
«٤» مطمح الانفس ، ص

واذا كان منذر واحداً من كثيرين هاجروا من الاندلس لطلب العلم ثم عادوا بعلم غزير وادراك واسع وافق رحب، فانه من ابرزهم وارجحهم ذكاء وفطنة وعلماً ودراية .

وليس ادل من ذلك على حرصه على نقل الاثار المشرقية المهمة الى الاندلس وعدم اكتفائه بقراءتها والاطلاع عليها. فقد كان حريصاً على نشر العلم واشاعته والافادة من تجارب الاخرين واثارهم العلمية. «١»

ويقضي ابو الحكم اكثر من ثلاث سنين في رحلته العلمية يعود بعدها الى الاندلس وقد نضج علمه واتسع افق تفكيره واطلع على الكثير من المصادر والاثار المشرقية التي لا تتوفر في الاندلس.

ونلمح في بعض المصادر التي ترجمت لمنذر بن سعيد انها تشير الى مذهبه في الفقه ذلك المذهب الذي يعتمد المناظرة والجدل ويرفض التقليد، ونلاحظ ان ابن الفرضي يذهب الى ابعد من هذا حين يصفه بانه «كان عالماً باختلاف العلماء وكان يميل الى رأي داود بن علي بن خلف العباسي..» «٢» ومعنى ذلك ان ابا الحكم كان ظاهرياً حتى عده صاحب الفكر الاندلسي «اول ظاهري نافح في سبيل المذهب، من اهل الاندلس...» «٣» وذلك بعد ان اشار الى اعتناقه وتبنيه لاقوال ابن مسرة المعتزلي والملاحظ من تتبع سيرة المنذر بن سعيد ان ثقافته وفقهه يميلان الى القول بالظاهر والميل الى شيء من الجدل وعلم الكلام» .

ولا يستبعد ان يكون قد عانى بعض الصعوبات من عامة الناس الذين ينفرون من الجدل ويمقتون التكلف، ويؤثرون عليهما الوضوح والسهولة. ولعل مما يؤيد هذا ما ورد في صفة جزيرة الاندلس على لسان منذر نفسه يصف موقف الناس من ارائه ووجهات نظره ، قال الحميري :

«١» انظر كتاب الحركة اللغوية في الاندلس منذ الفتح حتى نهاية عصر ملوك الطوائف . ص ٥٦ ، ٦٢ ، ٦٣ ، وغيرها .

«٢» تاريخ علماء الاندلس ، ابن الفرضي ، ص ١٤٤ .

«٣» تاريخ الفكر الاندلسي ، ص ٤٣٩ .

«وكان نظاراً لا يقنع بالتقليد ومن قوله في استنصار هذه الفرقة«طويل»

عذيرى من قوم اذا ما سالتهم دليلا يقولوا هكذا قال مالل
فان زدت قالوا قال سحنون مثله وقد كان لا تخفى عليه المسالل
فان قلت قال الله ضجوا او اعدلوا علي وقالوا انت خصم مماحك«ا

ومهما يكن من شأن عقيدة ابي الحكم وما ورد حولها من اشارا
على لسانه او لسان غيره كالميل الى المذهب الظاهري والقول ببعض الامو
التي فهم منها البعض مخالفة لاسس العقيدة الاسلامية او الفكر الاسلام
بصورة عامة.حتى قال عنه الفرضي «انه كان ينحل في اعتقاده..» «٢» تقو
مهما يكن من امر هذه الشكوك والريب في فكره وسيرته فانها لا توجب اساء
الظن به نظراً لما صدر عنه من مواقف وفتاوى وتصرفات في القضاء والاماه
وجوانب حياته الاخرى واذا تذكرنا انه كان من المقربين للخليفة الناص
وابنه من بعده«وعلو مكانته التي لم يرتق اليها اي من العلماء او الفقهاء المعاصرير
له..» «٣».ادركنا قيمة تلك الشكوك وما ينبغي ان تكون عليه من النظر المتحفظ
والاقتصاد في الحكم.اذ ليس من المعقول ان يقرب الناصر شخصاً مزعز
العقيدة متهماً من الناس في عقيدته.ويجعله قاضي المسلمين وامامهم في الصلا
في اكبر جوامع قرطبة .

منذر بن سعيد الأديب :

ونحاول الان ان ننظر في الجانب الاول من جانبي ثقافة هذا الاديب
الفقيه انه جانب الادب شعراً ونثراً،والمصادر التي تعرضت لمنذر تكاد تجمع
على انه اديب بليغ وخطيب معروف،فصيح اللسان،قوي الحجة،يؤثر في
سامعيه حتى يكاد يخلب البابهم بما يلقيه من الكلام العذب الرقيق مع نبرات
مؤثرة ومخارج للحروف واضحة...يصفه ابن الفرضي فيقول: «..كان خطيب

«١» صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٤٢ .
«٢» تاريخ علماء الاندلس ، ص ١٤٥ .
«٣» شيوخ العصر في قرطبة ، مؤنس ، ص ٧٠ ، ٧١ .

بليغاً شاعراً». «١» ويعرف به الحميري بانه «كان متفننا في ضروب العلوم وكانت له رحلة لقي فيها جماعة من العلماء في الفقه واللغة، وكان كثير المناقب والخصال الحميدة غير مدافع مع ثبات الجنان وجهارة الصوت..». «٢»

اما المحدثون فانهم لم يكونوا اقل عناية وحرصاً على ابراز بلاغة ابي الحكم وفضله وتضلعه بالادب شعراً ونثراً من القدامى، فقد اثنى عليه اكثرهم واستشهدوا على بلاغته بنصوص عديدة مما اوردته بعض المصادر القديمة، حتى كان في نظرهم احد البارزين المشهورين بفصاحة اللسان والقدرة على التصرف في فنون القول والاستشهاد بالشعر في مختلف المناسبات.

اما الخطابة فكان ابن بجدتها وفارس حلبتها تشهد له المنابر والاحفال... «٣» لكن المؤسف حقاً ان آثار ابي الحكم الادبية والفقهية ليست بالقدر الكافي الذي يتناسب وشهرته وما وصف به من صفات البلاغة والعلم، ومع ذلك فان ما وصلنا من آثاره الادبية والعلمية — وإن كان قليلا — يمكن ان يعطي فكرة عن ادبه ويلفت النظر الى مكانته وفضله....

ومن الاشارات التي اوردتها المصادر مثلا على ادبه وبلاغته، مجموعات من الابيات، في مناسبات واغراض مختلفة....

لقي ابا جعفر احمد بن محمد بن النحاس النحوي بمصر وكان من مواقفه العلمية والثقافية معه، هذه الحكاية المشهورة: فقد حضر مجلسه في الاملاء، فاملى ابو جعفر في جملة ما املى قول الشاعر:

خليلي هل بالشام عين حزينة تبكي على ليلى لعلي اعينها
قد اسلمها الباكون الا حمامة مطوقة باتت وبات قرينها
تجاذبها اخرى على خيزرانة يكاد يدانيها من الارض لينها

فقال له منذر بن سعيد: ايها الشيخ — اعزك الله — باتا يصنعان ماذا؟ فقال

«١» تاريخ علماء الاندلس، ص ١٤٥.
«٢» صفة جزيرة الاندلس، ص ١٤٠.
«٣» قرطبة في التاريخ الاسلامي، ص ١١٣. وتاريخ الادب العربي، الفاخوري، ص ٨٢٨. وتاريخ الفكر الاندلسي، ص ٢٠١.

ابو جعفر: فكيف تقول انت؟فقال له منذر :

بانت وبان قرينها...فاستبان ابو جعفر ما قال...».«١»ومع ان هذه الحادثة لا تورد لنا شعراً لمنذر بن سعيد فان دلالاتها الواضحة على ثقافته وسعة اطلاعه ودرجة حفظه لا تنكر وهو بعد طالب علم...

وقراءة منذر للشطر الثاني من البيت الثاني بالنون — فيما نرى — صائبة معقولة ومعبرة عن المعنى ومنسجمة معه، حتى وجدنا ابا جعفر قد اقره على ذلك بسكوته وموافقته، ولو كان يعرف رايا صحيحاً غير هذا او كان متأكداً من رأيه الاول لانكر على منذر قوله وخطأه. ويحكي عن نفسه فيقول: كتبت الى ابي علي البغدادي استعير منه كتاباً من الغريب :

بحق ريم مهفهف وصدغه المتعطف
ابعث الي بجزء من الغريب المصنف

فلما وصلت الرقعة اليه قضى حاجتي واجابني بقوله :

وحق در تألف بفيك اي تألف
لابعثن بما قد حوى الغريب المصنف
ولو بعثت بنفسي اليك ما كنت اسرف «٢»

وفي هذه الابيات دليل على ممارسة منذر للشعر ونظمه له، فضلا عن مكانته الثقافية وشهرته حتى كان — كما اشارت الحادثة — يخاطب القالي — اباعلي — طالباً جزءاً من كتاب في نظمه ويجاريه ابو علي فيجيبه نظماً وبنفس القافية والوزن .

وتذكر المصادر بعض نوادره التي تدل على سرعة خاطره وحدة ذكائه وروحه المرحة وتمكنه من الجواب، فقد كتب اليه بعض الادباء هذين البيتين :

مسألة جئتك مستفتياً عنها وانت العالم المستشار
علام تحمر وجوه الظبا واوجه العشاق فيها اصفرار

«١» جذوة المقتبس ، الحميدى ، ص ٣٤٩ .

«٢» نفخ الطيب ، ج ٢ ، ص ٢٢٧ . وقرطبة في التاريخ الاسلامي ، ص ١٢١ ، ١٢٢ .

فأجابه منذر :

احمر وجه الظبي اذ لحظه سيف على العشاق فيه احورار
واصفر وجه الصب لما نأى والشمس تبقى للمغيب اصفرار «١»

ونلاحظ هنا شيئاً من قدرة منذر على النظم بجواب يسير على نفس الوزن والقافية التي سار عليها السؤال مع التأكيد على ختم الجواب بنفس اللفظة التي ختم بها السؤال .

ومن الابيات التي وردت في بعض المصادر الاندلسية قوله في الزهد بالدنيا والحث على النظر الصحيح اليها والاستفادة من عبر الدهر ومصائبه والبعد عن اذاعة الشر ونشره بين الناس فما اكثر الحساد والمبغضين فيهم وما اقل الناجين من حسدهم وبغضهم....

الموت حوض وكلنا نرد لم ينج مما يخافه احد
فلا تكن مغرماً برزق غد فلست تدرى بما يجيء غد
وخذ من الدهر ما اتاك به ويسلم الروح منك والجسد
والخير والشر لا تذعه فما في الناس الا التشنيع والحسد «٢»

وله وقد آذاه شخص فخاطبه بالكنية فقيل له: أيؤذيك وانت تخاطبه بالكنية ؟ فقال :

لا تعجبوا في انني كنيته من بعد ما قد سبنا واذانا
فالله كنى ابا لهب وما كناه الا خزية وهـــوانا «٣»

ونجد في هذه الابيات سرعة البديهة وصياغة المعاني الفقهية والقرآنية شعراً.... وهناك ابيات اخرى في الزهد لعلها اوضح في ابراز شاعرية منذر وفضله في الادب مما سبق من النماذج الشعرية يقول في ذلك :

كم تصابى وقد علاك المشيب وتعامى عمداً وانت اللبيب
كيف تلهو وقد اتاك نذير ان سيأتي الحمام منك قريب

«١» نفح الطيب ج ٢ ، ص ٢٢٩ . قرطبة في التاريخ الاسلامي .

«٢» نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٣٥٠ .

«٣» نفح الطيب ، ج ١ ص ٣٥١ .

يا سفيها قد حان منه رحيل بعد ذاك الرحيل يوم عصيب
ان للموت سكرة فارتقبها لا يداوى اذا اتتك طبيب
كم توانى حتى تصير رهيناً ثم تأتيك دعوة فتجيب
بامور المعاد انت عليم فاعملن جاهداً له يا ربيب
وتذكر يوماً تحاسب فيه ان من يذكر فسوف ينيب
ليس من ساعة من الدهر الا للمنايا بها عليك رقيب «١»

والمتأمل في هذه الابيات يلحظ بسهولة ويسر صوغ المعاني الفقهية والقرآنية ببراعة ومقدرة فاللاهو لا يناسب من انذر وذكر. والمتأهب لسفر طويل لا ينبغي له ان يغفل عن زاده وعدته في ذلك السفر..اما سكرة الموت فلا دواء لها اذا حان وقتها، فما ينبغي للعاقل ان يلهو او يغفل بل عليه ان يستعد ويعمل ثم يرجع الى الله بالتوبة النصوح والقلب السليم....

ومع ان اكثر هذه المعاني قديم متداول لكن اسلوب عرضها والصور الجزئية في ابراز ثناياها بصور مؤثرة بارعة ابرزها وكأنها من الجديد المبتكر...

على ان ابرز المناسبات الادبية فيما وصلنا من آثار منذر تلك التي قال فيها الشعر الى جانب النثر، وقد كانت مقدمة لقربه من السلطان وتكليفه بعد ذلك بالصلاة في المسجد الجامع ثم توليته القضاء من قبل الناصر وذلك ان الحكم المستنصر — ولده — كان مشغوفاً بابي علي القالي صاحب النوادر يؤهله لكل مهم في بابه ، فلما ورد رسول ملك الروم امره عند دخول الرسول الحضرة ان يقوم خطيباً بما كانت العادة جارية به فلما كان ذلك الوقت وشاهد ابو علي الجمع وعاين الحفل جبن ولم تحمله رجلاه ولا ساعده لسانه، وفطن ابو الحكم منذر بن سعيد فوثب وقام مقامه وارتجل خطبة بليغة على غير اهبة وانشد لنفسه في آخرها :

هذا المقام الذي ما عابه فند لكن صاحبه ازرى به البلد
لو كنت فيهم غريباً كنت مطرفا لكنني منهم فاغتالني النكد

« ١ » مطمح الانفس ، ومسرح التأنس ، ص

لولا الخلافة ابقى الله مهجتها ما كنت ابقى بارض ما بها احد

«قالوا: كأنه عرض بابي علي القالي وتقديمهم اياه في هذا المقام، والله اعلم....» «١» ثم يمسك المراكشي عن ذكر نص الخطبة التي ارتجلها ابو الحكم في حين يذكرها المقرى مفصلة مطولة «٢».

ولعل من اسباب ذلك ميل الاول- صاحب المعجب- للايجاز واختصار الحوادث بحكم طبيعة مؤلفه الذي جنح فيه الى الاختصار وتجنب التفاصيل وطبيعة المؤلف الثاني- النفح- الذي يعتمد التفصيل في ذكره الحوادث، ومتابعـة جزئيات الاخبار التاريخيـة في الفترات المختلفة من حياة المسلمين في الاندلس. والمتأمل في خطبة منذر هذه يرى انها سائرة على نهج الخطباء والكتاب الاندلسيين الذين كانوا يتأسون خطى المشارقة في هذه الفترة مع ظهور بعض الخصائص والسمات المحلية التي تناسب فترة الخلافة من العناية بالبدء والموضوع والختام... فكثرت الالقاب والجمل الدعائية المفخمة والاعتبارات الاعتراضية المعظمة. «٣»

ويفتتح منذر خطبته بمقدمة تقليدية مليئة بالحمد والثناء على الله تعالى والصلاة على نبيه صلى الله عليه وسلم. ثم يعرج بالثناء على الخليفة والاشارة بعهده الزاهر وسعادة الناس به. وتقلبهم بنعيم الامن والاستقرار والطمأنينة بعد ان وطد لهم الخليفة اركان الدولة وصد عنها الاعداء المغيرين في الخارج والثائرين المتمردين في الداخل.

ويمضي ابن سعيد في سرد المعاني حتى يختم خطبته بدعوة الناس الى مناصحة امامهم والصدق في القول والعمل وجمع الكلمة ورأب الصدع. وبعد ان ينقل المقرى صاحب النفح صورة اخرى للحادث وخبر هذه الخطبة

«١» المعجب، ص ٥٥.

«٢» انظر نفح الطيب، ج ١، ص ٣٤٢، ٣٤٨، نص الخطبة المشـار اليها. وقد امسكنا عن ايراد نصها بعدا عن الاطناب، ولما تقتضيه طبيعة هذا البحث. ويمكن الاطلاع عليها في النفح كما اشرنا.

«٣» تاريخ الادب الاندلسي، د. هيكل.

ونتائجها على منذر نفسه يورد له ابياتاً اخرى على ان ابا الحكم قد قالها في هذه الواقعة فيقول:

ومن شعره في هذه الواقعة قوله :

مقالي كحد السيف وسط المحافل ... فرقت به ما بين حق وباطل
بقلب ذكي ترتمي جمراته ... كبارق رعد عند رعش الانامل
فما دحضت رجلي ولا زل مقولي ... ولا طاش عقلي يوم تلك الزلازل
وقد حدقت حولي عيون اخالها ... كمثل سهام اثبتت في المقاتل
لخير امام كان او هو كائن ... لمقتبل او في العصور الاوائل
ترى الناس افواجاً يؤمون بابه ... وكلهم ما بين راج وآمل
وفود ملوك الروم وسط فنائه ... مخافة بأس او رجاء لقائل
فعش سالماً اقصى حياة مؤملا ... فانت رجاء الكل حاف وناعل«١»
ستملكها ما بين شرق ومغرب ... الى درب قسطنطين أو ارض بابل

ولعل هذه الابيات اصدق تعبيراً عن شاعرية منذر وموهبته واشد لصوقاً في التعبير عن حادث القائه الخطبة المذكورة وقوفه بين يدي ذلك الخليفة الكبير وضيوفه الممثلين لامبراطور الروم. وبخاصة وان منذر قد ارتجل الخطبة وارتجل الابيات بعدها «٢» .

وفي الابيات اشارات واضحة الى الفخر بنفسه والشعور بالزهو والتفوق على حاسديه الذين اغاظهم موقفه الموفق في اشد اللحظات حراجة وضيقا.

ومع ذلك فانه لا ينسى ان يختم هذه الابيات بمديح الخليفة وتصوير ما كان يتمتع به من قوة وسلطان حتى صار قصره مقصد الزوار والوفود الممثلين لدول عظمى كبيرة .

وهكذا يستطيع المرء ان يقرر بمزيد من الثقةوالاطمئنان ان هذا الاديب كان يمارس النثر والشعر بأساليب واغراض عديدة متنوعة لم يقتصر فيها

«١» نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٣٤٩ ، ٣٥٠ .

«٢» مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، ص ، محمد عبد الله عنان . الطبعة الرابعة ، ١٩٦٢ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

على موضوع واحد او تصوير جانب معين... مما حدا بالكثيرين ممن ترجموا له بان يصفوه بأوصاف البراعة الادبية والقدرة البيانية والبلاغية. فهو «شاعر بليغ..» «١» «وكان عالماً فقيهاً بليغاً وخطيباً على المنابر مصقعاً» «٢» كما ذكره البعض في معرض الحديث عن الخطابة في الاندلس حين سمت الخطابة في فترة الخلافة على انه من مشهوري الخطباء. «٣» او انه «علم من اعلام الفكر الاندلسي ...» «٤»

واذا كانت الاوصاف تتسم بشيء من المبالغة في الحكم على ابي الحكم ومحاولة وصفه باوصاف النبوغ والتفوق والشهرة في العلم والأدب فان اقل ما تفضي اليه التنويه بمكانة منذر في الادب وانه كان يشغل حيزا مهما واضحاً في الادباء والعلماء....

منذر والقضاء :

تجمع المصادر على ان حياة منذر القضائية تبدأ بانتهاء خطبته المعهودة وارفضاض الحفل الذي القيت فيه، فقد انتبه الناصر الى وجوب تقريبه بعد الذي اعجبه من حسن تصرفه وقوة بيانه وفصاحة لسانه فقال لابنه الحكم: «....والله لقد احسن ما شاء ولئن اخرني الله بعد لارفعن من ذكره، فضع يدك يا حكم عليه واستخلصه وذكرني بشأنه فما للصنيعة مذهب عنه ثم ولاه الصلاة والخطابة في المسجد الجامع بالزهراء، ثم ولاه قضاء الجماعة بقرطبة، ولما توفي الناصر وولي ابنه الحكم اقره على القضاء واستعفى غير مرة فما اعفاه» «٥»

ومن هنا تبدو لنا اولى سمات الجانب الاخر من حياة منذر بن سعيد... جانب الفقه والقضاء، وان شئنا قلنا جانب التطبيق العملي للعلوم والمعارف العربية والشرعية التي حصل عليها في دراساته الكثيرة في الاندلس والمشرق..

«١» نفح الطيب، ج ١، ص ٣٤٨. وتاريخ علماء الاندلس، ابن الفرضي، ص ١٤٥.
«٢» جذوة المقتبس، ص ٣٤٨.
«٣» تاريخ الادب العربي، الفاخوري، ص ٨٢٨.
«٤» رحلة الاندلس -١- حديث الفردوس الموعود، د. حسين مؤنس، ص ٧٩.
«٥» المعجب، ص ٥٦.

وفي الخبر الذي تضمن استقضاءه على قرطبة بعد توليه الخطابة والصلاة بالزهراء ما يفيدانه طلب ان يعفى من مهمة القضاء، واكبر الظن ان هذا كان تورعاً وخوفاً من الوقوع في مأثم او خطأ مع ان منصب قاضي الجماعة يعني قاضي القضاة او رئيس القضاة المشرف على قضاة الاقاليم وغيرهم «١».

على ان رفضه هذا قد لا يكون له من الاهمية ما يذكر الى جانب مواقفه الجريئة وتصرفاته المحمودة في القضاء غير متأثر بسلطة الخليفة او من يليه، بل كان رائده الحق وهدفه رفع الظلم عن كل مظلوم يصله امر مظلمته، مما زاده اكباراً واجلالاً في نفس الخليفة الناصر في مواقف كثيرة وحرص على الاحتفاظ به حتى بعد المواقف الحرجة التي تعرض لها الخليفة من قاضيه- كما سنرى-.

ولعل من نافلة القول ان نذكر بأن الكثيرين من الفقهاء المسلمين في عصور مختلفة رفضوا القضاء- تورعاً وبعدا عن تدخل السلطان- وحين قبله بعضهم كانت له المواقف الجريئة التي وضعت الحق في نصابه وانقذت اناساً كثيرين من براثن الاعتداء والتسلط وتاريخ القضاء الاسلامي حافل بمثل هذه المواقف وقد اوردت كتب الفقه والشريعة اسماء عدد غير قليل من مشهوري العلماء والفقهاء رفضوا التكليف بالقضاء واصروا على الرفض حتى ضربوا عليه كالامام ابي حنيفة والامام احمد وغيرهما «٢».

ان تاريخ منذر بن سعيد في القضاء تاريخ حافل بالمآثر الطيبة والمواقف الجريئة الحازمة التي انتصر فيها للحق ولم يخف في الله لومة لائم فكان مثال القاضي الناصح والحاكم العادل الذي لا يرهبه سوط ولا يخيفه تهديد لقد كانت مواقف منذر الجريئة امام اقوى حاكم واعظم خليفة في الاندلس شرفاً ومكرمة له فقد لقي الناصر «معارضة قوية تزعمها رجل اشتهر بالورع والتقوى والتفقه في الدين هو المنذر بن سعيد البلوطي ....» «٣». وهذه المعارضة التي اشار اليها

«١» انظر قضاة قرطبة للخشني، ص ٣.

«٢» انظر مثلا: تاريخ التشريع الاسلامي، ص ١٩٤ / ١٩٥.

«٣» تاريخ الاسلام السياسي، والديني والثقافي والاجتماعي، ج ٣ ص ٤٢٠.

الدكتور حسن ابراهيم حسن تتعلق بحادثة ذكرتها معظم المصادر الاندلسية والمشرقية، فقد «.. كان الناصر كلفا بعمارة الارض واقامة معالمها وانبساط مجاهلها واستجلابها من ابعد بقاعها وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك وعزة السلطان وعلو الهمة فأفضى به الاغراق في ذلك الى ان ابتنى مدينة الزهراء البناء الشائع ذكره الذائع خبره المنتشر صيته في الارض واستفرغ جهده في تنميقها واتقان قصورها وزخرفة مصانعها وانهمك في ذلك حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع الذي اتخذه ثلاث جمع متواليات، فاراد القاضي منذر ان يغض منه بما يتناوله من الموعظة بفصل الخطاب والحكمة والتذكير بالانابة والرجوع، فابتدأ في اول خطبته بقوله تعالى: «اتبنون بكل ريع». الى قوله تعالى «من الواعظين...»). ثم وصله بقوله « فمتاع الدنيا قليل والاخرة خير لمن اتقى ؛ وهي دار القرار ومكان الجزاء، ومضى في ذم تشييد البنيان والاستغراق في زخرفته والاسراف في الانفاق عليه بكل كلام جزل وقول فصل، قال الحاكي فجرى فيه طلقاً وانتزع فيه قوله تعالى: «افمن اسس بنيانه.. الى اخر الاية»، واتى بما يشاكل المعنى من التخويف بالموت والتحذير من فجأته والدعاء في الزهد في هذه الدار الفانية والحض على اعتزالها والرفض لها والندب الى الاعراض عنها والاقصار عن طلب اللذات ونهي النفس عن اتباع هواها فاسهب في ذلك كله واضاف اليه من آى القرآن ما يطابقه، وجلب من الحديث والاثر ما يشاكله حتى اذكر من حضره من الناس، وخشعوا ورقوا واعترفوا وبكوا وضجوا ودعوا واعلنوا التضرع الى الله تعالى في التوبة والابتهال في المغفرة واخذ خليفتهم من ذلك باوفر حظ، وقد علم انه المقصود به فبكى وندم على ما سلف له من فرطه واستعاذ الله من سخطه الا انه وجد على منذر لغلظ ما قرعه به فشكا ذلك لولده الحكم بعد انصراف منذر وقال: والله لقد تعمدني منذر بخطبته وما عني بها غيرى فاسرف علي وافرط في تقريعي وتفزيعي ولم يحسن السياسة في وعظي فزعزع قلبي وكاد بعصاه يقرعني، واستشاط «غيظاً عليه» فاقسم ان لا يصلي خلفه صلاة الجمعة خاصة، فجعل يلتزم صلاتها وراء احمد بن مطرف صاحب الصلاة بقرطبة، وبجانب الصلاة

بالزهراء، وقال له الحكم: فما الذي يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك والاستبدال بغيره منه اذ كرهته، فزجره وانتهره وقال له: امثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه لا ام لك يعزل لأرضاء نفس ناكبة عن الرشد سالكة غير القصد؟ هذا ما لا يكون واني لاستحيي من الله ان لااجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعاً مثل منذر في ورعه وصدقه ولكنه احرجني فاقسمت ولوددت اني اجد سبيلا الى كفارة يميني بملكي.. بل يصلي بالناس حياته وحياتنا ان شاء الله تعالى فما أظننا نعتاض منه ابدا...«١»

وهذا الخبر المفصل الطويل الذي اورده المقرى ذو دلالات كثيرة بالنسبة للقاضي منذر وبالنسبة للخليفة الناصر على حد سواء، والحق ان المرء يكاد يعجز عن ترجيح احدهما على الاخر فكل منهما جريء في الحق واقف عند حدوده، فالقاضي يعظ الخليفة ويخوفه الله ويسمعه كلمة الحق بكل جرأة وصراحة ولا يدخر وسعا في نصحه ، والخليفة رحب الصدر مرهف الحس متيقظ الضمير شديد الخوف من الله والحوار الاخير بين الناصر وابنه الحكم حين دعاه الاخير الى عزله خير دليل على النفس الأبية الكريمة التي انطوى عليها هذا الخليفة مع ما كان عليه من قوة السلطان وعلو الشأن وما حققه لبلاده من الخير والرفاه والاستقرار والثراء...

ويورد صاحب النفح المزيد من الامثلة بل الأدلة والشواهد الساطعة على جرأة هذا القاضي وقوله الحق من غير تردد او تباطؤ من ذلك: «ان الناصر اتخذ لسطح القبيبة المصغرة الاسم للخصوصية التي كانت مائلة على الصرح الممرد المشهور شأنه بقصر الزهراء قراميد ذهب وفضة انفق عليها مالاجسيماً وقرمد سقفها صفراء فاقعة الى بيضاء ناصعة تستلب الابصار باشعة نورها وجلس فيها اثر تمامها يوما لاهل مملكته فقال لقرابته ومن حضر من الوزراء واهل الخدمة مفتخراً عليهم بما صنعه من ذلك مع ما يتصل به من البدائع الفتانة: هل رأيتم او سمعتم ملكاً كان قبلي فعل مثل هذا او قدر عليه؟ فقالوا: لا والله يا أمير المؤمنين وانك لاوحد في شأنك كله، وما سبقك الى مبتدعاتك هذه ملك

«١» انظر المغرب في حلى المغرب، ج ١، ص ١٨٣ : حيث اورد الخبر مختصرا . ونفح الطيب، ج ٢، ص ١٠٥، ١٠٦ حيث اورد الخبر اكثر تفصيلا . وتاريخ الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة، ص ٢٦٤، ٢٦٥ .

رأيناه ولا انتهى الينا خبره فأبهجه قولهم وسره وبينما هو كذلك اذ دخل عليه منذر بن سعيد وهو ناكس الرأس، فلما اخذ مجلسه قال له الذي قال لوزرائه من ذكر السقف المذهب واقتداره على ابداعه فاقبلت دموع القاضي تنحدر على لحيته وقال له: والله يا امير المؤمنين ما ظننت ان الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ ولا ان تمكنه من قيادك هذا التمكن مع ما آتاك الله من فضله ونعمته وفضلك به على العالمين حتى ينزلك منازل الكافرين، قال: فانفعل عبد الرحمن لقوله وقال له: انظر ما تقول وكيف انزلتني منزلتهم؟ قال: نعم. اليس الله تعالى يقول: «ولولا ان يكون الناس امة واحدة... الاية». فوجم الخليفة واطرق مليا ودموعه تتساقط خشوعا لله تعالى «قال الحاكي» ثم اقبل على منذر وقال له: جزاك الله يا قاضي عنا وعن نفسك خيرا، وعن الدين والمسلمين اجل جزائه وكثر في الناس امثالك فالذي قلت هو الحق، وقام عن مجلسه ذلك وهو يستغفر الله تعالى وامر بنقض سقف القبيبة واعاد قرمدها ترابا على صفة غيرها. «١»

ومرة اخرى يحار الباحث في تقويم موقفي القاضي والخليفة.. يحار بين موقف قاض جريء يقول الحق بعيداً كل البعد عن المداهنة والتملق مجانباً الاخلاق بطانة السوء التي لا تفتأر تقلب الحقائق وتموه على الحاكم الامور رغبة في ارضائه ورهبة من مخالفته او ازعاجه.... وخليفة يسمع كلمة الحق قاسية مرة فيتقبلها بصدر رحب وأفق واسع وصبر وجلد ويشكر على النصيحة ويثيب صاحبها ويكبر فيه هذه الخصلة الشريفة العظيمة التي هي قوام الملك ودعامة السلطان العادل ولا يكتفي بذلك بل يدعو للقاضي بالخير وان يكثر الله من امثاله في الناس ليسدي النصح خالصاً واضحاً حقاً لا لبس فيه ولا غموض ولا تردد معه ولا خوف من اسدائه.

«١» في تفاصيل عن الناصر انظر في الاسلام والحضارة العربية، محمد كرد علي ج ٢، ص ٤٦٨، ٤٦٩.
والمغرب في حلى المغرب، ج ١، ص١٨١ باختصار. وتاريخ الاندلس السياسي والعمراني والاجتماعي ص. ص ٢٠٧.

انها العقيدة الاسلامية التي ربت هذه النفوس وعلمتها ان قول الحق واجب وان سماعه والعمل به والوقوف عنده اوجب لتستقيم الامور وترد الحقوق الى اصحابها ولا يتجاوز انسان قدره مهما كان مركزه في المجتمع فالناس امام الحق سواء والنصح لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم «١» .

ولنرجع بعد هذا الى موقف آخر من مواقف هذا القاضي الجريء امام الخليفة... حضر معه يوماً في الزهراء، فقام الرئيس ابوعثمان بن ادريس فانشد الناصر قصيدة منها :

سيشهد ما ابقيت انك لم تكن مضيعاً وقد مكنت للدين والدنيا
فبالجامع المعمور للعلم والتقى وبالزهرة الزهراء للملك والعليا

فاهتز الناصر وابتهج واطرق منذر بن سعيد ساعة ثم قام منشداً:

يا باني الزهراء مستغرقـــا اوقـــاته فيها امـــا تمهل
لله ما احسنـــها رونقـــا لو لم تكن زهرتها تذبل

فقال الناصر : اذا هب عليها نسيم التذكار والحنين وسقتها مدامع الخشوع يا ابا الحكم لا تذبل ان شاء الله تعالى فقال منذر : اللهم اشهد اني قد بثثت ما عندي ولم آل نصحاً «٢» .

ومع ان هذه الحادثة دليل اخر على جرأة هذا القاضي وقوله الحق فانها دليل كذلك على حرصه على اسداء النصح في كل وقت يراه مناسباً مع سلوك السبل العديدة الملائمة والمتنوعة بين الشدة واللين والنثر والشعر وغيره ..

على ان مواقف منذر بن سعيد لاتتمثل فقط بوعظ الناصر وتذكيره ومحاولةرده الى الحق كلما بدا انهسينحرف او زيغ بل تتعداه الى المواقف القضائية الجريئةوبخاصة تلكالتي تعيد لفرد او افراد من الرعيةحقاً مهدرا او مالا مسلوباً او ملكاً مغتصباً . » .. ومن مشهور ما جرى له في ذلك قصته في ايتام اخي نجدة وحدث بها جماعة من اهل العلم والرواية . وهي ان الخليفة الناصر

«١» بلوغ المرام ، انظر الحديث الذى اخرجه مسلم .ص٢٧٢ .
«٢» نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١١٠ . وانظر قرطبة في التاريخ الاسلامي ، ١١٧ ، ١٢٠ .

احتاج الى شراء دار بقرطبة لحظية من نسائه تكرم عليه فوقع استحسانه على دار كانت لاولاد زكريا اخي نجدة وكانت بقرب النشارين في الربض الشرقي منفصلة عن دوره ويتصل بها حمام له غلة واسعة وكان اولاد زكريا اخي نجدة ايتاما في حجر القاضي . فارسل الخليفة من قومها له بعدد ماطابت نفسه وارسل ناسا امرهم بمداخلة وصي الايتام في بيعها عليهم فذكر انه لايجوز الا بامر القاضي اذ لم يجز بيع الاصل الا عن رايه ومشورته فارسل الخليفة الى القاضي منذر في بيع هذه الدار فقال لرسوله : البيع على الايتام لا يصح الا لوجوه منها الحاجة ومنها الوهي الشديد ومنها الغبطة . فاما الحاجة فلا حاجة لهؤلاء الايتام الى البيع . واما الوهي فليس فيها . واما الغبطة فهذا مكانها فان اعطاهم امير المؤمنين فيها ما تستبين به الغبطة امرت وصيهم بالبيع والا فلا . فنقل جوابه الى الخليفة . فاظهر الزهد في شراء الدار طمعاً ان يتوخى رغبته فيها وخاف القاضي ان تنبعث منه عزيمة تلحق الايتام ثورتها فامر وصي الايتام بنقض الدار وبيع انقاضها . ففعل ذلك وباع الانقاض فكانت لها قيمة اكثر مما قومت به للسلطان فاتصل الخبر به فعز عليه خرابها وامر بتوقيف الوصي على ما احدثه فيها . فاحال الوصي على القاضي انه امره بذلك فارسل عند ذلك للقاضي منذر وقال له : أأنت امرت بنقض دار اخي نجدة؟ فقال له : نعم . فقال : وما دعاك الى ذلك ؟ قال : اخذت فيها بقول الله تعالى : « اما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فاردت ان اعيبها وكان وراءهم ملك ياخذ كل سفينة غصباً » مقوموك لم يقوموها الا بكذا وبذلك تعلق وهمك فقد نض في انقاضها اكثر من ذلك وبقيت القاعة والحمام فضلا . ونظر الله تعالى للايتام . فصبر الخليفة عبد الرحمن على ما اتى من ذلك وقال : نحن اولى من انقاد الى الحق . فجزاك الله تعالى عنا وعن امانتك خيراً .. » «١»

وهذا الموقف الذي يشرح نفسه بنفسه لاكبر دليل على همة هذا القاضي وصلابته في الحق لا يخشى في الله لومة لائم . حريص على رد المظالم ومقاضاة

«١» نفح الطيب ، ج ٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

الخصم حتى ولو كان الخليفة نفسه ما دام الامر يتعلق في بحق من حقوق
العباد .....

ولا نتصور بعد كل هذا ان باحثاً يتفق مع الدكتور حسين مؤنس في محاولة اظهار منذر بن سعيد بمظهر شيخ البلاط «كما اسماه» الحائز على ثقة الخليفة فقد قال ما نصه « فقد اتقن منذر فن شيخ البلاط كما لم يتقنه شيخ قبله في الاندلس فكان يعرف كيف يفيد من كل مناسبة لكي يزداد عند الخليفة رفعة وعلى الشيوخ سلطاناً ...» «١»

ان هذا في راينا لا يتفق مع الكثير من الحوادث الناطقة بسلامة موقف القاضي وجرأته في الحق مجردا عن كل ميل او انحراف او تزلف . واذ كان الكاتب يرى في حادثة الاحتفال والقاء منذر الخطبة التي اشرنا اليها ما يبرر وجهة نظره فان في الحوادث الاخرى التي اوردناها اقوى الحجج التي تدفع هذا الظن وتلقي الضوء على حقيقة الصلة بين منذر بن سعيد وعبد الرحمن الناصر او ابنه الحكم من بعده .

«١» شيوخ العصر في الاندلس ، ص ٧١ .

مصـــادر البحث

١ــ الاسلام والحضارة العربية ــ محمد كرد علي، الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٨ القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٢ــ بلوغ المرام من ادلة الاحكام:
للامام الحافظ ابي الفضل احمد بن حجر العسقلاني، المتوفي سنة ٨٥٢هـ.
تحقيق رضوان محمد رضوان. مطابع دار الكتاب العربي. ١٨٧٣/ ١٩٥٤

٣ــ تاريخ الادب العربي: حناالفاخوري.
طبعة ثانية ــ منقحة ومزيدة ــ المطبعة البولسية ١٩٦٣!

٤ــ تاريخ الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة. دكتور احمد هيكل.
الطبعة الثالثة/ دار المعارف بمصر ١٩٦٧.

٥ــ تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي. دكتور حسن ابراهيم حسن، الطبعة السادسة. مكتبة النهضة المصرية. سنة ١٩٦٢

٦ــ تاريخ الاندلس السياسي والعمراني والاجتماعي. دكتور علي محمد الطبعة الاولى ١٩٥٧/١٢٧٦ مطابع دار الكتاب العربي بمصر/ محمد حلمي المنياوي.

٧ــ تاريخ التشريع الاسلامي : تأليف الشيخ محمد الخضري. الطبعة الثامنة ١٩٦٧/ ١٣٨٧.

٨ــ تاريخ علماء الاندلس: ابن الفرضي: ابي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الازدي الحافظ. المتوفي سنة ٤٠٣هـ. طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩ ٦.

٩ــ تاريخ الفكر الاندلسي آنخل جنثالث بالنثيا . نقله عن الاسبانية حسين مؤنس. الطبعة الاولى/ مكتبة النهضة المصرية.

١٠ــ جذوة المقتبس ــ الحميدي ابي عبد الله محمد ابن ابي نصر فتوح بن عبد الله الازدي المتوفي ٤٨٨ هـ. ــالدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦، المكتبة الاندلسية رقم «٣»

١١ـ الحركة اللغوية في الاندلس منذ الفتح حتى نهاية عصر ملوك الطوائف
ألبير حبيب مطلق، المكتبة العصرية صيدا، بيروت. سنة ١٩٦٧.
١٢ـ ديوان الشافعي، سلسلة المخطوطات العربية «٩» جمعه وحققه وعلق عليه
زهدي يكن ، دار الثقافة، بيروت، مطابع دار السرياني للطباعة والنشر
سنة ١٩٦٢ .
١٣ـ رحلة الاندلس، حديث الفردوس الموعود. د. حسين مؤنس.
الطبعة الاولى سنة ١٩٦٣ الشركة العربية للطباعة والنشر.
١٤ـ شيوخ العصر في الاندلس د. حسين مؤنس الدار المصرية للتأليف والترجمة
توزيع مكتبة مصر.
الحميري مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧.
١٥ـ الفن ومذاهبه في النثر العربي د. شوقي ضيف.
١٦ـ قرطبة في التاريخ الاسلامي د. جودة هلال. ومحمد محمود صبح.
دار العلم. المكتبة الثقافية «٧٢».
١٧ـ قصة الادب في الاندلس، محمد عبد المنعم خفاجة
القسم الثاني والاخير، منشورات مكتبة المعارف في بيروت ١٩٦٢.
طوق الحمامة في الالفة والالاف. تأليف الامام الفقيه ابي محمد علي
ابن محمد بن سعيد بن حزم.
١٨ـ قضاة قرطبة ـ الخشني ابي عبد الله محمد بن حارث بن أسد القيرواني
المتوفي سنة ٣٦١هـ ، الدار المصرية للتأليف والتاجمة سنة ١٩٦٦.
١٩ـ كتاب الصلة، ابن بشكوال ابي القاسم خلف بن عبد الملك ٤٩٤/٥٧٨
الدار المصرية للتأليف والترجمة، مطابع سجل العرب. سنة ١٩٦٦.

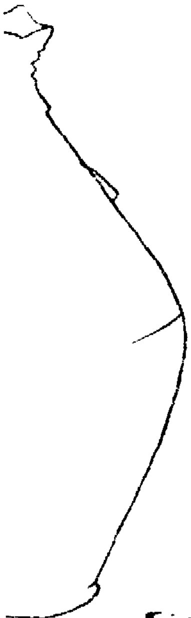


Fig XIII G

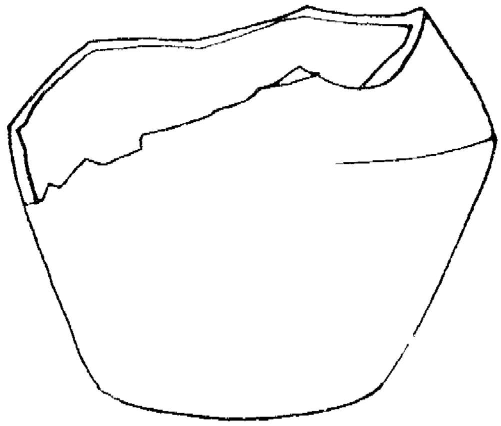


Fig XIII H

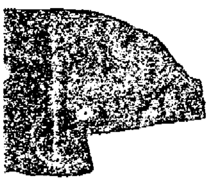
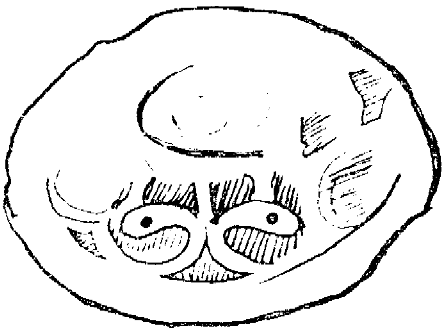


Fig. XV



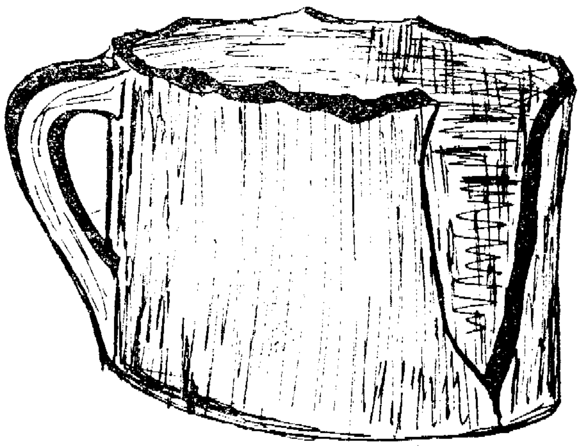


Fig. XVI

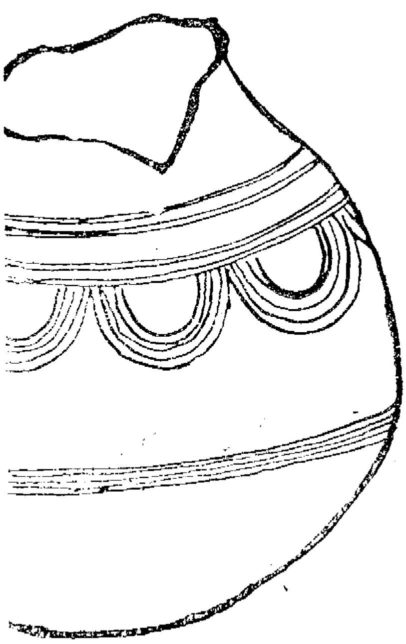


Fig. XVI

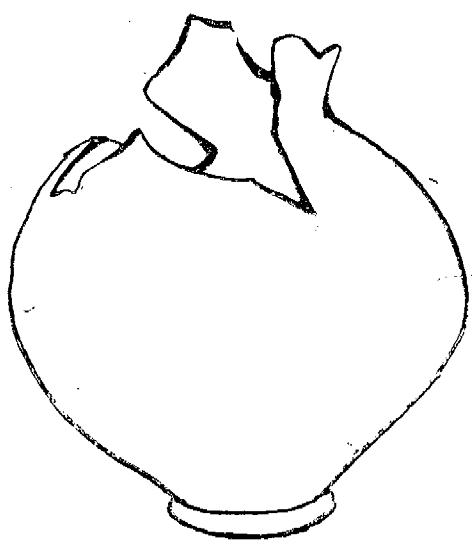


Fig. XIII. E

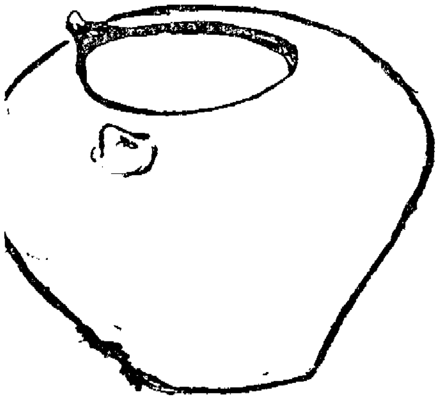


Fig XIII A

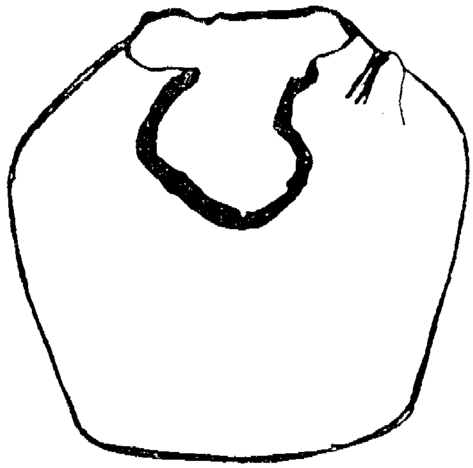


Fig XIII B

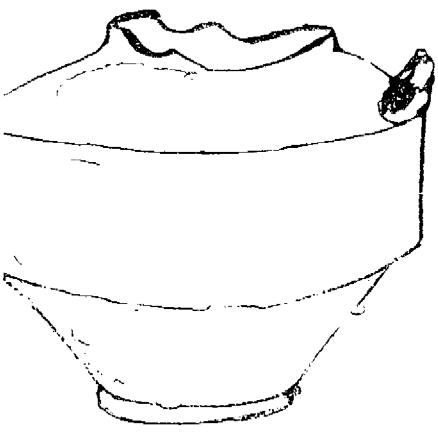


Fig XIII C

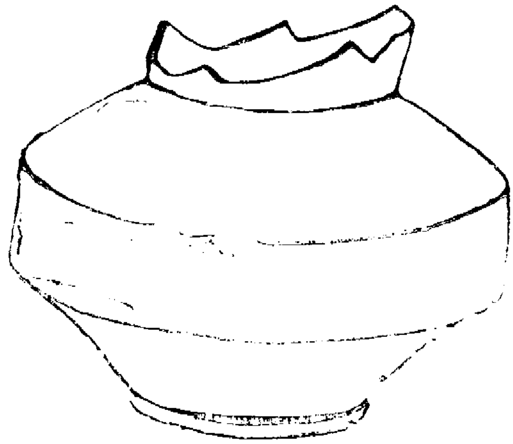


Fig XIII [illegible]



Fig XIII [illegible]

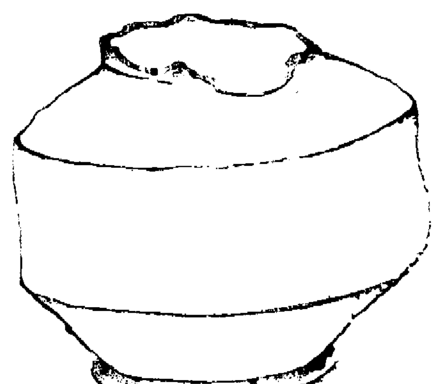


Fig XIII [illegible]

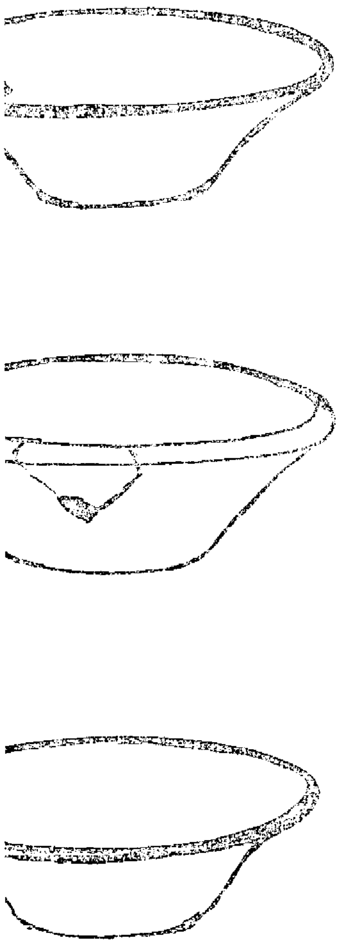


Fig XI

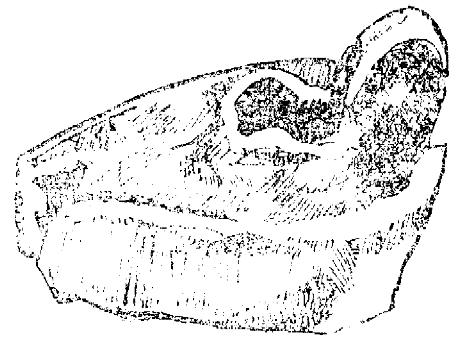


Fig. IX

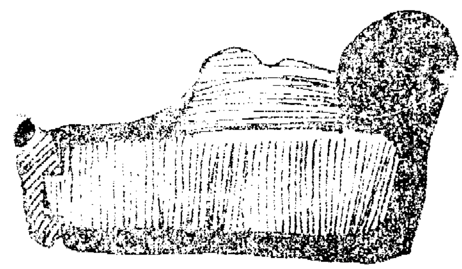




Fig XII

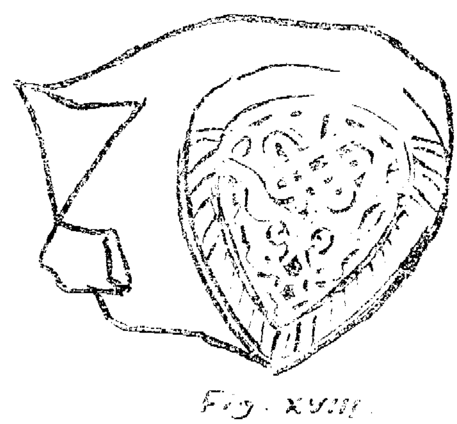


Fig. XVIII

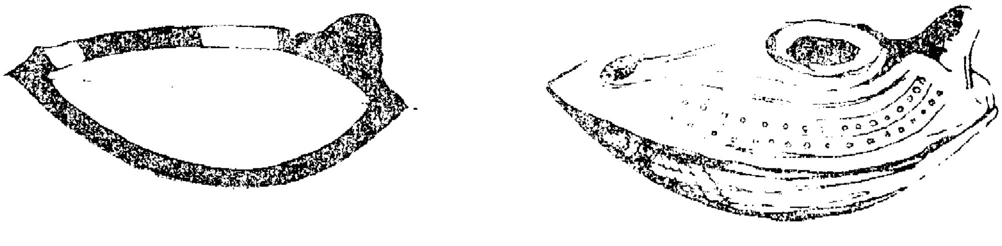


Fig VI

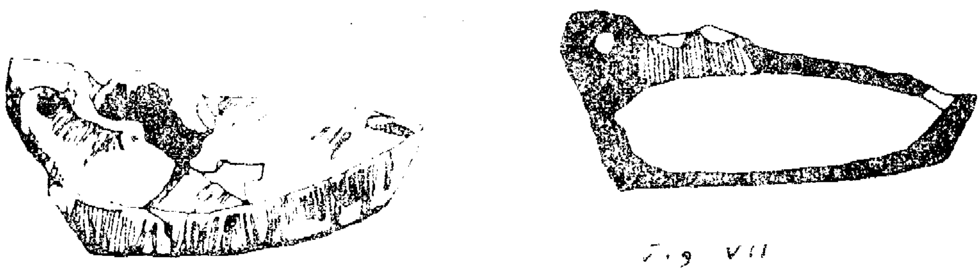


Fig VII

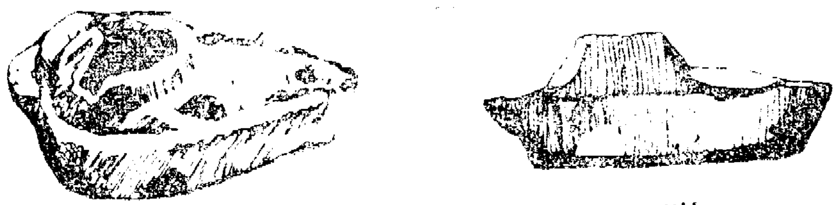


Fig VIII

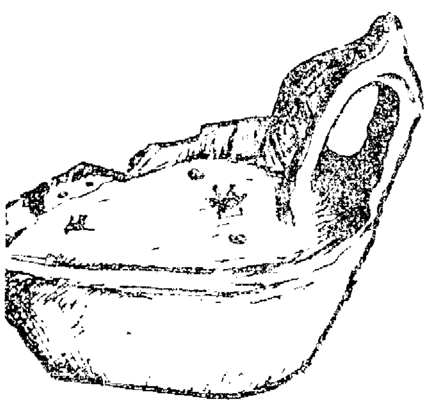
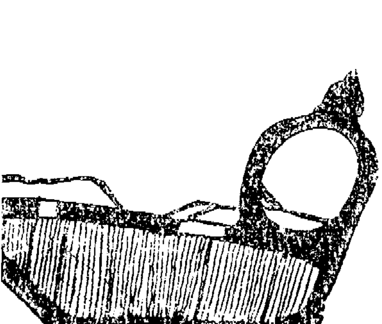


Fig X A



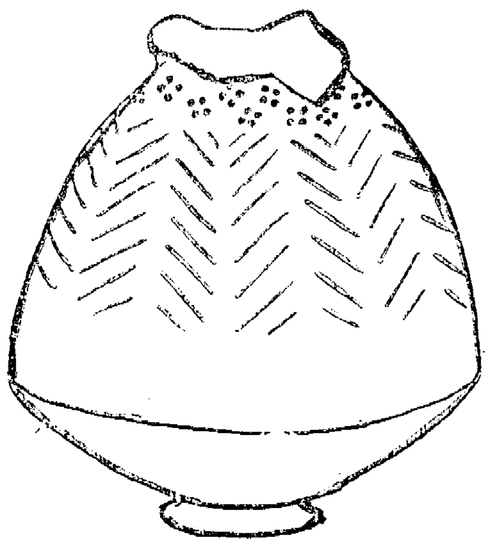


Fig. X. B



. I

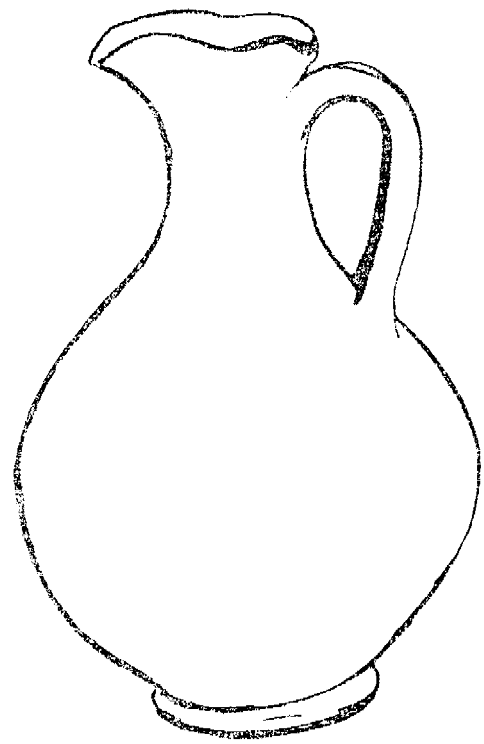


Fig II

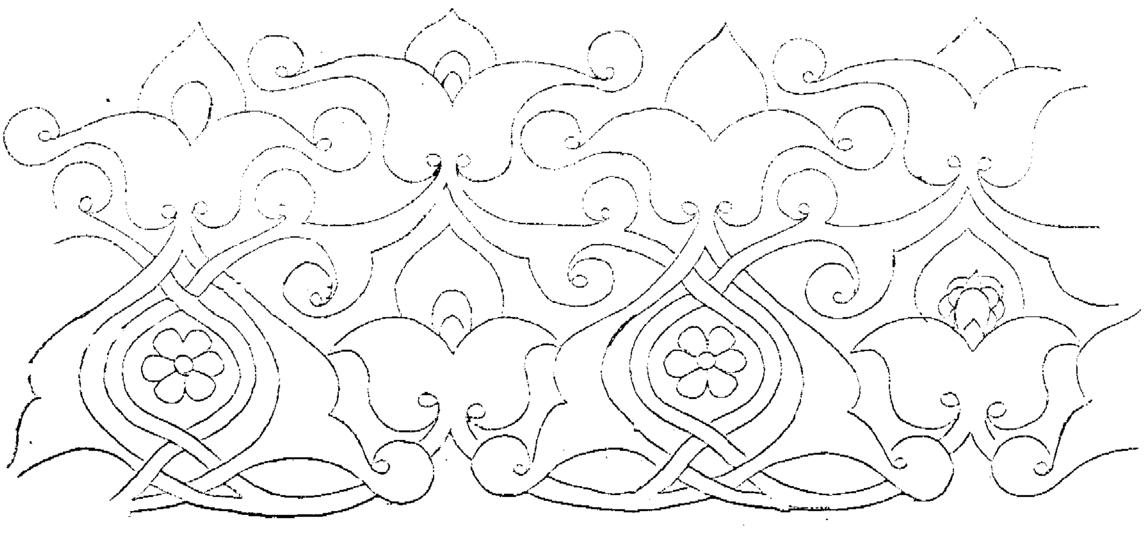


Fig. III

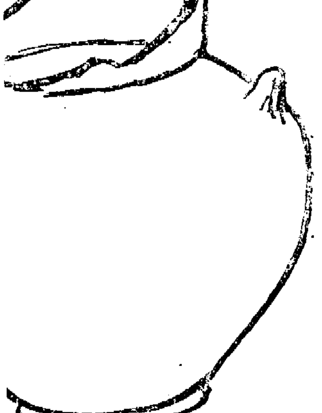


Fig. V

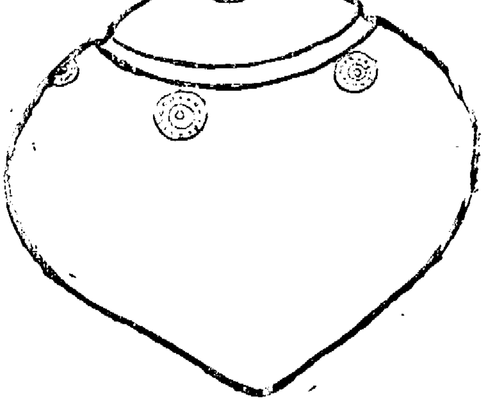


Fig. IV

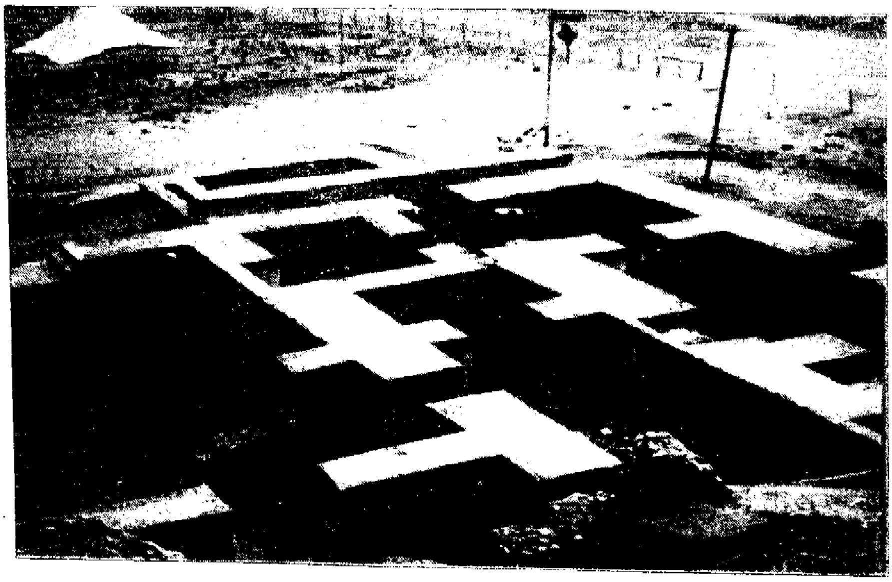


Plate V

توضيح صيانة الرسم الثاني بالنسبة لجدران الموقع

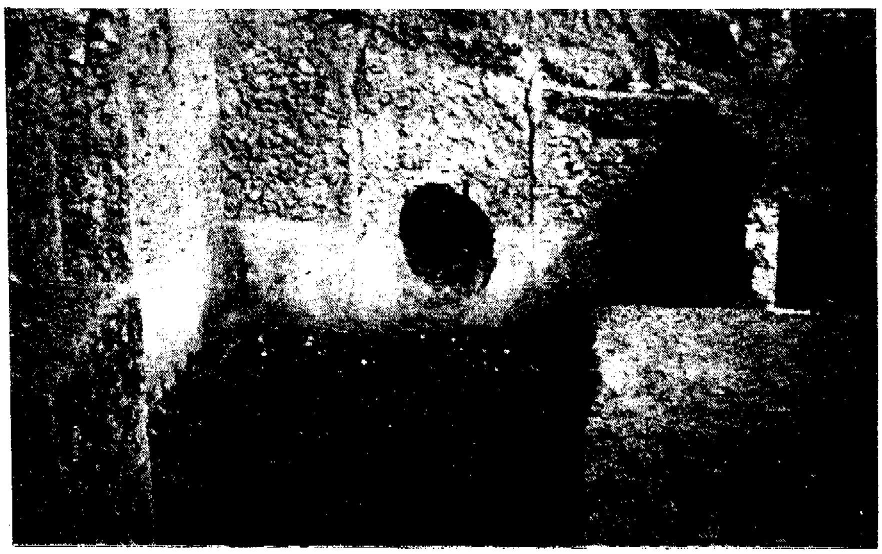


Plate VI

المدخل الكائن بين الغرفة رقم ٦ . ب والغرفة رقم ٥ . ب



Plate VII

المدخل الكائن بين الغرفة رقم ٨ . آ والغرفة رقم ٩ . آ



Plate III

صورة اخذت من الاعلى تمثـــل جانباً كبيراً من حفريات باشطابيا

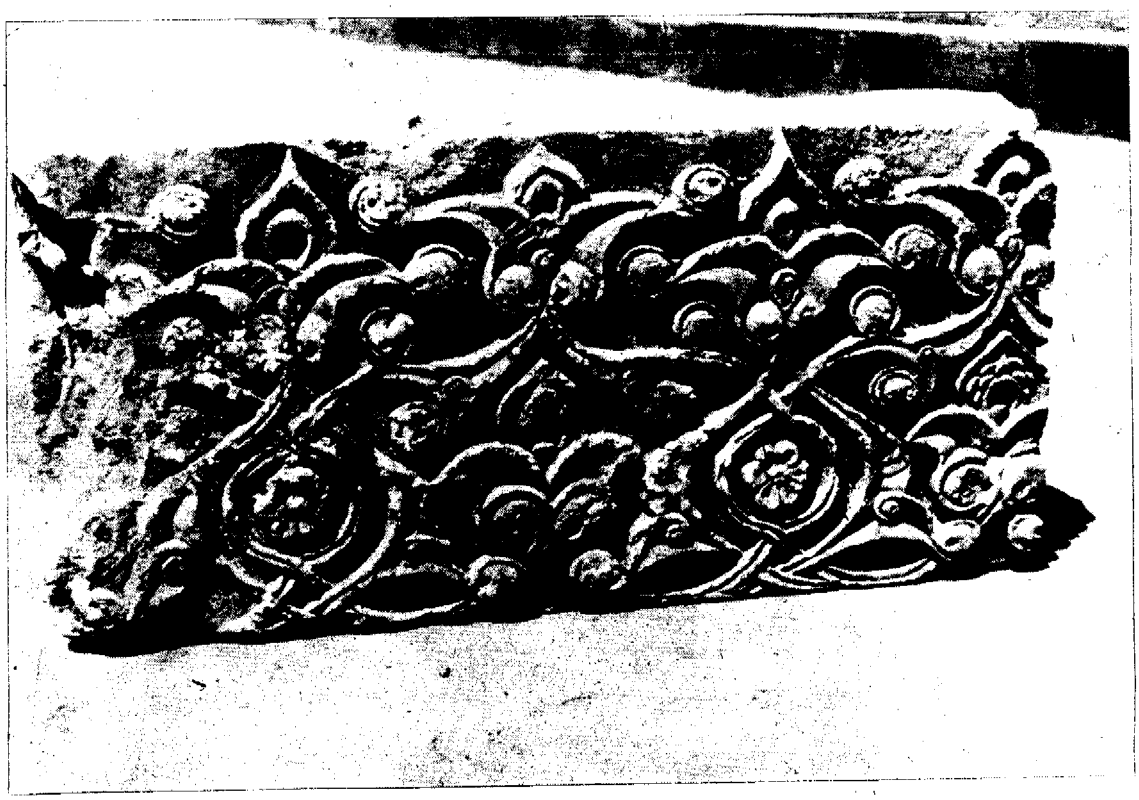


Plate IV



Plate ١١

صورة تمثل النقطة (٧) والنقطة (١٠) من المنطقة (آ) ويظهر فيها جدران هذه النقطة بشكل واضح .

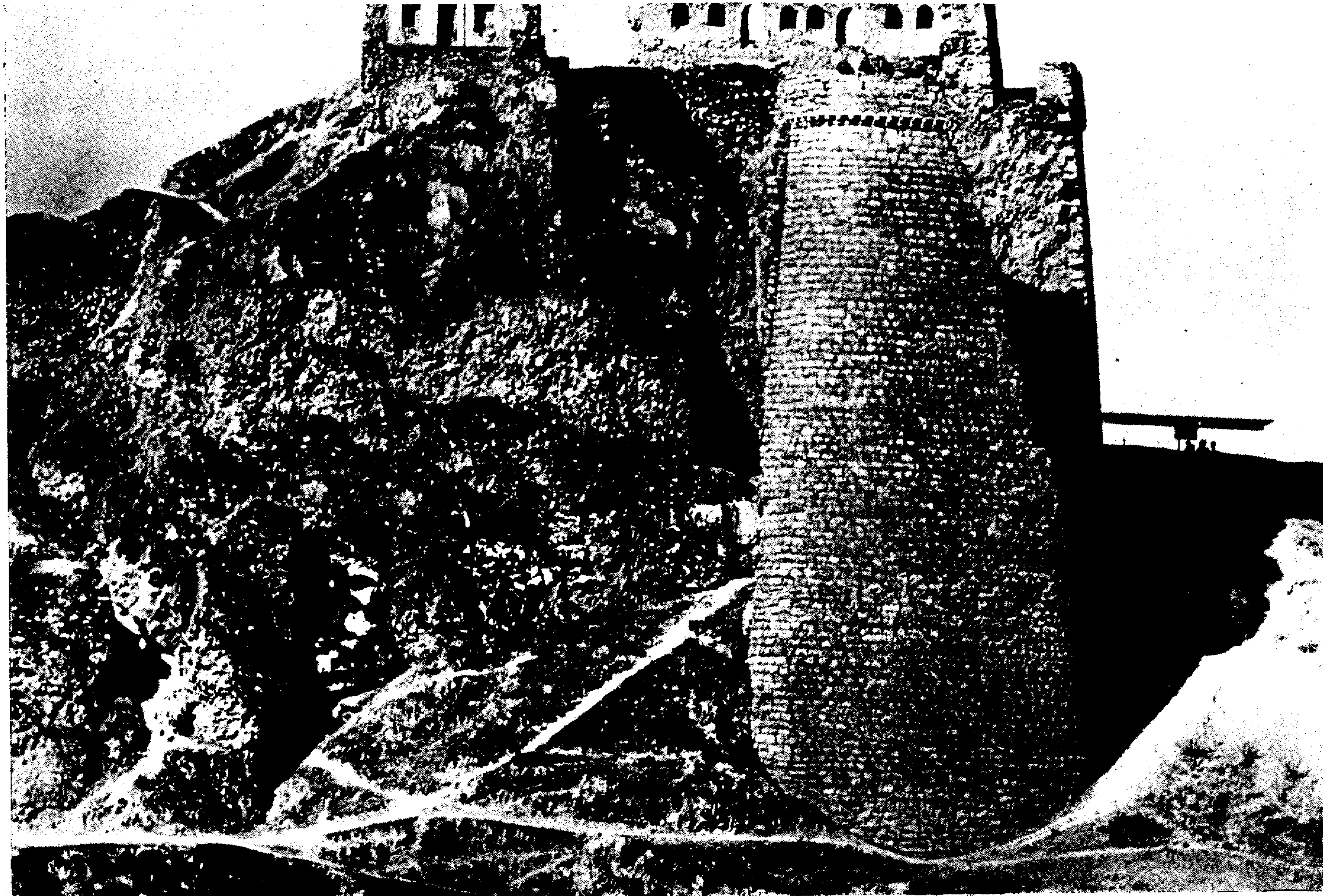
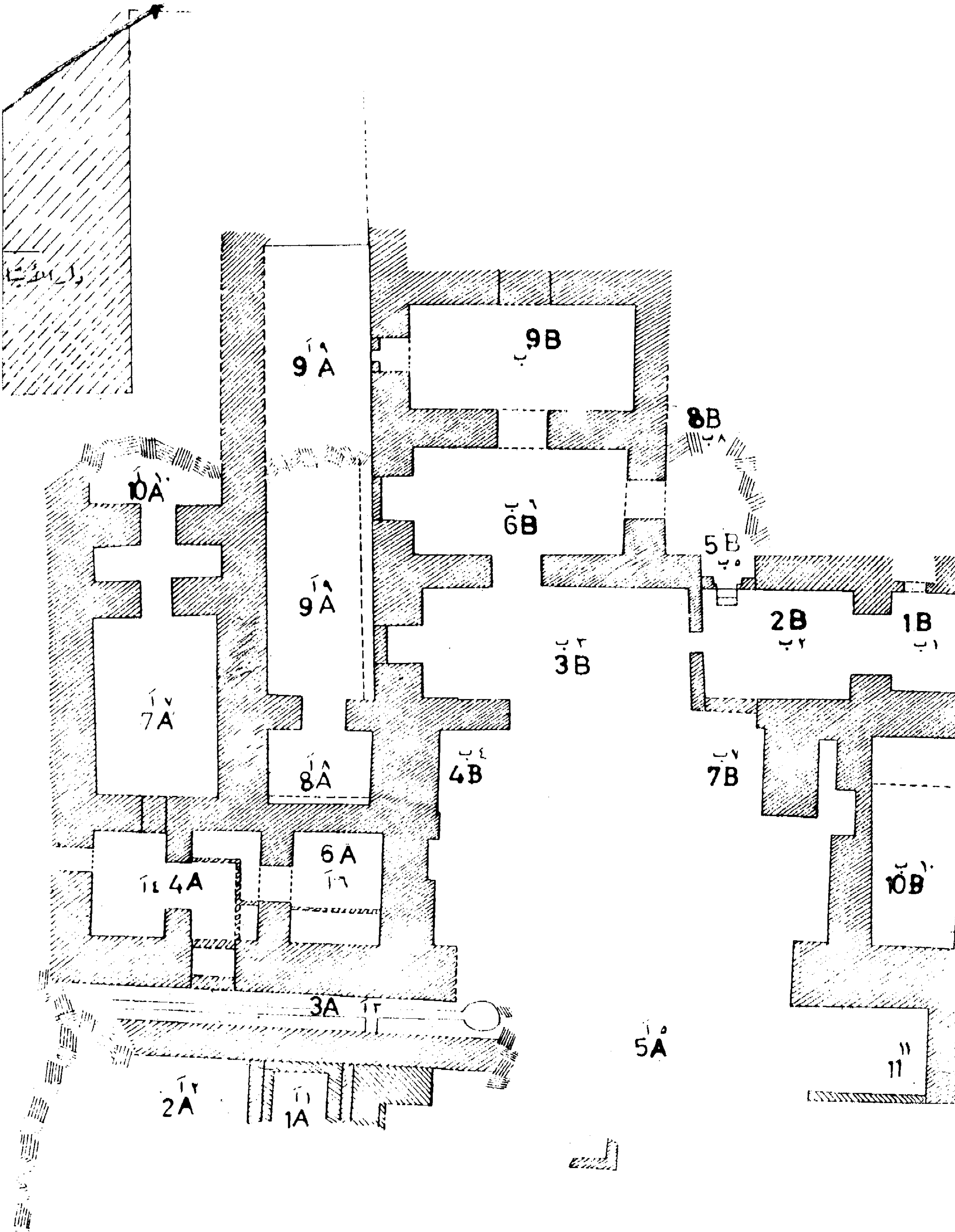
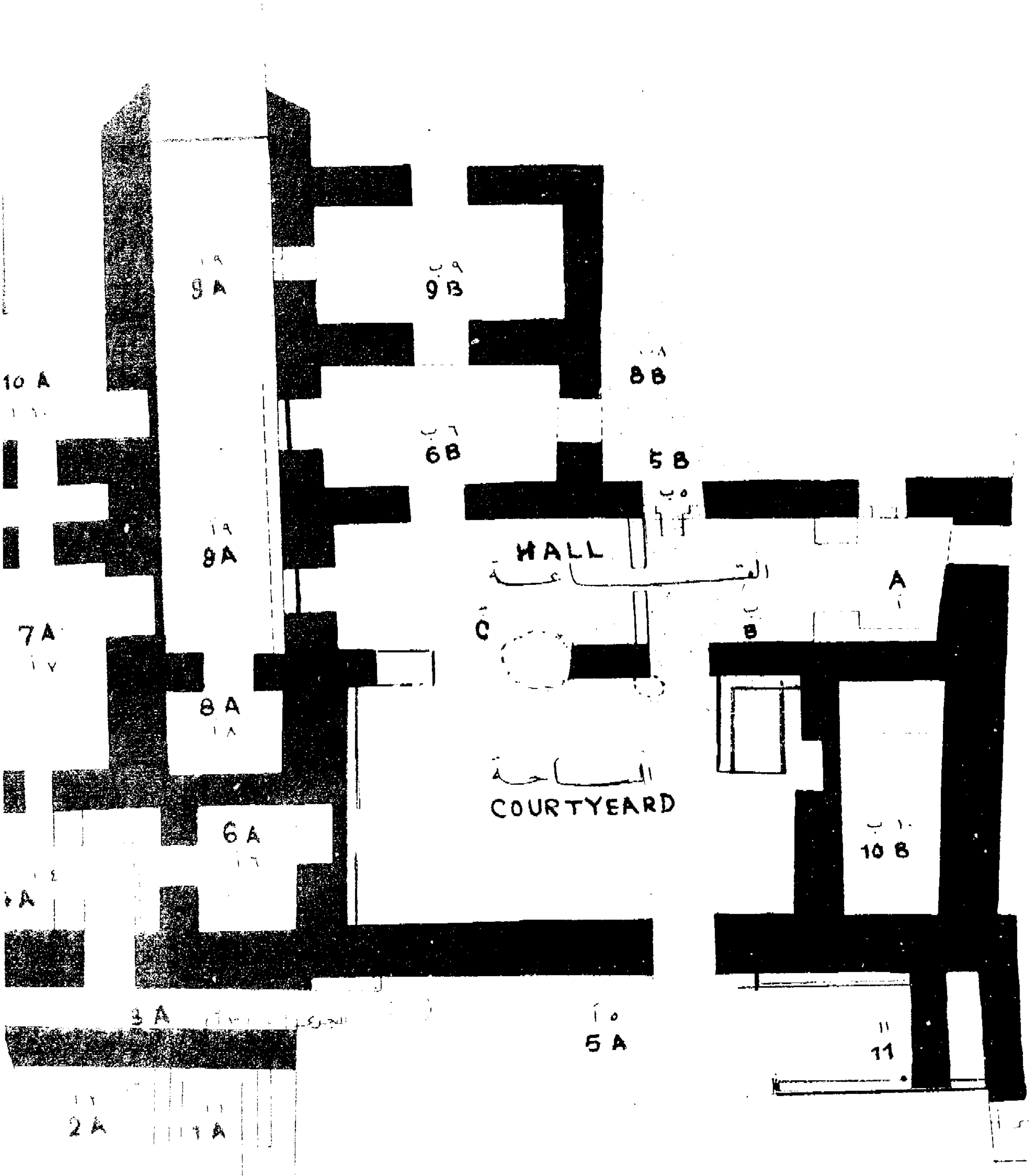


Plate I Bash Tabiya



FIRST SEASON

الموسم الاول



مخطط لحفريات موقع باش طابيا

the EXCAVATION of the SITE of BASH TABIYA

there is a small ball is to put the thumb on it. On the top of the lamp on the outside edge there is a deep cut around and beneath the top and on the cuts there are holes. These holes were used to get the surplus oil from the top to inside of the lamp (see Fig. X - A) .

7 . A pot of pottery with circular bass the top of the pot is lost. It is decorated with ziqzag lines. The hight of it is 13 cm and its diameter 7.5 cm The diameter of the bass in 4.5 cm. It was found in entrance which connects the room 6.B. with 9.B. (See Fig. X. B) .

8 . Three pots of the same size each one is in an half oval shape with a wide open top. The bass is in circular shape. The hight is 5 cm. The diameter is 16.5 cm. The diameter of the top is 14 cm. The diameter of the bass is 5.5 cm. It was found in the ruins which is outside the fortress. (See Fig. XI) .

9 . A piece of ivory of a half oval shape decorated with crossed circules inside each circule there is a hole. The diameter is 2 cm and the hight is 4.25. It was found in the ruins which is near to the spot I. A. (See Fig. XII) .

10 Eight pottery pots with different shapes. It was found in the ruins which is near to the spot I. A. (See Figs. XIII - A. B. C. D. E. F. G. H) .

11 A pot of pottery with a cylindrical shape. The bass of the pot is flat with a wide open top. The hight of it is 10 cm and the diameter is 13 cm. It was found in the ruins near the spot I. A. (See Fig. XIV) .

12 A piece of white marble with a half oval shape on one of its sides there is a plant decorations which is not clear on the other side which is flat and we can see the remains of a circular bass . The diameter of the marable is 5 cm and the hight is 4 cm. The diameter of the bass is 2.5. It was found in the ruins which was the indor wall. (See Fig XV) .

13 A pottery jar of a cylindrical shape. The top of it is lost. There are two groups of a circular lines on the body of the jar. Between these two groups there is a third group of decorations of arches. The bass is of a carved shape. The hight of the jar is 39 cm. The diameter is 28 cm. It was found in the ruins which is near the indor wall. (See Fig. XVI)

14 A mosaic plat with a circular bass glazed with a deep red colour . Inside the plat there is a Kufic Script. The plat is broken into pieces and most of it is lost. It was found in room 7. A. (See Fig XVII)

15 A fragment of their pottery the top of it is decorated with plant leaves framed with lines and there are two birds between crossed leaves. The length of it 8 cm and the breadth is 6 cm. It was found in the ruins near the spot I. A. (See Fig XVIII) .

of Hall B. The others are found near spot 1 A. are the descriptions of some of them .

a / the description of pottery lamps no. 10. The general shape is oval. It has an edge in the middle. This edge covers half of the size of the lamp , it has a dome cover with two openings. These openings are circular. The front is to put oil besides there is a small hole to put the wick. The top is decorated with lines and dots in relieve. These dots are around the oil opening. There is no handle for this lamp and the lamp is colourfully glazed (see Fig . VI) .

b / a lamp no. 20. The length 9 cm, broadth 4 cm. Glazed from inside and outside with red colour - this colour is still used in some pottery in Mosul . The top of the lamp is curved and there is a hole for the wick and the hole for putting oil. There is a handle for this lampwith a hole in the middle of the handle. see Fig. VII .

c / a lamp without a number. Its length is 7,5 cm and its height 3 cm. Glazed inside and outside with green colour. There is no handle for this lamp .In the top there is a circular opening to hold oil and there is another opening in the front of the lamp to put the wick. The shape of the lamp in geneeral is like a boat. In the sides of the lamp there are deep cut lines for the the oil to go to the lamp inside later, by the wick opening. (see Fig VIII) when it overflows .

d / a long shape lamp with a natural size, its height is 6.5 cm. It has a handle and a place for the wick to be put in, it is in good condition . The inside and the outside of the lamp is glazed with a pale green colour to prevent it from leaking. The top of the lamp is circular with a hole to hold the the oil (see Fig IxI) .

e / a mosaic lamp glazed inside and outside with a green colour. Its top is decorated with holes. In the front of the lamp there is a big hole for the wick and near the handle there is a hole for oil. We noticed that there are many holes in the sides of the lamp as well as in the top these holes probably served as outlets for while it was lighted and probably they were also for decoration. The edges of the top of the lamp are broken and the colour red of the clay appears and shows that this pottery is half baked . This is usually used in making glazed pottery and to change them into mosaic. After the mosaic is done they glaze it with green colour. This colour was usually used in Mosul and still is. This stuff is from copper acid and, mixed with glaze. In the back of the handle of the lamp there is a ribbon from clay it is used to put the finger through.At the top of the handle

Its height is about 30 cm and its width about 2 m. The walls of the room 2 m. 75 height and the thickness of the walls is 1. 70 m.

The most important archaeological findings .

1 . 2 pottery basins. There are some black ashes on them . Each bass is of cylindrical shape. From the top and from the bottom it has a circular opening and there is a bent in each circle. The height of each cylinder is about 21 cm and the diameter is 9 . 5 cm while the opening of each side , has a diameter is 14 cm. It was found in the remains of spot 1 A . (see . Fig . 1) .

2 . One pottery jar with one handle. On the opposite of the handle is a place to get the water through and the neck of the jar and its top are ornamented with dark green colour. The height is 13. 5 cm the diameter is 7.5 cm while the top of the jar has a diameter of 3 cm. It was found in the remains which are situated between the rooms 4 A - 7 A. (see Fig . 2)

3 . A piece of rectangular marble decorated with vegetables and some curves of flowers with leaves. The length 70 cm the width 35 cm., the thickness 20 cm. It was found in the remains of the entrance which was mentioned above and was found not in a normal position ; if must have been moved from its original place. (see Fig. 3) and plate IV . 1

4 . A bottle of thick pottery in a round shape with a sharp bass and a narrow mouth . The mouth is circular . There are circular curvings on the bottle. This was probably used as a bomb by putting phosphate. The height is 12 cm and the diameter is 9 cm while the diameter of the mouth of the bottle is 6 cm. It was found in the remains of the courtyard near the south wall (see Fig. IV) .

5 . A small jar from thin pottery and of round shape, its basin is round while the top of the jar is lost . There is one handle on one side of the jar. The height is 8 cm. the diameter is about 6 cm while the diameter of the mouth of the jar is 5 cm. This jar was found in the remains of the second part of Hall B .

6 . A number of delicate pottery lamps. Each lamp consists of a flat bass which stands on it, the main body of the lamp is of an oval shape. It has two openings. One of them bigger than the other and most of these lamps are of a deep green colour. The lamps are of different sizes. Some of them are large, the length 9 cm and the height 7 cm. and the smallest is 3 cm high 5.5 cm long. These lamps are found in the remains of the second part

these two rooms were reconstructed in a height about 70 cm - 1. 10 m and breadth about 1. 75 m· (see plate VI) .

7 . The hall It is of a rectangular shape. Its length is about 22 m and its breadth about 5 m. It is divided into three parts because of the two entrances of the hall which was built in the middle of the hall in the late period. We gave these three parts the symbols A. B. and C.

In the middle of part B there is an entrance going to the place 5.B which is situated in the westside of this part. The entrance of this place narrow in the late period and two steps were built there. On the opposite of the entrance there is another entrance which goes to the courtyard which is situated in the east of the hall. The wall which is extended in the left corner of the entrance to the south side finishes in a place where an oven was built by the inhabitants. This oven was probably used to make plaster. An entrance was found also in the first part (A) which goes to the north side There is another entrance going to the west side of this part. The two entrances were closed lately. The team reconstructed the original wall of the hall with a height of 1. 70 m - 2, 35 m and breadth about 1. 65 m.

8 . The courtyard. It is of a rectangular shape. Its length is about 16. 5 m and its breadth about 9,5 m. Outside the court in the east there is an entrance. Its breadth about 2, 20 m. Its east walls were removed in the late period . In this season , the wall which is mentioned was rebuilt with a height of about 2, 90 m and the breadth about 2. 05 m. This court is joined in room 10. B which is situated in the north side and is linked to the court with an entrance. This entrance was closed in the late period . A wall was discovered in the court. Its breadth was about 3 m. in the nort west of it and this wall end in the entrance which is situated between the court and the room mentioned above. It is probable that this wall was built in the time when the entrance which is mentioned about was closed to make a new room in this place.

It was found in the left side of the entrance of the court in part B from the hall a circular hole probably used as a septic tank. The team did its duty by reconstructing the original wall of the court with a height about 1. 70 m 2. 90 m and breadth about 1, 70 m.

9 . Room no. 1 B

This room is of rectangular shape. Its breadth is about 3.50 m. The ground is covered with plaster and in the west side there is a stone bench.

3 . Room no. 7. A.

This room is in a rectangular shape. Its length is about7, 75 m and its breadth about 4,85 m.It is joined to room no. 4.A with an entrance which was closed in the late period. The outer wall was discovered by the team Its breadth is about 2, 05 m. The team also discovered the foundation of the wall part of which it was built with smooth marble in the outside of the wall. The depth of the foundation of the wall is about 2. 50 m - 3. 50 m from the level of the earth. There is an entrance in the wall from the outside which is in the south of the room.In the west of the room there are two corners, these corners go to the orphanage building. The distance is about 2 m. On the same side, there are two corners and in these two corners there is a second entrance. In this season the team rebuilt the original walls of the room and also the north wall of the room.

M4. Page11. Faredz.

4 . Room no. 9. A.

The length of the room is not discovered yet because of the earth which covers the west side of the room but the breadth of the room is about 4,50 m and it is joined to the room no. 8. A. with an entrance and it is also linked with the hall(C)which is situated in the north of it. The hall is joined-to the room with an entrance. The room is also joined by another entrance to the room 6. B. It was closed in the late period. In the north east corner of the room and which extends to the west there is a stable for keeping animals near to the two entrances of the room .

Two stands built of plaster and stones were used for columns which were probably used to support the room. There is another circular mass of marble with a rectangular hole in it used also to put a column in it to support the 1, 50 - 2, 50 m and breadth 2 m .

6 . Rooms no. 6.B - 9. B.

These two rooms are of rectangular shape. Their length about is 9 m and their breadth about 4, 75 m. They are joined with an entrance, breadth about 2 m and each of these rooms is joined to room no. 9.A by an entrance . This entrance was closed in the late period .

There is in the room no. 9 an entrance which is joined to place 5.B which is situated in the north. We do not know yet the measurements of this place . There is another entrance going to room no. 6.B and joining the place (C) from the court which is situated in the east of the room. The walls of

third one was written (You who read my book, weep about my youth) . It is possible that these three pieces were used as epitaphs in the graveyards which were removed from their originai place .

Preservation and reconstruction .

The team started in this season the task of preservation and reconstruction of some of the original walls of the site by using plasters and stones . These two materials were used to build the fortress in the Atabik period.

The team started first of all by building a wall separating the channel which is given the number 3 A and the two places (1.A - 2.A) . These two places were not reconstructed because they were of a late, period but we repaired the other wall which separates rooms (4.A - 6.A) . It is to be noticed in this wall that it extends to the north direction which makes the left corner of the court which is in the east while the west site of the wall joins the south wall of room no. (4.A) , in the south east corner of the room mentioned. This wall has the height of about 1.25 m - 2.90 m and in the broadness of it 2.05 m.

1 . Room no. 4. A.

This room is of rectangular shape. Its length is about 6, 75 m, its broadness about 4, 75 m and it is divided in the late period into two even rooms joined to each other with a corridor, its breadth is about 2 m. The first room is joined with room no. 6.A which is situated in the north directly. It has an entrance which was closed in the late period. It is also linked with the channel no. 3.A. In the east there was another entrance.This was connected to room no. 7.A with an entrance which was closed in the late periods. The team repaired all the original walls of the room. The height of the walls which were built in this season is about 1, 18 m the breadth 1, 70 m.

2 . Room no. 6. A.

Its length is about 4, 75 m breadth about 3, 50 m. It was built in the late period. Its walls are very thin. In the middle of the room there is a thin wall starting from the north of the room and reaches the left corner where there is the entrance which joins the room to room no. 4. A. The team rebuilt the walls of the room with the height of about 1. 50 m. The breadth of the walls is about 1, 75 m. Their walls were also rebuilt by the team which were related to the space which was discovered in this season. This space is situated in the north west of the room which is mentioned above. (see plate II) .

them is about 70 cm and the diameter is about 8 cm. A piece of sharp bone was put in the middle of the hole and was probably used to torture some of the prisoners. About 80 cm from the ground of the room, we found the remains of another room. This room was probably built in the late period. About the room which is in the east of the corridor, we discovered in the north wall remains of a blind window. The distance of this window from the south west corner is about 1 m, and the height of the window from the ground of the room is about 45 cm, and its depth in the wall is about 20 cm.

At the end of the season, the team started digging parallel to the indoor wall in a place which is between the cemetery of Yahya about al qasim and the basement.It was discovered there a shapeless room of unequal measurements and there was an added building on it specially to the walls, this took place in the late period. The depth of this room is about 6 m from the level of the earth and its foundation is covered with stones. The room is connected with a long corridor which goes to the south. we have not discovered yet the end of the corridor. In the north of the room, there is an entrance to the room .

On the east of the room, there are many walls linked to the wall of the fortress ; these were probably not rooms or halls , they probably used to support the fortress wall from falling .

In the outside of the wall of the fortress there was another wall which was built in touch with the wall. This was done probably in the late periods. We discovered this wall whose broadness is about 8 cm while the original wall of the fortress is about of 2. 15 m.

In general it is to be noticed that the wall was built, during two periods. Of the first period there is nothing left from the wall only a little part of it while of the second period, the wall was built on the remains of the first period adding on the wall some openings which are like towers for watching long distance .

The team also dug in the east and south of the site of the fortress. Nothing was discovered there except three pieces of stones, on one of them were written verses from the Qoran (he who has the the heavens and what is in earth who will . .) and on the other one was written the verse (He will not forgive only by His permission He knows what is in your hands) . There was a drawing on this piece which looked like a lamp. While on the

the north part of the wall while in the south of the wall it was part of the room (7.A) . The distance between these two entrances is about 5,50 m. The first was covered with tarmacadam. The depth of it is 1.70 m while the breadth is about 2.30 m. The second was covered with plaster only. It measures about 1,50 m in depth while is breadth is about 1,70 m. These two entrances were closed by plaster and stones probably in the later periods and were added to the main wall which has been mentioned.

Digging also took place in the place B of the site and especially parallel to the east wall of the rooms (1.B - 2.B - 3.B). We called this place the hall and it was divided into three late periods and we gave them the the symbols A, B, and C from north to south In this place was also discovered a big hole which is circular and it is attached to the eastern wall. It is to be noticed that this hole is surrounded with stones in a depth of 30 cm, while the depth goes on without the stones, which proves that this was a basin to get rid of the dirty water. About 2,50 m from this hole we found a bigger hole which is beside the wall mentioned above but it is situated in the south. The diameter of the hole to about 3.30m, the depth of it is 2,50 m. In the bottom of it there were remains of black ashes. This place was probably an oven for making plaster in the late periods.

The team also started digging in the south wall which separates the room (I.B.)from room no. II. It seems that most of the stones were removed in the late period and we discovered the remains of the plaster and the stones on the earth. The extension of this wall makes the corner of the entrance of the court. The team removed all the stones in the left entrance which is mentioned above and which connects the wall which separates the channel (3.A) and the rooms (4.A - 6.A) .

The team also started digging in the north east of room no. II in which they discovered two rooms in the middle of each room there was a stair of four steps. It was noticed that on the gound of the room south of the stairs, there were colums. They were probably to support the roof of the room. But we could not continue digging in the north part of the room because of the electric and telephone pillars. The stair which has been mentioned before was used to connect the first story of the building to the second story. There was a corridor connected with the top of the stairs and on each side of the corridor there was a room. In the ground of the west room of the corridor we found two circular holes. The distance between

the membership of Muslim Muhammad Ahmad, and with the team were 45 workers and four skilled workers and a builder.

Excavations .

The team started its digging in two places (1.A - 2.A). They found the remains of a channel which is parallel to the first channel which was found in the first season. It is noticed that this channel was the place to collect the water from the roofs. It is usual that the roof has tubes of clay which come down from the roof to the channel . The channel ends usually in another channel which reaches the septic tanks. It is probable that this channel and the wall were built in the late periods because the walls were not connected with the original wall which separates the first channel and the two places (1.A - a.A.) . In addition the foundations which are under walls are built from clay and are of black colour.

The team started also to dig in the place (5.A) and it was discovered that there were walls not very thick and they were not organized in their direction. they were probably built temporarily in the late, period.

The team reconstructed the north wall to the rooms (8.A-6.A) and they revealed the separation between the ancient wall, of which the breadth is 1,65 m and the other wall which was built in the north side with a breadth of 70 cm probably in the late periods. It is worth mentioning here that we discovered a space in the north corner near to the room (6.A) . This space was closed in the late period by plaster and stones and was added to the wall mentioned above. In this emptiness, there were remains of tarma-cadam on the walls. This was probably used to keep grains.

The team started digging in the outer door wall which was situated south of wall and to know its foundation. The team was able to discover the breadth of the wall and to know its foundation. The team was able to discover the foundation which part of it was built of smooth marble from the outside and the breadth of this wall is about 2,05 m. It was discovered also an entrance to the wall which goes to the room (7.A) to the outdoor (south). This wall extends to the west till it reaches the orphanage at the present time.

The team, discovered the original walls which surround the rooms (4.A-6.A - 7.A - 8.A - 9.A) they also discovered that there were two entrances to the middle wall which formed part of the rooms (8.A - 9.Z). This is in

period but the place of their issue and the time and the name of the issue are unknown.

2. Findings of fragments of glazed pottery and some coloured glasses.
3. Findings no. 9 in spot A, a piece of marble whose length is 26 cm and broadness 22 cm, ornamented with plant decorations.
4. Findings of a flat plate of clay. The face of it is 90cm while its back is 8 cm. The depth of it is 5 cm. its thickness is 1 cm. (See no 7).
5. The team found in no. 9 from the spot A, a piece of marble with inscriptions. Its length is 43 cm and its breadth 30 cm. The script is framed with plant decoration. Its breadth is 12 cm. The marble is surrounded from top to bottom with various decorations. (See form no. 2) . It is written on it" What is on the earth . . . .

   It is probably a marble from a part of a big piece, which many verses of the Quran were written . It is used to decorate the place.
6. It was found in no. 9 from the spot A, bracelets and necklaces and jewelry, (some are) black and (some are) green.
7. Many lamps , were found, some in perfect condition and some in different shapes and sizes. All of them are decorated with plant decorations .
8. There was found a valuable ring, joint with it , was a piece of bronze.
9. An Ottoman bayonet was found in no. 9 from the spot A in the upper layer and in the place whose height is about 96 cm above the earth. It is in a very bad condition and is rusted. Its hand was broken from one side of it . The place which joins the rifle was also in very bad condition probably because of dampness.

10 The most important, thing that the team found in different parts of the site were fragments of jars and plates of different sizes and shapes They are decorated by the method of ceramic (barbotine) 2. The decorations are of different style and different pictures. Some are of plants others human or animal pictures. Among these decorations there are two pictures of girls with two plaits reaching the waist, carrying in their hands a stick and in their belts a big knife and beside a lion of which the face and the front legs appear.

The second season

The team of excavation started its work in the site of Bash Tabiya for the second season in the 6th March 1971 headed by Dr. Talat al Yawer and

them, only one wall which is of a small height. As we said we found a new building which was built in the late period. It is of a low height like the height of a bench. Inside this building there is a pool which was built with plaster and stones supported in the north by marble. Also we found in the east of the building a long stable situated in the length of a wall . It was for sheep that is why we could stress what we say that this place was a stable, and a place for slaughtering animals. The measurements of this stable are as follow :

Length 46 cm

depth 13 cm

breadth from inside 45 cm breadth from outside 56 cm while the middle building is of 52 cm of depth, the length 3,30 m, the 2,29 m the length 95 cm.

About the room no. 9 from the place A and the place B, it was joined directly with another room. It was given the number 3. The room was numbered from the east directly that means from the direction of the Tigris River.The room which is mentioned is rectangular also its length is10,90m and its breadth 5m. between its north walls a there is a door, its breadth is 2m. It joined directly with the back wall on which had fallen a big mass of the building of the fortress. It weighs about tens of tones. It was removed by the team to save the other walls from falling.

This room is also joined with another room. It is of a rectogular shape the back of the room had been closed by a second wall but it was removed after the fortress was ruined. The inhabitants of Mosul used the remains of this building to build their houses.

The length of this room is 6,10 m the breadth 4,80 m. In its north wall there is a door, its breadth is 2m. which was joined with the court at the back of the room, mentioned before. In the east of the room there is another door, its broadness is 2,55m, its is joined directly to the room no. 1 which is of a rectangular shape. The breadth of it is 3,50 m its length 4,40 m. This room is a passage under the north wall of the fortress which is facing the Tigris river directly and was joined with a long passage going directly to the shore of the river.

Archaeological findings.

1. The discovery of many bronze coins which were very rusted; they were cleaned and are now in the museum. Some of them are still of unknown origin because they are worn out. They are probably of the Atabik

of the fortress.

Beside room no. 4 a and at the east direction, we found room no. 6 A which was joined with a corridor with no. 4. This room was of rectangular shape. Its length was 5.20 m and its breadth was 3.60 m and the entrance of the room its breadth was 1.60 m while the breadth of the wall was less from the first wall about 10 cm., i.e. 1,20 m.

In the north of these two rooms there were other two rooms numbered 867. A They were not linked in the south with the two previous rooms but they were linked in the north with another room. They were also of a rectangular shape but the wall which divided them was very thick, the breadth of it was 2,20 m.

Room no. 7.A Its length was 8m, its breadth was 5,20 m.

About room no. 8 it was joined with the room in the north which was given the number 9.A It was also of a rectangular shape.Only its breadth was measured which about 4,80 m, but its length could not be discovered because part of the room is in the orphanage building. This room is in the north-west.

The most important archaeological findings which were discovered in this site were in the kitchen. The kitchen was of a large size. It was part of the appartment which was linked to the military fortress which confirms that the inhabitants of this fortress were soldiers and of great number.

We discovered during our excavation that the rooms and the corridors septic tanks were all in the north west of the fortress and its foundations were at the level ofthe foundations of the original building. This makes it easy to get rid of the dirty waters which ran in the south of the kitchen. These inhabited appartments were joined with corridors,their breadths are equal, they are without roofs and have remained like that for different periods. Some of these corridors were covered with roofs in the later decades.

The team found in these rooms places to keep animals ready to be killed for the inhabitants of the fortress. A stable in the south of room no. 7 was found also. It was of a small depth and it was ruined because of the years. It was also found in the middle of no. 8 a bench which slopes to a small basin. This was a place to slaughter animals. Beneath the basin there were remains of blood which has become black (See form 11).

To clarify the place from different points, the team joined no.7.8.9 of the place B with other numbers. It seems that there is no wall separating

The first week of the excavation was the week of discovering the added walls on the original walls. the heights of the walls were short and of medium thickness and they were stuck on the two walls mentioned above . But after the cover from the wall, a new sheet of wall was seen. This wall was also covered with tarmacadam. It was built as a bath with lavattories for the inhabitants. To this we gave no. (1). The two sides of this place were built with bricks and stones and it was covered with tarmacadam The roof was built with stones and covered with tarmacadam .

About no. (2) which is situated directly on the Tigris River, the added walls were directed towards the North and its depth reached the bed of the dirty waters.From it there is a branch which goes directly to the river. The cover was removed. We found only two edges of the wall. The levels of these walls were at the same level of the earth. The breadth was 1,50 m. It was found in store no. (3) , many potteries, stones, grains and mud accumulated for ages. The number division which the site was divided into and number, was of a great use we would not confuse the discovered rooms and the things which were found in it. It made it easy for us to know the remains of each room. (See maps 224) .

We started reconstructing the rooms and the corridors from down to up, from no.4A which was of rectangular shape and was divided into two between it a corridor. The length of the first part was 2, 65 m and the second 3 , 40 m. The breadth of the room was 5, 20 m and the thickness of its walls was 1, 75 m from the north while the thickness of the south wall of the room was 1, 90 m. The thickness of the wall of the corridor was less than the thickness of the two walls which were beside It was about 1, 30 m. It was discovered on two ruined ovens for making bread . The team took the photos and the measurements of the ovens. The diameter of the mouth of the ovens was about 46 cm. The ovens were full of ashes and stones. They were cleaned after the foundations of the ovens were discovered .

About no.(A) which was a corridor separating the septic tanks and the bath and situated between the north kitchens. The heights of this corridor were less than the oher building in the fortress. The team tried to discover the original layere which rested on mountains. (It is believed that the fortress was built on the mountain) . The team removed the earth and found very hard yellow stones . These hard stoses were built on by the inhabitants

Bash Tabiya
First Season

The University of Mosul appointed in the 12th June 1969 a team for excavation headed by Dr. Talat al - Yauer with Abd al - Wahid ar - Ramadani as supervisor on the excavation team which took place in the Islamic Archaeological site of Bash Tabiya in Mosul. The team consisted also of Muwafaq Ahmad as civil engineer and representative from the General Directorship of Antiquity. Five skilled workers from Shirkat known for their previous work with excation teams in Nineveh helped the excavation team ; while the unskilled workers who joined the team were over fifty who worked constantly during the first season of excavation , which lasted over four months .

The task given to the team was to discover from the ruins of the fortress of Bash Tabiya what was unknown , hidden and unrevealed. Therefore the team started its task by making a careful survey of the fortress and the mounds around it.The survey covered also the lands which surround the fortress. The team also took photos of the site from its different sides and specially the remains of the ruined tower of the fortress and the remains of its extension towards the north-west; besides the team took the photos of the fallen walls and roofs and the indoor corridors and the wall which surrounds the fortress .

The team chose the system of alphebetical order naming the buildings of the fortress and also giving a number to each building which was going to be excavated. By this way the team would make the task easy and better organized to get exact historical information about the site and would avoid confusion with the archaeological findings in different ports of the building .

The digging started between two standing walls which were partly ruined. These walls were extended to the south. The team followed this extension in opposite directions (east and west) . In this way he team would know the extension of the two walls. Moreover the team would know the late period which were sticked on the original walls which were built from plaster and stones. The foundations of the walls were covered with tarmacadam to stop dampness from penetrating the walls, which happens usually because of the water used by the inhabitants of the forress . (see plates II . III .)

walls and towers when the army of Tahmasib retreated. In the year 1236-1830 Ahmad al-Jalili reconstructed the fortress of BashTabya. After this date we know nothing about reconstructing the fortress because it was ruined and nothing was left except part of its tower and its wall. At the present time the University took the task to reconstruct the building.

The fortress of Bash Tabiya was built to accommodate thousands of soldiers. It has stores for munitions and weapons. This is mentioned by Ibn al-Athir when he spoke about Chawli in the year 502-1108. Chawli left the city leaving his wife and his son Yusiq. In the city lived a thousand and five hundred Turkish horsemen and other soldiers· 1

One of those people who were interested in building the fortress and strengthening its towers after it was ruined, was Fakr al-Din b. Abd-al-Masih, the minister of Sayf al-Din Ghazi who took his viziership in 566-1170 . 2

The city was visited by Ibn Jubayr, the Andalousian, in the year 579-1183. He described the city by saying "in the top of the city there was a great fortress built firmly, around the fortress there was an ancient wall with towers and there were houses belonging to the sultan and there was a street separating the city from the fortress." 3

This fortress extends from Bash Tabiya in the North to the tomb of Yahya b. Qasim, to the south and from there to the ruins of the graveyard al-Naqib in the east. and from these ruins it goes to the north to the street which goes to the Hospital . It ends in the western wall west of the gate of Huriya. Its dimension is about 6300m2.

It is regretted that nothing about the appartments of the fortress has reached us, but we know the names of the gates of the fortress. They are as follows.

1. Bab al-Qala which goes to the square of the city in the west.
2. Bab al-Sir which goes to the river. When Salah al-Din Ayubid came to Mosul in 578-1182, Mujahid al-Din b. Qimaz went out for some nights from the gate of al-Sir carrying torches with them, chasing the army of Salah al-Din .

1. Ibn al-Athir, *al-Kamil fi al-Tarikh*, X, 172.
2. Ibid, *op.*, *Cit.*, XI, 134.
3. Jubayr., *Rihla*, p 188.

rounded the city fortress taken by Basasiri who pulled down the fortress.4

This secret gate is very important and one of the strongest gate of the fortress. In the year 566-1170, when Nur al-Din Zinqi surrounded the city of Mosul‘ he swore that he would never enter the city by the secret door to defeat the rebel Abd ql-Masih Fakhr al-Din who oppressed his nephew Ghazi . 1

The fortress is connected with Qara Saray. It was called before the house of al-Hilka or the houses of Saray. These houses were built by Imad al-Din Zinki. They were situated on the Tigris river and it is said by Ibn Jubayr that these houses were separated from the top till the bottom with a large street. This street was built by the Uqaylids. 2

In addition to that the fortress was a headquarter of the army and it was a prison for the outlaws. In this prison lived Qutb al-Din Mawdud who was previously governor of Mosul in 558-1162 and, his minister al-Jawas al--Isfahani . 4

It is mentioned also that in this prison lived Izz al-Din Masud, governor of Mosul in 559-1162, and his minister Mujahid al-Din Qimaz. 5

The fortress remained in good condition till the year 660-1261, when it was surrounded by Sindraghwa. In that year it was reconquered and it was pulled down . 6

The rest of the fortress was demolished by the Turkish invader Taymur Leng who came to Mosul in 796-1393 . 7

After this period the city of Mosul was taken by the Ottmanids and the governor of the city Bakr Basha b. Ismail ordered to build a wall for the the city in the year 1035-1625 . 8

It should be mentioned that the fortress was taken as a headquarter by Husayn Basha al-Jalili and he took care of the fortress by rebuilding its

---

4. Al-Daywachi, *op cit*, p 119. Ibn Kuthayr *al-Bidaya wa al-nihaya fi al-Tarikh,* Cairo, 1351 AH, 1932 A.D. IIIX‘ p234. Ibn al-Futi, *al-Hawadith al-Jamia wa al-Tajarib al-nafi a* , ed Mustafa Jawad, Baghdad, 1351-1932, pp 346-347.
1. Ibn al-Athir, *al-Kamil,* IX, 198. Ibid, *Loc., cit.,* IX, 147.
2. Ibn Jubyr, *Rihla*, p 188
3. Ibn Khallikan, II, 72.
4. Ibn al-Athir, IX, 46 .
5. *al-Hawadith al-Jami a,* p 346-347; Dhahabi, II, 188; Ibn Kuthayr, *al-Bidaya wa al-nihaya*, IIIX, 234; Ibn al-Ibri, p 294-295 .
6. Ibn A‘arb Shah *AJa ib, al-Qudur Fi Akhbar Taynur Leng,* 188-47;
7. Al-Ummari, Yasin, *K. al-Udaba*, Manus .
8. Ibid, *op., cit, loc. cit.*

THE FORTRESS OF BASH - TABIYA

T. R. Yawer (Ph.D.)

Historical background.

The fortress is situated in the city of Mosul on the westside of the Tigris river, built on a hill near to the bank of the river. The founder of the fortress is unknown and the time in which it was built is also unknown. But from the references we have. mention is made that the wall of Mosul is known in the periods following : In the time of the Umayyad it is said that Marwan B. Muhammad was the one who made it as a city with a diwan and he built a bridge connecting both sides of the city and he also built a wall for the city. In the time of the Abbasid period, the caliph al-Abbas appointed Yahya b. Muhammad instead of Muhammad b. Sul. The new governor looted the city and killed thousands of citizens and pulled down the wall of the city. It is said also that the city revolted against the caliph al-Rashid, this capliph is said to have pulled down also the wall of the city. 1

At the time of the Uqaylid, it is said that the miribn Qurmis built a new wall and its remains can still be seen at the present time. 2 While at the time of the Atabiks, mention is made that Sayf al-Din b. Mawdud re-erected the wall of the city, in the year 564 A.H. It is said also that the founder of the Atabik dynasty was the first to re-erect the wall of the city and that ibn Mawdud rebuilt the wall of the fortress and strengthened its towers. 3 When the great Mongol invasion came from the east, Mosul was a target, the city was looted and the walls pulled down in the year 660 A.H.

Reference is made that the fortress of Bash-Tabiya is mentioned in the Vth century after Higra in the year 450 AH 1085 AD. A fight broke out between Ibrahim b. Yanal and al-Basasiri . It is said that al-Basasiri sur-

---

1. Yaqut al-Hamawi, *Mu jam al-Buldan* Leibzig, 1286-1869, II, 196; Al-Uzdi, *IQd al-Jumman*, Munus. No. 1584; (*Tarikh al-Mawsil*) ed. Dr. Ali Habiba, Cairo 1387-1967, II, 25; Abu al-Fida, *al-Mukhtasar fi Akhbar al-Bashar*, Istanbul, 1286 II, II, p16; Al-Buladhuri, *Futuh al-Buldan*, Cairo (1957) II, p408.
2. Al-Ma'adidi, Kh., *Dawlat Bani Uqayl fi al-Mawsil*, *Baghdad*, 1968, p164;
3. Al-Maqdisi, Abu Shama, *al-Rawdatayn Fi Akhbar al-Dawlatayn Nuriya wa al-Salahiya* Cairo 1287, I, 43; Ahmad al-Sufi, *Khutat at-Mawsil*, Mosul, 1953, 12-13.

THE FIRST TEST

1 . Use in sentences :

span, tension, cohesion, experimental, seepage .

2 . Give the meaning of :

data, fracture, elevation, ductile, deformation .

3 . Answer false or true :

a . Mines cannot be constructed at low elevations .

b . Hydrographic surveys are often made in planning mines .

c . If a thing has fractured, it has lost its deformation .

d . Contour lines are often found on topographic maps .

e . If a thing is fatigued, it has plastic deformation .

4 . Insert the proper words in the blanks :

a . Around the ends of the dam are two ———— , which carry away the excess water .

b . It has a 10 - foot ——— down the middle which is covered by grass .

c . As the water flows around the ends of the dam in this way , it has ——— energy .

d . The dam is constructed of ——— , or stone and concrete .

e . The body of water which is held back by the dam has ——— energy .

THE SECOND TEST

1 . Use in sentences :

interested, situation, determine, ductile, hydraulic .

2 . Give the meaning of :

get confused, undertake, spillway, hydrographic, kinetic energy.

3 . Answer these questions :

a . How much weight must the truss support ?

b . What are turnpikes usually made of ?

c . What is mine surveying concerned with ?

d . When does fatigue occur ?

e . What decides the shape of the dam ?

4 . Write a coherent paragraph , of about 80 words , on the major problems we find with dams .

already heard from other lecturers, but we are reading literature with them, though adapted ; and literature is meant to be enjoyed, and once enjoyment is attained, learning takes place, mostly unconsciously (29) .

With the use of literary material, methods have to be modified. In brief, the three steps of effective literature teaching are : first, presenting the literary text entire as quickly as possible to help students get the general drift, or impression, quickly . If the text is too long, it should be divided into self - contained episodes, and each should be made the subject of one lesson. A good reading aloud by the teacher is very helpful here. Secondly, discussing with the class the work, or the episode, read to get the details clearer.And finally, looking at the work, or the episode, read whole again. A final reading, in which the class can take part, is the appropriate method at this stage, but the last impression must not be a bad reading . (30)

We feel that this kind of training in English should not be limited to first - year students only ; it should really continue throughout the course of study, and for all students whatever their specialisation(31).For to gain mastery over a foreign language, one has to keep in contact with it all the time, one has to hear, speak, read, and write it as often as possible (32) . What is the use of having English for only the first year ? It is obvious that when it is abandoned for the rest of the course, it is bound to diminish and be forgotton in the course of time. This would be a great waste for our students, especially after having studied this language since the age of eleven(33).Furthermore, it would be an unforgivable offence against the English language itself which, with its literature and the ideas and ways of life it reflects, can help to make an essential contribution to the development and the flowering of the civilizations of other nations, including ours . (34)

---

29. See Mayhead, R., Understanding Literature, Cambridge University Press, 1965, pp. 8-9. See also Thompson op. cit. p. 4.
30. See Pattison, B., "The Literature Lesson" ,ELT, Vol. XVIII, No. 2, 1964, pp. 61-62. See also Elliott, A. V. P.. "The Reading Lesson", **ELT**, Vol. XVII, No. 1, 1962, p. 15; and Barnard, G.L. ,"Reading to the Class 'With Expression' ", **ELT**, Vol. IX, No. 1, 1954, p. 25 .
31. We have just established that English lectures on specialised subjects are not enough to develop the students' oral and written expression in the language.
32. See Nasr, R. T , **The Teaching of English to Arab Students,** Longmans, 1963, pp. 3-4.
33. Learning English in Iraqi state schools starts at the age of eleven when children are in their fifth primary school year .
34. See Editorial, "Foreign Language Studies: Their Place in the National Life", **ELT** Vol. **I**, No. 1, 1946, pp. 5-6.

to consume the time and engergy of our English lecturers, it is best transmitted by specialist lecturers, who are supposed to master both content and language. English lecturers, and the writer is one of them, had better devote their time and energy to giving pure English lessons to these students who, as the tests show, desperately need practice in English. This kind of training would certainly compliment the work of other specialist lecturers and help to produce students ready to understand their lectures and also capable of self - expression at the same time .

Some might well ask, "What kind of material should be used with our students instead ? " This query is fair enough, since we have expressed doubts about the utility of " Special English ". Taking into account the present standards of our students in English , we believe that adapted literary material, like short stories(24),short novels(25,)or in fact science fiction(26),could be used effectively(27) to teach the structures and "mechanisms" of English in a context of situation - in the context of literature , whether adapted or otherwise(28). Here, we can easily secure the students' interest in, and enjoyment of, their English lessons. We are not really repeating, in different, sometimes the same, contexts, terminology they have

24. Adapted short stories first like the ones published in Longmans Simplified English Series, then more advanced material, like that published in Longmans Bridge Series, and the Heritage of Literature Series, could be suggested. We also suggest here material from the National Council of Teachers of English, **English for Today, Book Six, Literature in English,** McGraw-Hill, 1964, and John Millington Ward, **British and American English,** Longmans, 1967. Then short stories from the following could be chosen : W. Somerset Maugham, **Collected Short Stories Vols. 1-4,** Penguin, 1967, and **Favourite Stories,** by the same author, Avon Book Division, New York. Stan Barstow, **The Desperadoes and Other Stories,** Penguin, 1965. Alan Sillitoe, **The Loneliness of the Long Distance Runner,** Pan Books, 1965. W. W. Jacobs, **Selected Short Stories,** Penguin, 1959. Ernest Hemingway, **The Essential Hemingway,** Penguin, 1967. Wallace and Mary Stegner (eds.) , **Great American Short Stories,** Dell, 1957. And Penguin Modern Stories, Penguin.
25. Like George Orwell, **Animal Farm,** Penguin, 1955; Doris Lessing, **Five,** Penguin, 1960; and **Six Great Modern Short Novels,** Dell, 1959 .
26. Like H. G. Wells, **The Country of the Blind and Other Stories,** Longmans, 1955, and **Selected Short Stories,** by the same author, Penguin, 1964. John Wyndham, **The Seeds of Time,** and other works by the same writer. And Penguin Science Fiction edited by Brian Aldiss, Penguin, 1963 .
27. We say "effectively"here as the students' response to this kind of material has been very encouraging since we swtiched over from "Special English" to literary English.
28. See Thompson, D., "What is Literature?" in National Association for the Teaching of English , **Eng. Lit. and English Literature,** Bulletin Vol. III, No. 2, 1966, p 5.

the scientific content and facts of these texts (18) ; but when it comes to speech and writing, the oral and written expression of their thoughts in the foreign language, they suddenly become incapable(19).This difficiency, shown through the tests above , requires immediate investigation. Obviously, any kind of treatment would not be effective without pinpointing the cause of the trouble. To the writer, the core of the problem is the tendency to teach so - called "Special English" by English teachers to students of non - literary pursuits. If the primary purpose of prescribing this kind of English is to acquaint students with, and help them to master, the scientific or technical terminology, as is the case in our Colleges of Science, Engineering, and Agriculture(20),we feel that both our students and English teachers are wasting their time. Scientific and technical terminology is already tackled by other specialist members of staff in their lectures. Through constant repetition, terminology is absorbed gradually, and sometimes quite unconsciously. The same thing need not be done twice, once by the expert lecturers, and then by the English teachers(21).This obviously creates boredom in the students, and once boredom sets in, learning stops (22).

From the writer's point of view, what the students need is not really training in scientific or technical English to be able to follow their specialised lectures delivered in English, but training in everyday English itself. For what is the difference] between scientific or technical English and ordinary English ? The answer is simply that the former variety of the language is really composed of the latter plus terms or expressions required by the subject(23).Scientific or technical English, therefore, does not have

---

18. Here, the writer has his own science and engineering students in mind as well as those taught English by his colleagues, and whose case is discussed with him.
19. Many a time, non-Arab members of our University staff have compla ned to the writer of their students' incabability of intelligible expression when they talk to them on specialised, or gemeral subjects, for that matter, although they are certain that the students do absorb the terminology and jargon of their lectures.
20. See p. 20.
21. The writer remembers some very awkward situations he fell into when he was asked by some of his science and engineering students about certain specialised terms he failed to understand himself, let alone explain to the students. Similar situations are frankly admitted by our colleagues who teach this so-called "Special English".
22. The writer distinctly remembers the students' discouraging response to "Special English". "Not the same thing again!", "We've already had that,sir. Why can't we have something else? Something different!" are among the comments heard. Comments like these have sparked off this investigation.
23. See Herbert, op.cit., p.v.

engineering students(15), also consists of four questions on the same material as the first test. The first two questions are the same as in the first test, except that the words, or terms, chosen were not all strictly engineering, they included literary ones. The third question consists of five engineering queries to be answered in complete sentences. And in the fourth one, the students were required to write a composition of about 80 words on an engineering topic. Each test was marked out of 100, with twenty - five marks allotted to every question. One hour was allowed for the first test, and two for the second. (16)

A glimpse at the results in both tests shows the students' efficiency in the first test and their defficiency in the second one. The disparity in these results is so obvious that it calls for careful consideration. In the first test, 96.7 per cent of the students passed , and their marks range from 83 to 100, whereas in the second, only 39.2 per cent passed with marks ranging from 50(17) to 71. The only question that lowered the scale of marks in the first test is the first one, where the students had to construct grammatically correct sentences using the words, or terms, given. This obviously indicates weakness in the language. But in the second test, all questions got bad, or low, marks, especially the fourth one, where the students had to write a continuous and coherent piece of compositon of about nine lines long in correct English. Their effort in this particular question consists of jumbled sentences which do not really make sense as far as language is concerned . In addition to their poor performance in composition , it is surprising to notice that their language weakness is centred round anything that is not purely engineering .

The results above clearly illustrate that although the texts used are especially prepared or prescribed for the convenience of our science, engineering, and agricultural students, these books do not seem to have done, or be doing, very much for them in so far as mastery of English is concerned. Their language skills , particularly speech and writing, are sadly lacking. Admittedly, these students are able to master, and reproduce when asked,

---

15. The other groups are taught by another teacher.
16. The writer thought that one hour would be quite enough to do the first test More time was allowed for the second test because, besides the composition, it had items in it that were not strictly engineering.
17. This is the lowest pass mark in Iraqi schools and universities.

"English for the Students of Science , Part 1" (8) consists of comprehension passages about scientific subjects ranging from Mathematics and Geology to Chemistry and Medicine. Every passage is followed by questions designed to train students in sentence - construction , paragraph - building , and note - taking in relation to purely scientific topics . The other text , "Special English - Engineering , Books 1 and 2", orignially prescribed for engineering students, (9) is composed of lessons. Every lesson consists of three parts : A, B, and C. Part A is a dialogue between two or more people about an engineering topic; Part B,called "Terminology Practice", explains words and expressions thought difficult by the authors , using everyone of them in three , sometimes more , sentences to make it clear ; and Part C, termed "Check - up ", is an exercise to find out if Parts A and B are understood. The third text, "Special English - Agriculture, Books 1 - 3",(10) is written in exactly the same manner as the second one, except that the subjects are, of course , different .

The methods used by all English teachers at these colleges (and they are three including the present writer) are more or less the same.(11) The students are given an assignment to do at home ; then this particular assignment is discussed in class, and the same procedure is followed with exercises. Both teacher and students cooperate to make everything clear.

To find out how helful the texts are in increasing our students' knowledge of English and ensuring their command of it, two tests were administered on one type of these students as a pilot experiment . The first test paper , given to first-year engineering students, consists of four questions on lessons 6-10 in their text.(12) The first one is five engineering terms to be used in meaningful sentences ; the second is again five engineering terms to be explained in English ; the third question is five engineering statements to be identified "true" or "false" ; and the last one is five engineering sentences with five blanks to be filled by students. (13)

The second test paper (14) , given to the writer's groups of first-year

8. This text is now used with first-year students at the College of Agriculture. **Special English- Agriculture** is abandoned for reasons to be mentioned later .

9. We say "originally" here, because this text has ceased to be used for reasons we will explain later .

10. As mentioned earlier, this text is replaced by **English for the Students of Science, PartI.**

11. From time to time, we discuss our methods with the intention of coming to an agreement about the best to be used in relation to specific subjects or lessons.

12. **Special English-Engineering,** Book 1.

13. and 14. Copies of these test papers are supplied at the end of this investigation.

TEACHING SCIENTIFIC OR TECHNICAL ENGLISH TO IRAQI UNIVERSITY STUDENTS

H. B. M. Al - Sawaf , Ph. D.

The tendency to teach "Special English" to non - English students of science , engineering , agriculture , medicine and other non - literary fields is not new. There are in fact quite a few courses, or texts, especially written for these types of student.(1)The primary object of these texts or courses is supposed to train students in the special language, or register, used in these specialised fields, and help them to master it.(2)In Iraq, this kind of training is considered most important since the medium of instruction at the university colleges of science, engineering , agriculture, and medicine, is English; and almost all books and references used are written in English. Therefore, special material is prepared (3), or prescribed, (4) for first-year students(5)of the University of Mosul Colleges of Science,(6) Engineering, and Agriculture. (7)

---

1. See Brookes, H. F., and Ross, H., **English as a Foreign Language for Science Students,** Vols. 1 and 2, Heinemann, 1967 .See also Ewer, J. R., and Latorre, G., A **Course in Basic Scientific English,** Longmans, 1969. Herbert, A. J., **The Structure of Teachnical English ,** Longman, 1970. English Language Services, **Special English-Medicine,** Books 1-3, The Macmillan Company, 1966. Close, R. A., **The English We Use for Science,** Longman, 1969. And Garwood, C. H., "The Teaching of English to the Non-English-Speaking Technical Student 1 and 2", **English Language Teaching,** ELT, Vol. XXIV, Nos. 2 and 3, Oxford University Press, 1970 .
2. See Ewer and Latorre, op. cit., p. IX.
3. Al-Khatib, I., et al., **English for the Students of Science,** Part I", Mosul University Press, 1970 .
4. English Language Services, **Special English-Engineering,** Books 1 and 2, The Macmillan Company, 1967. English Language Services, **Special English-Agriculture,** Books 1-3, The Macmillan Company, 1966 and 1967. This material is prepared, or prescribed, with the standards of Iraqi students in English in mind .
5. Why English is studied only in the first year will be discussed later .
6. Although English is no longer taught here, **English for the Students of Science,** Part I is still used with the students who failed their English last year. Why English is no longer taught at this College will be discussed later.
7. The writer cannot understand why English is not taught at the College of Medicine. Throughout this investigation, the writer is focusing on the University of Mosul since his language teaching experience is acquired there .

member of our staff' and how these awful business men who *had got* control of the estate had put this creature in . (31)
36 - He had given his quarry a good start and had set out in Max's Humber, which he *had left* below by the sea wall . (32)
37 - She jerked a finger at the door which let to the shed where he *had slept* the previous nignt · (33)
38 - His mind was crowded with memories ; memories of the knowlege that *had come* to them when they closed in on the struggling pig, knowledge that they *had outwitted* a living thing, *imposed* their will upon it, taken away its life like a long satisfying drink. (34)

To sum up, we may say that the use of the past perfect is determined by these factors :

1 - Stylistic Choice. A sequence of the past perfect tenses is cumbrous; we often find the past simple used instead of the past perfect .

2 - The Nature of the Verb. A completed action, or an action of short duration is expressed by the past perfect ; whereas an uncompleted action, or an action of long duration is often expressed by the past simple instead of the past perfect. The past simple is also used instead of the past perfect when the verb expresses a state or a result rather than an action .

3 - The Position of the Verb. The past perfect tense is often replaced by the past simple in the subordinate clause, especially in temporal clauses.

4 - The Force of Contrast. The past perfect is used as marker of the shifting back of events into a more distant past .

31 Angus Wilson, *The Wrong Set*, p. 60 .
32 Iris Murdoch, *The Unicorn*, p. 105 .
33 Graham Greene, *The Man Within*, p. 44.
34 William Golding, *Lord of the Flies*, p. 67 .

rcise, he *had heard* Mrs Davidson's agitated whisper, like the distant flow of a mountain torrent . (24)

29 - His father *had been killed* in a running fight at sea and dropped unobtrusively over the side while he *was learning* to decline 'oikia' at his school in Devon . (25)

30 - When she *was expecting* her second child, Martha *had thought* of writing to the author . . . (26)

31 - While major *was speaking* four large rats *had crept* out of their holes and were sitting on their hind - quarters listening to him . (27)

32 - He and the taut woman *had developed* a cheerful friendship through their many brief encounters when he *was locking* or *unlocking* the garage and she *stood* in her doorway with her toes in grey gym shoes planting exactly at the edge of the sill . (28)

In the above examples the past perfect stresses the completeness of the action, whereas the past simple or the past continuous stands for an unfinished action .

IV. One type of subordinate clauses where the past perfect frequently occurs is the relative clause. This is hardly surprising since the antecedent of the clause is often defined by means of events which happened in the more distant past. Moreover, there is often contrast between the verb (s) of the relative clause and the other verb (s) of the sentence ; which requires the use of the past perfect tense, as in the following examples .

33 - The two horses had just lain down a brood of ducklings, which *had lost* their mother, filed into the barn . . . (29)

34 - In the days when Cottingham park *had been* the big estate and the few houses of Cottingham no more than a hamlet clustered beseechingly at its gate, park lodge was the Dower House, built for somebodys' mother-in - law who could not be tolerated up at the big house and had been put at the bottom of the garden with the compost heap . (30)

35 - Sir Harlod had spoken so often of him as 'my torchbearer,the youngest

---

24 Somerset Maugham, *Collected Short Stories*, I, p. 11.
25 Graham Greene, *The Man Within*, p. 11.
26 Monica Dickens, *The Heart*, p. 25.
27 George Orwell, *Animal Farm*, p. 11.
28 Monica Dickens, *The Heart*, p. 55.
29 George Orwell , *Animal Farm*, p. 7.
30 Monica Dickens, *The Heart*, p. 34 .

cheque . (16)

21 - Dick *had come* out of the trees to Tommy the moment the two men *left* the day before . (17)

II · When verb to *Be*, the past participle, or to *Have* express a state or a result rather than an action, and these verbs occur in the subordinate clause then the past simple is normally used instead of the past perfect, as in the following examples .

22 - He *had baptized* them when they *were* babies . (18)

23 - They *had both known* her when she *was* a child and they long - legged boys . (19)

24 - At the beginning, when the laws of animal Farm *were* first *formulated* the retiring age had been fixed for horses and pigs at twelve . (20)

25 - They *had started* the rebuilding of the windmill the day after the victory celebrations *were ended.* (21)

26 - They *had almost quarrelled* about it some weeks ago when she *had refused* to go to studio One to see the Raimu film because she *had* her next lesson to prepare . (22)

Occasionally we find the past perfect of such verbs used in the subordinate clause, whilst the verb of the main clause is put in the past simple. However, such examples are not common .

27 - When her mother *had been alive,* she *paid* thirty shillings of the two pounds a week she earned towards the house - keeping . (23)

The use of the past perfect in the above example is due to the force of contrast .

III . In verbs which indicate simultaneous actions, the past simple or the past continuous expresses an action of long duration, whereas the past perfect denotes an action which took only a short time .

28 - As he *walked* past them backwards and forwards for the sake of exe-

---

16 *bid* ., p. 103 .
17 Doris Lessing *Five* (Penguin, 966) , p. 234 .
18 John Wydham, *The Midwich*, p. 59 .
19 Somerset Maugham, *Collected Short Stories*, I, p. 18 .
20 George Orwell, *Animal Farm*, p. 94.
21 *Ibid* .
22 Angus Wilson, *The Wrong Set*, p. 99.
23 Doris Lessing, *Five*, p. 76 .

9 - She *had gone* there because she *had promised* the old ladies that she would . (6)

However a sequence of the past perfect tenses is cumbrous, and the past simple is often used instead of the past perfect in the following cases :

1 - The past simple is often used instead of the past perfect in the subordinate clause, especially if it is a temporal clause introduced by *when, after, as soon as , since,* etc . ; although the simple past may also occur instead of the perfect in other types of subordinate clause .

10 - When she *felt* better she *had explained* that in changing the boys' napkin she had pricked him with a pin . (7)

11 - Come out on the lawn, Barry *had said* when she first *arrived* .(8)

12 - Trever *had talked* big about helping Norman, when she *told* him the boy had won a scholarship at london University .(9)

13 - She had never in fact been able to distinguish religion from superstition, and *had given* up her own practice of it when she *discovered* that she could say the lords' prayer quickly but not slowly . (9)

14 - His second front teeth, already gone through neglect. His grandmother *had pulled* them when they went bad . (10)

15 - Each day after her husband *went* off to work, she *had gotten* into the second car and driven to within three blocks of the grey house . (11)

16 - Victoria *had discovered* Common after she *moved* into the overheated stuffiness of Granchester Mansions . . . (12)

17 - Yet they *had come* at once as soon as they *got* Marian's note with the dreadful news . (13)

18 - She *had taken* to flight as soon as the gun *went* off . (14)

19 - They *had been* much better since Edward left Chicago . (15)

20 - Tom and Cronshaw *had gone* off together the moment they *cashed* the

---

6 *Ibid* ., p. 139 .

7 John Wyndham, *The Midwich Cuckoos* (Penguin, 1965) , p. 99.

8 Muriel Spark, *Voices At Play* (Penguin, 1966), p. 124 .

9 Iris Murdoch, *The Bell* (Penguin, 19) , p. 14 .

10 Monica DicKens, The Heart, p. 210.

11 Philip Roth, *The Psychoanalytic Special* (Penguin Modern Stories 1969), p. 10.

12 Monica Dickens, *the Heart* , p. 103 .

13 Iris Murdoch, *The Unicorn* (Penguin, 1966) , p. 231 .

14 George Orwell, *Animal Farm* (Penguin, 1967), p. 39 .

15 Somerset Maugham, *Collected Short Stories* I (Penguin, 1963) , p. 53 .

SOME NOTES ON THE PAST PERFECT TENSE

Yowell Y. Aziz, Ph. D.

The Past Perfect tense may be said to express an action that has been projected further back into time than something else that is in the past tense. Typical examples given by grammar books are :

1 - When they had finished the work they went home .

2 - He knew that he had met the man before .

3 - After she had written the letter she went out to post it .

In each of these examples only one verb is projected into the more distant past, for which the past perfect tense is used. Grammar books say very little about the use of the past perfect tense in sentences where two or more verbs are involved. One may therefore ask : If there are more than one action projected into the distant past, do we use the past perfect tense for all these actions ? The present article aims at shedding some light on this question .

The writer may use the past perfect tense for all the verbs which are shifted back into distant past, e.g.

4 - Perhaps the most awful moment of the awful days, since she *had been summoned* back to the hotel from the office, *had been* the realization of her own clumsiness . . . (1)

5 - His eyes *had gleamed* red and small with hatred as he *had cursed* her for it . (2)

6 - But it *had been* pitiful to see his poor body when they *had washed* him, and she *had cried* with the pain, great, heavy sobs .(3)

7 - Each new face *had been* a stab of anxiety and when unrecognized a faint relief, until the steady, alternating currents of fear and comfort *had lulled* his mind asleep . (4)

8 - When Grace *had organized* a short, scrappy play at Christmas, with costumes made by herself and the class, very few of the parents *had bothered* to come . (5)

---

1 Angus Wilson, *The Wrong Set* (Penguin, 1966), p. 67 .

2 *Ibid* .

3 *Ibid* .

4 Graham Greene, *The Man Within* (Birkley Publishing Corp., New York, 1958), P. 25 .

5 Monica Dickens, *The Heart of London* (Penguin, 1964) , p. 62 .

c. It helps when a person is feeling lonely .
d. It gives pleasure, especially after meals and while drinking.

3. Its disadvantages :
   a. Waste of money .
   b. Bad for health :
      i. Coughing .
      ii. Difficulty in breathing.
      iii. Loss of appetite .
      iv. Bad breath .
      v. It discolours teeth .
      vi. Cancer of the throat and/or lungs.
      vii. Blood pressure.

Paragraph :

Smoking is one of the very bad habits which everybody should avoid. Unfortunately, many men and women are slaves to this habit. These people believe that it helps them concentrate when they are thinking, and gives them relief when they are under pressure. They also say that smoking helps a great deal when a person is feeling lonely, and it gives pleasure, especially after meals and while drinking. But doctors confirm that this habit entails grave disadvantages. It is really senseless to waste money on something harmful. Smoking is very bad for health. It causes coughing and makes breathing difficult. It also causes loss of appetite and makes the breath smell. Moreover, it ruins the teeth by discolouring them. And most dangerous of all, it may cause cancer of the throat and/or lungs. It also aggravates blood pressure. I am very lucky that I have not smoked in my life, and will never smoke.

me as I am an English language student. Moreover, most foreign films are very well produced, and very wide in scope. I can say that every film tackles a new problem in a new way. Finally, watching foreign films helps us to compare them with Arabic ones in every way: in theme, acting, and production. For these reasons, we find that English and American films are very popular everywhere. Let us hope that Arabic films will enjoy this privilege in the future.

2. **Topic : The Annual Flood in Mosul**

Plan :

a. Opening sentence.
b. When it usually happens.
c. Its causes.
d. The dangers it entails.
e. Precautions taken .

Paragraph :

The annual flood is always feared here. It takes place in early spring. To be more precise, it usually happens sometime in April. Rain and snow are the causes of the flood. Their amount determines the dangers of the flood that is coming. It also depends on the nature of the cold season that has passed. Last year, for example, we had a very mild winter with the minimum rain and snow. That is why the flood caused no trouble. But this year, we are expecting a very dangerous flood. We have had a very cold winter with a lot of rain and snow. Damage to fields, livestock, houses, and buildings is imminent. The authorities are keeping a close watch on the situation. They are doing all they can to minimise the danger. Sand dams are being built in the threatened areas. Sacks of sand are placed where flooding is expected. Let us hope that this flood will pass without causing any destruction .

3. **Topic : Smoking**

Plan :

1. Opening sentence.
2. Its advantages :
   a. It helps to concentrate.
   b. It gives some relief.

soon after he arrives. At the same time she has to keep an eye on her two sons to see that they do their homework. At 6:15 it is time for the baby to be fed, bathed, and then put to bed. The two boys have to start getting ready for bed at about 7:15 and if Mrs. Smith does not watch them carefully, they do not wash very well. Finally, she has to wash up the dirty dishes and tidy the living toom and the kitchen. Only very rarely does she finish this before 7:45. "

3. Write a paragraph about breaking up at the end of term. Use the following questions as a guide, if you wish.
    a. How are the last few days of the term different from the rest of the term ?
    b. What do you have to do before you begin the holidays?
    c. How do you feel as the term comes to an end ?
    d. What preparations do you and your family make for the holidays ?
    e. How do you begin the holidays ?

APPENDIX 2

SAMPLE PARAGRAPHS DONE ON THE BLACKBOARD

1. **Topic : My Favourite Television Programme**

Plan :

a. What is it ?
b. How often is it shown ?
c. Do you always watch it ?
d. Why do you like it ?
e. Any suggestions about it ?

Paragraph :

The programme I like best is foreign films, namely English and American ones. This programme is normally shown twice a week, and I am glad to say that I never miss it . Of course, there are reasons why I feel like this about this programme. In my opinion, the most important of these reasons are four. First, English and American films demonstrate how English is spoken by native speakers. Secondly, they show different aspects of the English or American way of life. These two reasons are most essential to

We have found that this technique is most useful and profitable with our first-year students. Strange as it may seem, we still have a great deal to do along these lines before we can embark on free composition with them.(24) This is due to their present standards in English, which must be taken into careful consideration .

APPENDIX I
THE TEST PAPER

1. Use the following paragraph as a guide, and write another describing the way you spent a typical day during a holiday you've had .

   "Whenever he stayed on his grandfather's farm during his holidays, George always had plenty to do. Early in the morning, he used to feed the chickens and other farm animals. After he had finished this, he played with his cousins in the fields until lunchtime. They would pick blackberries, chase rabbits, look for birds' nests, and play a hundred-and-one games. After dinner it was usually too hot to work or play, so George used to take a nap or read a book. Later in the afternoon, he and his cousins would often go swimming. In the evening, the animals had to be fed again, the cows milked, and the chickens' eggs collected. Then it was time for George to go to bed. "

2. Study the following paragraph. See if it has a definite controlling idea. If it does, underline it and decide if it is completely developed. Finally, say if there is any irrelevant information in it .

   "It is easy to understand why Mrs. Smith is always so busy between 5:45 and 7:45 in the evening . Her two young boys go to school at 7:45 in the morning , and Mr. Smith goes to work at 8:00. The boys eat lunch at school and Mr. Smith takes sandwiches to work for his lunch. Therefore, Mrs. Smith is not usually very busy at lunchtime. Mrs. Smith's youngest child is only eleven months old, so she spends most of the afternoon sleeping. At about 5:45 Mrs. Smith has to start cooking because Mr. Smith gets home at 6:30 and wants his dinner

24. The techniques of teaching free composition to our students require further investigation which does not fall within the scope of this paper.

and an incentive to increase and imporove their efforts. (20) Corrections to these efforts can be made by the students themselves with the teacher's guidance; and if they cannot, the teacher himself does the job.

Admittedly, this technique is slow and it usually results in untidy blackboard work, but it pays in the long run, simply because it is practical .(21) It actually shows the students, step by step, how sentences are constructed and paragraphs built; and that is what our students need. That is why we devote three periods a week to composition in the first year : two double periods and another single one. During the double periods, we always manage to finish a fresh paragraph on the board, which the students copy in their composition books. And in the single period, a couple of days later, we give the students a chance to go through and analyse a paragraph written by professional writers, as a follow-up . (22) Also as a follow-up to what has been done in the double periods, we sometimes give the students a topic, or a copy of a picture with a story behind it(23),and ask them to supply a plan for it and then write a paragraph about it at home. And during the following double periods, the same topic, or story, is tackled on the board, in the manner presented above, with us acting as a guide. Remedial work regarding prominent mistakes, linguistic or otherwise, is done during the single period. Language mistakes are dealt with in contexts of situation. In other words, the correct versions of the students' errors are used in little paragraphs, and not in separate sentences out of context, to show the students how they occur in everyday situations. Other mistakes concerning the organisation of the paragraph, its pattern and sequence, are dealt with practically, by going through a sample paragraph stressing these points.

20. Radford, op. cit., p. 50.
21. We have noticed a considerable degree of improvement in the students' expression of English since we started using this method.
22. Paragraphs from the following sources have been studied in class. Jupp, T. C. and Milne, J., **Guided Course in English Composition** , Heinemann, 1968. Bright, J.A., **English Composition Course for Overseas Students,** Longmans, 1962. Campbell, R.R., **English Composition for Foreign Students,** Longmans, 1962. Ohlsen, W. and Hammond, F. L., **From Paragraph to Essay,** Charles Scribner's Sons, New York, 1963. And Close R. A., **The English We Use,** Longmans, 1962.
23. We have used pictures from Hill, L. A., **Picture Composition Book,** Longmans, 1962. See Hill, L. A., **Picture Composition Book-Teachers' Guide,** Longmans, 1961. See also Fleming, G. and Fougasse, **Guided Composition for Students of English,** University of London Press, 1963.

Then the teacher calls for their suggestions in connection with the main ideas, or points, that the topic could cover within the limits of a paragraph of reasonable length. These main points will form the plan for the pagagraph. The plan is then written on the board, and the students are encouraged to stick to it to the best of their ability. (13) Part of this plan should be the opening sentence, or the topic sentence. (14) This also has to be supplied by the students themselves, but care should be taken to ensure that the topic sentence chosen should be capable of being developed. (15) The plan is then followed point by point, and sentence after sentemce, with the students supplying the information, until the paragraph takes a neat shape. The teacher's role is most important here. Through his promptings and questions, he should guide and stimulate the students "without rigidly conditioning their responses. He must help them to develop an ordered sequence of ideas which is basically their own; prompted by him to a considerabel extent perhaps, but not imposed. " (16) The use of short sentences shouldbe encouraged at this stage to help the students see clearly the structure, or "skeleton", of the sentence.(17) Then, having shown capability of using the short sentence, the students can attempt linking some of the short sentences to make them longer, (18) and thus introduce variety to their writing. The use of simple language should also be encouraged to produce natural and straightforward sentences, and not forced or artificial ones . (19) We advocate here that the students write their own contributions to the paragraph, including the litle, on the board. This would certainly give them a more active role in class,

13. See Hill, op. cit.; and Hill, L.A., Outline Composition Book, OUP, 1966.
14. See Chaplen, op. cit., pp. 8 - 9 .
15. See Radford, W. L., "The Blackboard Composition," ELT, Vol. XXIV, No. 1, 1969, p. 50 .
16. Ibid, p. 54.
17. The sample paragraphs in Appendix 2 demonstrate this concern very clearly. These paragraphs were actually written on the board by the students themselves and during their composition periods, but we must not disguise here the fact that the final forms of the sentences in these paragraphs owe a great deal to us.
18. Radford, op. cit., p. 51.
19. In their writing and speech, the students often try to imitate the language of the literature they are reading regardless of its suitablity for the context or situation. They sometimes look for difficult words and expressions to include in their writing thinking, wrongly of course, that this kind of "forced" writing creates a better impact on the reader than the simple and natural language does.

not structure. In other words, the students displayed no original effort in this item in so far as both language and content are concerned.

There was commotion when we gave the students their test papers back after the holidays. They were shocked at their grades. But when they calmed down, they wanted to know why they all, except two, got D. We asked them a few questions, examples of which are these: What is a sentence? What is a topic sentence ? What is a major support sentence and a minor support one ? And what is a paragraph ? (9) We discovered that they really knew all the theory; they even had some theoretical knowledge, parrot fashion, of structure, but when they were asked in the test to write, to actually use the language to express their thoughts and feelings in connection with suggested topics, they were hopeless. They could not utilise their theory to produce good and coherent paragraphs. The students were, therefore, told that what they really needed was practice and not theory, practice in using the language itself and not in memorising theory about it, practice in sentence - construction and paragraph-building rather than in the theory of what a sentence or paragraph is.(10) They were also told that it was not really enough to go through and comment on paragraphs written by other people, professional writers or otherwise. (11)

The crux of the problem is that our students have to be shown step by step how to write a good, coherent paragraph. They have to be taught how to walk, so to speak, by taking them carefully by the hand and helping them with their first steps until they acquire enough strength and confidence to walk on their own with ease and assurance. This kind of help, we believe, is best given on the blackboard. The students are invited to suggest a topic, and the one they like best is written on the board . (12)

9. See Chaplen, **op. cit.**, pp. 1-21.

10. Before we gave them the test , the students were using Chaplen, **op. cit.**, as a textbook, but with another teacher. That is why the first two items of the test were deliberately chosen from this source. The third one was chosen from Hill, **op. cit.**, for reasons to be disclosed later.

11. See Pincas, A., "Writing in Paragraphs" , **English Language Teaching (ELT)**, Vol. XXIV, No. 2, OUP, 1970, p. 184.

12. The teacher here interferes to help the students choose a subject which can be treated reasonably well within their range of vocabulary and structure as well as their experience.

and decide if it was completely developed. Then they had to find out if there was any irrelevant information in it. The third item (7)in the test required the students to write a paragraph about a chosen topic, and included suggestive questions for them to use as a guide, if they wished. Four grades were used in assessing every item - A, B, C, and D - that is, the standards of performance were judged according to the alphabetical order of these grades. (8) Two hours were allowed for the test.

The results of the test were simply shocking. Of the eighty-one students who sat the test none managed to get A or B. Only two of them got what we term "the lowest pass grade" , C; and all the rest got the lowest grade, D. Their effort was merely sentences in a jumbled order;and there was no pattern, sequence, or coherence in the ir "paragraphs". Furthermore, the qnsjectmatter of their "paragraphs" was just as confused and confuisng as their language, with gaps here and there in the same "paragraph." In most cases, the subject-matter was really difficult to follow;and it took us literally days to go through and assess what they had written .

It is significant to find that the test item least difficult for the students was the second . Most of them managed to underline the sentence that expressed the controlling idea, and single out the irrelevant sentences in the given paragraph. But they were unable to decide if the paragraph was completely developed and how. This really was the most important part of the second test item, because it required a careful examination of the paragraph and actually saying in some detail whether or not it was completely developed . In other words, it called for the student's own judgement of the paragraph and his own evidence of this judgement.

The most difficult item for the students was the last one as the test results clearly show . They had to create a paragraph with the help of the few directive questions supplied. They obviously found that this was not an easy job. But the first item of the test was less difficult for them, because they had a model paragraph before them. Actually, 79 per cent of them just copied the model with very few changes concerning vocabuulary and

---

7. See Hill, L.A., **Free Composition Book**, OUP, 1966, p.4, from which this item was borrowed. It was again chosen on purpose, because the test was given at the end of the first term, after which the students had a holiday of two weeks.

8. The writer feels that in assessing composition grades are more accurate than marks.

A BLACKBOARD COMPOSITION TECHNIQUE FOR IRAQI UNIVERSITY STUDENTS

H. B. M. Al-Sawaf, Ph. D.

It is surprsing to discover that first-year university students whose field of study is English have not as yet mastered the basic structures of the language and are generally weak in fundamental language-work. (1) This deficiency is apparent in the students' oral and written expression of the language. When they speak or write English in their composition periods, they cannot use the basic structures effectively, and they still make a considerable number of mistakes, especially in their written work. They do not even understand what a paragraph is and how to write a coherent one is correct English . (2)

To provide evidence of this claim, we gave our first-year students a test in written composition.(3)This test was really easy to compose.(4)It included only three items. The first one(5)gave the students a paragraph as a guide, then asked them to write another on more or less the same lines. In the second item,(6)the students were given a paragraph and asked to see if it had a definite controlling idea. If it did, the students had to single it out

1. The writer is focusing on first-year students of the Department of European Languages in the University of Mosul College of Arts. Prior to joining this Department, these students have been learning English for eight years. Actually, they start learning this language at the age of eleven when they are in their fifth year at the primary school, which is a six-year course. Then they go on learning it at their intermediate and secondary schools, which are a three-year course each.

2. An investigation into the reasons why the standards are so poor does not concern this study.

3. We could not give the students a really reliable test in oral composition owing to the fact that we have no audio facilities available to do the job. This could be a subject for another piece of research when equipment is within reach.

4. A copy of this test is provided in Appendix 1.

5. This item was taken from Chaplen, F., **Paragraph Writing**, Oxford University Press (OUP), 1970, p. 56. It was chosen deliberately, because the students were having a two-weeks' holiday after the test.

6. This item was taken from the same source above, pp. 5-6.

Bibliography

Baker, Ernest A . *The History of the English Novel* .
New York : Barnes and Noble , In ., 1960 .

Cecil , David *Early Victorian Novelists* .
London : Collins Clear - Type Press , 1966 .

Eliot , George *Middlemarch* .
London : Hazell Watson and Viney Ltd., 1970.

Thale , Jerome *The Novels of George Eliot* .
New York : Columbia University Press , 1967 .

status and elegance, did not reckon the strength of his scientific and professional ambition . Similarly Dorothea saw Casaubon only as the fulfilment of her idealistic aspirations and not as a husband . Dorothea and Rosamond confused their wishes with reality . They were too much blinded by the intensity of their egoes to see the facts of life that most of the people around them could see .

The failure of the leading characters in Middlemarch is full of significance and meaning . Because Lydgate's work was so important and so much of his character was committed to and defined by his professional ambition, the collapse of his career means total wreck for him . "At the end he is a fashionable physician with no interest in discovery , content only to maintain a prosperous practice . We see how it has lowered his spirit , slackened his scruples, embittered his tongue."(14) Dorothea's shattered aspirations left her disappointed, disheartened and depressed. Bulstrode, the town philanthropist , the promoter of reform for godly purposes , whose position rests upon fraud - he too shared in the aspirations , the desire for change, yet he was finally discovered to be a wicked , double dealer in his conscience , and left to fester his own rottenness of heart .

(14) David Cecil, Early Victorian Novelists, (London: Collins Clear-Type Press, 1966), p. 234 .

regardless of the result , "was the thing that gives direction to her character . " (13) To such a selfish pretentious woman a good house-keeping consisted simply in ordering the best of everything .

Now Lydgate came to think of himself as the sufferer whose life has been injured by others , including his wife . He had meant to devote himself for the benefit of mankind , yet owing to unseen and unfriendly circumsstances which were thrust into his life , his noble purpose was finally thwarted and his draems shattered .

In Middlemarch , George Eliot illustrated the account of the lives of two noble - minded characters , Dorothea Brooke and Tertius Lydgate . Their idealism was strangled and then crushed by associations with mean - spirited or materialistic personalities . Both of them experienced bitter failure and total disillusionment in their aspirations and ideals. Lydgate married Rosamond Vincy hoping to have a sympathetic and loving wife , yet he was soon to discover in her only a deadly egoism of the spoilt child . Dorothea's destiny is the result , not just of the narrowness of her provincial world , but also of her ardent , idealistic nature . Lydgate fails , not just because of cruel circumstances , but also because of intrinsic flaw . He was unable to put a limit to the extravagant demands of his wife . He did not mind the heavy debt that he incurred just to please a greedy and pretentious wife . The arrival of Dr. Lygate , who was a symbol of a professional as well as a social advance to Middlemarch aroused the jealousy and hostility of the local doctors . He was a noble idealist trying to straighten the crooked practicality of age . Thus , in hoping to advance both medical research and practice in a provincial town , Lydgate got himself entangled with the local conservative forces which succeeded in bringing his final defeat .

Most of the major characters came to grief and disappointment because they were too preoccupied with their aspirations to know themselves and the decisive social forces which caused their downfall . This ignorance of self leads to misestimation of the other people . Rosamond , unable to see in Lydgate anything but a fine marriage that would provide her with social

---

(13) Jerome Thale, **The Novels of George Eliot,** (New York : Columbia University **Press,** 1967) p. 111 .

In addition Dr. Lydgate was so much interested in excending the boundaries of scientific knowledge that he became scornful of the worldly prizes his profession might enable him to gain . Yet it is to be noted how deeply he got entangled with Bulstrade , the ignominious and hypocrite banker , for the sake of getting financial aid to get his medical ideals realized :

> His attachment to Bulstrode is based on the belief that Bulstrode seems to have good ideas about hospitals , and he spends large sums on useful public objects. He might help me a good deal in carrying out my medical ideas . (10)

For this reason Dr. Lydgate did not heed the criticism of the people of Middlemarch that in associating with Bulstrode , the wicked and sanctimonious merchant , he had compromised his noble purposes of medical accomplishment for ill gotten money . He did not like to frustrate his own best purposes by getting on bad terms with Bulstrode ; he did not like voting against Farebrother, and helping to deprive him of function and salary . He was favouring Bulstrode for the sake of making himself important in this world . "What he really cared for was a medium for his work, a vehicle for his ideas . " (11) People started to whisper . And for the first time Lydgate was feeling the hampering pressure of small social conditions, and their frustrating complexity .

Dr. Lydgate's stultifying marriage to a shallow, pleasure - loving woman, "who becomes a clog on all his fine schemes , brings him to the verge of ruin , and makes the unselfish career on which he had pinned his hopes a failure . " (12) Unfortunately his marriage to Rosamond Vincy , a stubborn proud , tenacious and pretentious woman , is one of the factors that almost brought him to a complete ruin . Selfish aspirations motivate Rosamond to accept Lydgate . She thought that Dr. Lydgate was a perfect gentleman and for this reason she adamantly refused to give up her only prospect of happiness and social relation . She could not love anyone who was not a real gentleman.She decided to marry this young doctor because she thought that Lydgate and his family would be financially and socially a glory to her . Lydgate's continuous concessions to Rosamond were often a result of his inability to resist her selfish desires . Her ambition to have everything

10) Ibid., p. 205 .

11) Ibid., p.210 .

12) Ernest A. Baker, The History of the English Novel, (New York : Barnes and Noble, In., 1960) Vol . III. pp. 256 - 257 .

ctation for success, confidence in his own powers and integrity of purpose:

> 'I will not profess bravery , 'said Lydgate , 'but I acknowledge a good deal of pleasure in fighting , and I should not care for my profession , if I did not believe that better methods, were to be found and enforced there as well as everywhere else .' (6)

Dr. Lydgate was painfully aware of the backwardness under which medical treatment labours in the provincial districts . He has devoted himself to the object of hospital improvement . He was concerned with the possibility that he might work out the proof of an anatomical conception and make a link in the chain of medical discovery . He decided to be a good Middlemarch doctor , and by that very means keep himself in the track of far - reaching investigation . He was ambitious above all to contribute towards enlarging the scientific knowledge , the basis of his profession . With a generous resolution he wanted his medical researches to be at the disposal of all mankind :

> He was an ardent fellow , but at present his ardour was absorbed in love of his work and in the ambition of making his life recognized as a factor in the better life of mankind - like other heroes of science who had nothing but an obscure country practice to begin with . (7)

Dr. Lydgate was born in London , reared in London , and medically educated in that large city , yet he refused to practice his profession there because :

> That was why I determined not to try anything in London , for agood many years at least . I did not like what I saw when I was studying there - so much empty bigwiggism , and obstructive trickery - in the country people have less pretention to knowledge. (8)

Dr. Lydgate was a good - hearted man . He was bent on alleviating the suffering of the poor people rather than the rich . His case for them was as a result of his compassion for them . He had a natural yearning to help the poor and solve their problems :

> But I don't really like attending such people so well as the poor. The cases are more monotonous , and one has to go through more fuss and listen more deferentially to nonsense . (9)

(6) **Ibid., p.** 153 .
(7) **Ibid., p.** 195 .
(8) **Ibid., p.** 204 .
(9) **Ibid., p.** 327 .

dreamed of finding in her husband's mind were replaced by mere illusion and false hopes which seemed to lead her nowhere. She was humiliated to find herself a mere victim of futile dreams . It was too late for her to find out the futility of her husband's efforts to be a great literary figure, a giant author ; instead she discovered a dried - up pedant . a faded scholar , and an atrophied husband . She came to realize her fruitless attempts to be his helpmaker in all his kind deeds :

> She longed for objects which would be directly beneficent like the sunshine and the rain , but now it appeared that she was to live more and more in a virtual tomb , where there was the apparatus of a ghastly labour producing what would never see the light. (2)

After the death of Mr. Casaubon, Dorothea resolved not to marry again, but, ". . . to take a great deal of land , and drain it, and make a little colony, where everybody should work, and all the work should be done well. I should know everyone of the people and be their friend . " (3) Dorothea was too good and cooperative to abandon her distressed friend Dr.Lydgate, "I cannot be indifferent to the troubles of a man who advised me in my troubles , and attended me in my illness . " (4) Again Dorothea was willing to come to the help of Dr. Lydgate and defend him against his foes who were using everything to get him defamed and driven out of Middlemarch, "They would know that I could have no other motive than truth and justice . I would take any pains to clear you . I have very little to do. There is nothing better that I can do in the world . " (5) It is obvious that cruel circumstances and bad luck united in crushing the aspirations and good intentions of such a good woman .

The other pathetic story , I would like to discuss is that of Dr. Lydgate whose human ambitions withered under the pressure of provincial narrowness. Dr. Lydgate tried to combine the reform of medical practice to basic research for the benefit of the Middlemarchers . Yet he was pushed to a tragic end when he was trapped into a stultifying union with Rosamond Vincy , the monster of egoism .

What was the background of this brilliant man ? He was young , poor very ambitious , very gifted , talented , a fearless man who was fully expe-

(2) George Eliot, **Middlemarch,** (London: Hazell Watson & Viney Ltd., 1970), p.516.

(3) **Ibid.,** p. 594 .

(4) **Ibid.,** p. 790 .

(5) **Ibid., p.** 820 .

guide who would take her along the grandest path . " (1)

Dorothea's wish was to find in Mr. Casaubon , 'the faded scholar' , a champion and a loving husband who would assure her of his deepest love and would open the gate for new experiences unknown to her . She wished to have a husband who was above her in judgment and in all branches of knowledge , a husband who would be an earthy guardian of her welfare. To her the delightful marriage must be that where a husband is a sort of a scholar who is willing to teach you even Hebrew , if you wished. She thought of the Reverend Edward Casaubon , noted in the country as a man of profound learning , understood for many years to be engaged on a great work concerning religious history ; also a man of wealth enough to give lustre to his piety. His very name carried an impression hardly to be measured without a precise chronology of scholarship . Even his manners , she thought , were very dignified . She was captivated by the accepted belief that Casaubon was a living and great religious man whose work would reconcile complete knowledge with devoted piety ; here was a modern Augustine who united the glories of doctor and saint . The idea of becoming a wife to such a great man touched her all being with a sort of reverential gratitude . She was very enthusiastic to learn everything in order to help him the better in his great work, *'A Key To All Mythologies'*. There would be nothing trivial about their lives . Everyday events with them would mean the greatest things . It would be like marrying Pascal. She should learn to see the truth by the same light as great men have seen it. Then she would get rich experience that would enable her to know what to do when she is older-she should see how to lead a grand life in the coming years . Even she hopes to be able to get the people well housed in Lowick ! She thought of her marriage to Mr. Casaubon as an opportunity that would open for her a fuller life of facts and knowledge , that she would enter on a higher grade of initiation . She thought that she would be allowed to live continually in the light of a mind that she had to highly reverence . It was entirely out of devotion to her future husband that Dorothea wished to learn Latin and Greek in order to help him achieve the publication of his book .

But what a pity ! Unseen and cruel circumstances prevented Dorothea from realizing her aspiration and dreams. Very shortly after her **marriage** she began to feel that the large vistas and wide fresh air which she had

(1) George Eliot, **Middlemarch,** (London: Hazell Watson and Viney Ltd., 1970), p.51.

MOTIVATIONS IN MIDDLEMARCH

A. M. Al- Samarrai , M. A.

In Middlemarch , George Eliot gave a revealing picture of sordid and ugly things. She gave the reader a masterly and, indeed, a great psychological analysis of human nature and motive. She presented her individ - uals enmeshed in their cruel struggle in an unjust society, trying to achieve their aspirations and realize their noble aims. She dramatized man's various attempts, often fumbling and frustrated, to shape his destiny in a world deeply swayed by the random tides of chance and contingency . The accumulation and interaction of countless choices, of insignificant actions of minute and subtle pressures, of invicible motives and unforeseen consequences - all these create a field of decisive factors which act, now with and now against, the individual will. The psychological and spiritual development of her protagonists reveals a process of painful and bitter struggle to break free from the prison of egoism and grudge into a life of sympathy with their fellow men. On the other hand , she gave acute studies of spiritual degeneration and petrifaction of the corrupted soul as it creates its own private hell .

George Eliot profuse and superb ability enabled her to analyse and set dramatically into motion cruel forces and pressures which we feel to be the sinew and bloodstream of any reasonably sophistocated society . In such a society one can find various groupings and associations, its conflicting interests and their influence they exercise .

I have meant this paper to deal with the aspirations of the leading characters of the book, and as such I will deal with Dorothea Brooke , Dr. Lydgate, and to a lesser degree with theory , Bulstrode and Rosamond .

At the heart of the novel there is the pathetic story of Dorothea and Dr. Lydgate, a combined study in defeated aspirations and idealism . Doeothea is the innocent idealist, anxious to do a great deal of good in a world which cramps and confines her ardour so that she dwindles into a futile marriage with the pedantic and sterile Casaubon . She is ardent , romantic , innocent , ignorant of her self and the world in which she lives, normally and literally she is myopic . Her acceptance of Mr. Casaubon as a husband is really motivated by her desire that "The union which attracted her was one that would deliver her from her girlish subjection to her own ignorance , and give her the freedom of voluntary submission to a

CONTENTS

ADAB AL-RAFIDAIN

PUBLISHED BY

THE COLLEGE OF ARTS

MOSUL UNIVERSITY

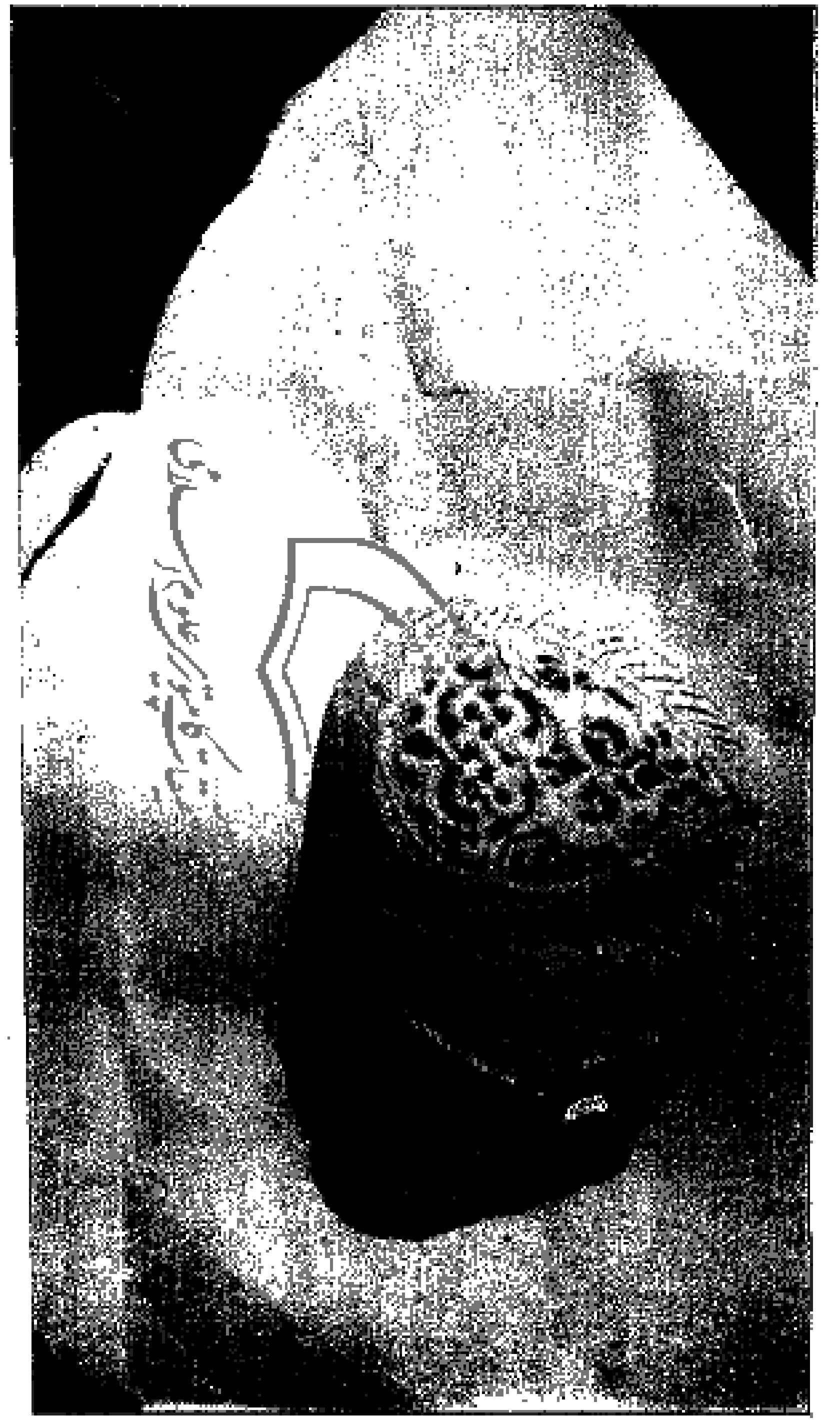
VOLUME IV

AUGUST 1972

Printed at Mosul University press

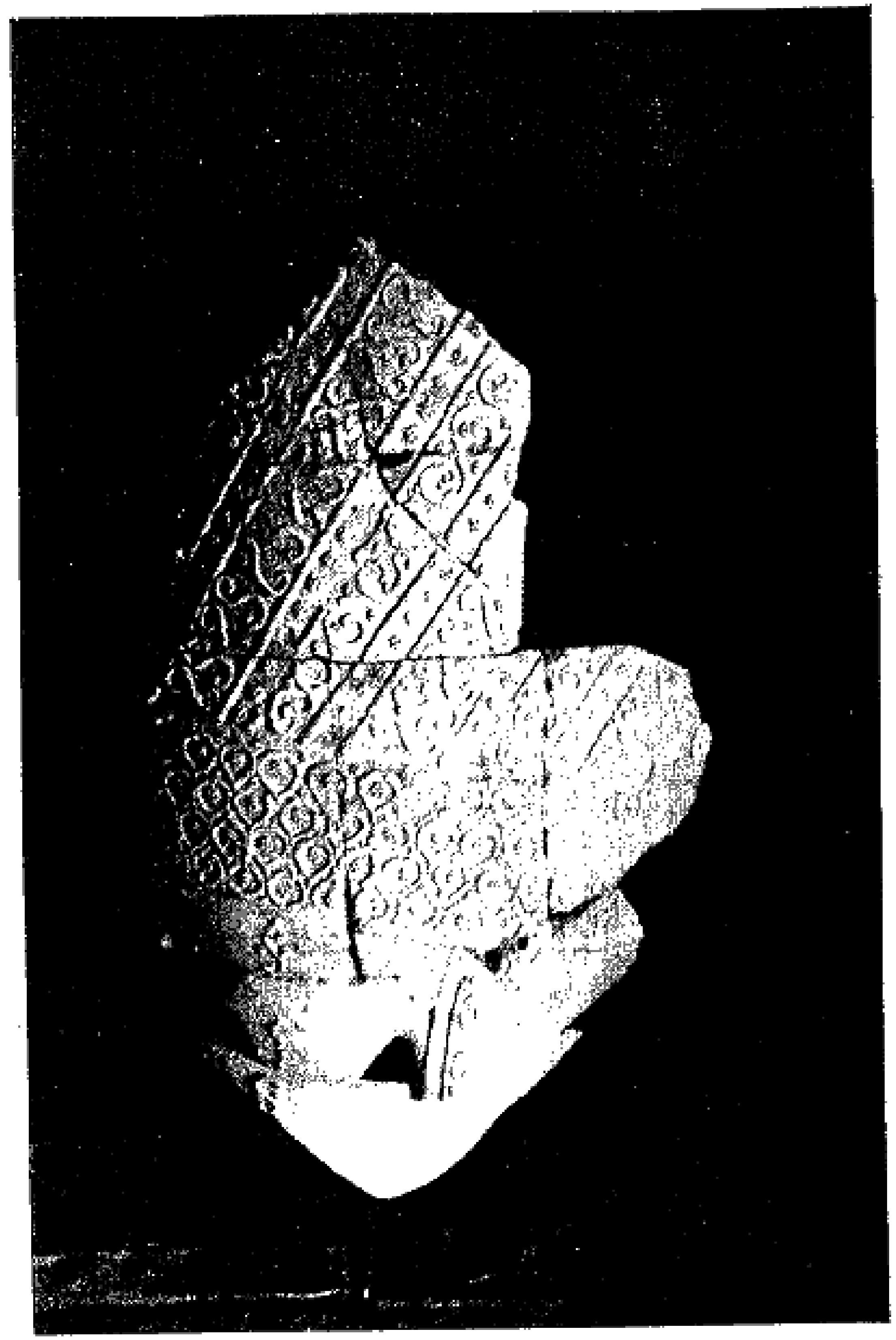
MOSUL - IRAQ



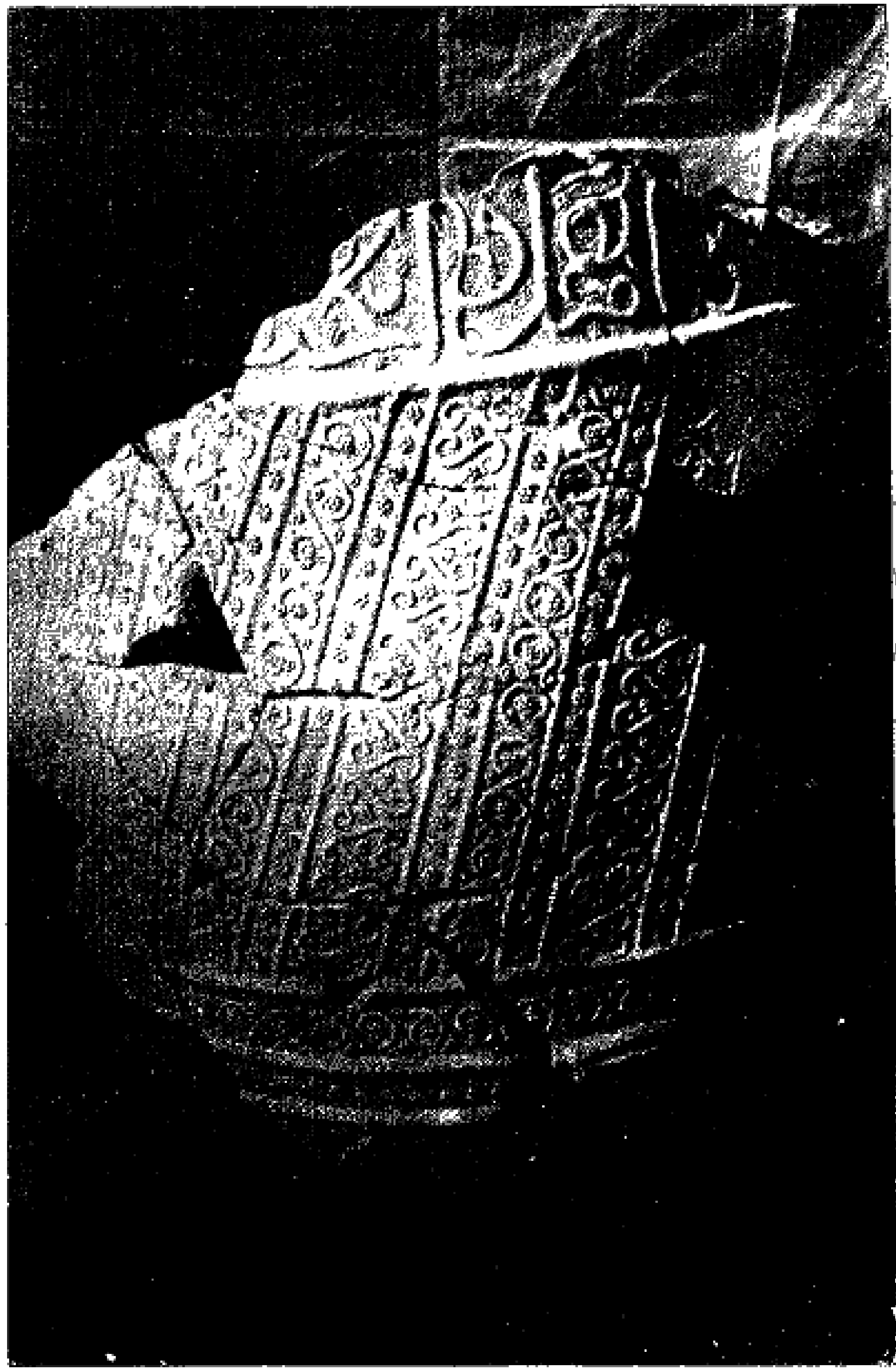




شکل رقم «۱۰»



شكل رقم «٦»



شكل رقم «٧»







شكل رقم «٣»



شكل رقم «٤»



شكل رقم «٥»